فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

450

كانون الثاني 2025

مقالات

أحمد الدين

عبدالحسين صالح الطائي

أحمد الناجي

محمد دهموش

محمد جمعة توفيق

جاسم الحلفي

نصوص قديمة

إدوارد سعيد

نصوص مترجمة

انطون جاغر

أدب وفن

حسب الله يحيى

رهبة أسودي حسين

شاكر كتاب

داود سلمان الشويلي

كامل داود

ليث الصندوق

إسماعيل إبراهيم عبد

طه الزرباطي

سلام حربة

حسين سميسم

طلال حسن

مرتجى آيار

خنساء العيداني

يحيى علوان

نبيل موميد

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جـــــواد الزيدي

رضـــــا الظاهر — علي إبـراهيـــم

كـــــاوة محمود — مظهر محمد صالح

هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري

هـــاشـم نعمـة

سوران قحطـان

حسب الله يحيى

محرر "أدب وفن"

العدد 450

كانون الثاني 2025

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment- Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي: althakafaaljadeda@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

- أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
- ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
- ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
- باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
- وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
- ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
- ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
- لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
- بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
- للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
- يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
- بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
- بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
- بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 - عشر محطات ثقافية تاريخية عراقية – كويتية.....أحمد الديين
18 - تحديات الاندماج للجيل الثالث
من أبناء المهاجرين العراقيين في البلدان الغربية.....عبدالحسين صالح الطائي
27 - مجلة (ليلى)... حلم منقطع وذاكرة ناطقة..... أحمد الناجي
37 - التحليل الثقافي للخطاب السياسي
أنموذج خطاب رئيس الحكومة المغربية السابق سعد الدين العثماني.....محمد دهموش
44 - سيمون بوليفار القائد الذي حرّر أمريكا اللاتينية وخلّد حلم الوحدة..... محمد جمعة توفيق
50 - قراءة في كتاب الدكتور فارس حرّام "أرض جاهزة للفاشيين".....جاسم الحلفي

نصوص قديمة

61 - الصهيونية الأميركية.....إدوارد سعيد

نصوص مترجمة

75 -التحول إلى اليمين من الأسفل
لماذا تفوز الأحزاب اليمينية المتطرفة؟ : انطون جاغر..... ترجمة: رشيد غويلب

أدب وفن

84 - ثقافة 2025.....حسب الله يحيى
85 - المثقف والفعل الثوري ،الثورة و(شياطين) دوستويفسكي.....رهبة أسودي حسين
90 - النص بين الواقع والمجتمع.....شاكر كتاب
98 - مجتمع نجيب محفوظ الروائي.....داود سلمان الشويلي
105 - هجرة العماريين الى بغداد.....كامل داود
111 - الشاعر الذي رأى الشاعر الشهيد أحمد آدم في (دواخل).....ليث الصندوق
117 - " سفرة سياحية": خرافة حكام.....إسماعيل إبراهيم عبد
123 - مُبَرِراتُ القسوَةِ .....طه الزرباطي
125 - (قصة) سلالم الهاوية.....سلام حربة
131 - سلام حربه في (بيت طوفان) .....حسين سميسم
133 - (مسرح) ثلاث مسرحيات قصيرة..... طلال حسن
142 - (قصة) 54 يوماً في الفُنـدق.....مرتجى آيار
146 - (مقابلة) مع جان أوب دي بيك/ رسام الكاريكاتير.....ترجمة وإعداد: خنساء العيداني
148 - رحل ممتاز كريدي.....يحيى علوان
157 - الرَّاهبَة الدَّاميَة شارل نوديي.....ترجمة وتقديم: نبيل موميد

صورتا غلافي العدد: للفنان حسن الجراح

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

التعلم من الدروس...

تشهد منطقتنا العربية منذ أكثر من عام جهوداً حثيثة لتغيير موازين القوى، وترتيب أوضاعها السياسية والاقتصادية والعسكرية والأمنية، بما يتوافق مع مصالح الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل والدول الأوروبية عموما، ارتباطا بالحرب الوحشية المستمرة التي تشنها إسرائيل ضد الشعب الفلسطيني في غزة وما خلفته من دمار واسع النطاق وخسائر بشرية هائلة، وكذلك الحرب التي شنتها إسرائيل ضد لبنان وما رافقها من تدمير منهجي لبناه التحتية وقتل وجرح وتشريد الآلاف من أبناء الشعب وقتل قادة حزب الله. وأخيرا ما شهدناه من انهيار النظام السوري السريع على يد مجموعات إسلامية مسلّحة لها خلفيات فكرية تكفيرية وإرهابية تدعمها تركيا بشكل علني، وأطراف خارجية أخرى. لا يمكن أن يجري ذلك دون توافق تركيا مع الولايات المتحدة وإسرائيل، وأطراف إقليمية ودولية أخرى على ما حدث، واستغلال إسرائيل انهيار النظام والمؤسسة العسكرية والتوغل في الأراضي السورية واحتلال مواقع استراتيجية وتدمير المعدات العسكرية للجيش السوري وبناه التحتية، لجعل سوريا منزوعة السلاح مستقبلا، مع ما رافق ذلك من تغاضي الحكام الجدد عن هذا العدوان الصارخ. وهذا ما يُثير كثيرا من علامات الاستفهام!

إنّ انهيار النظام السوري بهذه السرعة، كان نتيجة منطقية لعقود من الحكم المستبد القائم على نظام الحزب الواحد المتمثّل بحزب البعث واحتكار السلطة لعائلة واحدة طيلة 54 عاما، وممارسته القمع ومصادرة الحريات، وقمعه الدموي لبدايات الاحتجاجات المدنية السلمية عام 2011 التي رافقت موجة انتفاضات الربيع العربي، وعدم إجراء إصلاحات سياسية تفضي إلى قيام نظام ديمقراطي تعددي قائم على المؤسسات الدستورية، يؤمن بالتداول السلمي للسلطة والعدل والمساواة ويحترم حقوق الإنسان وحرية التعبير ويحقق العدالة الاجتماعية؛ لذلك تبددت القاعدة الاجتماعية المساندة للنظام التي كانت أصلا محدودة، ولم تدافع عنه الجماهير عندما تقدمت المجموعات المسلحة، إضافة إلى ذلك، وهذا مهم، تخلي حلفاء النظام الدوليين عنه بعد أن أدركوا ضعفه وهشاشته وأن الدفاع عنه بات يكلفهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا.

هذا الانهيار المفاجئ وغير المتوقع للنظام السوري بهذه السرعة ولد ردود فعل واسعة النطاق على مستوى المنطقة عموما والعراق خصوصا، نظرا إلى العلاقات الخاصة والقوية التي كانت تربط الكتل والأحزاب المتنفذة الحاكمة وبعض الميلشيات بنظام الأسد،

والتي كانت ذات صبغة طائفية وغير مؤسساتية.

إنّ هشاشة الوضع الداخلي على المستوى السياسي والاقتصادي والأمني تعكس اعتماد المنظومة الحاكمة في بلدنا على نهج المحاصصة الطائفية - الاثنية وضيق قاعدتها الاجتماعية المستمر، وخير دليل على ذلك التراجع المستمر لنسب المشاركة في الانتخابات سواء البرلمانية أم المحلية. وغياب مشروع وطني لبناء دولة المواطنة بدل دولة المكونات المفكِكة للنسيج المجتمعي. وعدم تبني خطط اجتماعية - اقتصادية لتنمية البلد وإخراجه من دائرة الاعتماد الذي يكاد يكون كليا على تصدير النفط وامتصاص البطالة وتحسين الخدمات الاجتماعية والصحية والتعليمية. كذلك عدم سيطرة الدولة على السلاح المنفلت ووجود ميليشيات تعمل خارج سيطرتها، لها ارتباطات خارجية معلنة وتنفذ أجندات من يدعمها. والتضييق المستمر على حرية التعبير ومحاولة تشريع قانون يؤطر ذلك؛ لذلك كان القلق عميقا لدى الأحزاب والكتل المتنفذة من أن يؤدي تغيير النظام السياسي في سوريا إلى ارتدادات على الوضع السياسي في العراق، ومن ثم ينعكس سلبا على مصالحها الفئوية الضيّقة. نقول لو كانت المنظومة الحاكمة لديها عقلية بناء الدولة ومؤسساتها الدستورية واعتمدت على دعم الشعب ولبّت مطالبه المستحقة، ولم تقمع انتفاضة تشرين 2019 المجيدة بشكل دموي، ولم تنكل باحتجاجاته ووقفاته السلمية المطالبة بالحقوق المشروعة، ولم تعوّل بهذا القدر أو ذاك على الدعم الخارجي لما تولدت لديها هذه المخاوف الجدية على مستقبلها السياسي نتيجة ما حدث في سوريا.

إن نبذ نهج المحاصصة الطائفية - الاثنية المقيت هو المدخل السليم للتغيير الشامل لبناء دولة مدنية ديمقراطية تعتمد المواطنة المتساوية - دون النظر إلى الخلفية الدينية والمذهبية والقومية - والعدالة الاجتماعية، دولة مؤسسات تتمتع بكامل السيادة وتبسط سيطرتها على كامل التراب الوطني، وتحتكر السلاح، لتهيئ مستلزمات مغادرة جميع القوات الأجنبية العراق، ولا تعول على دعم أطراف إقليمية ودولية معينة لخدمة أجندات سياسية داخلية، والتي يمكن أن تفقد هذا الدعم في أي منعطف حاسم إذا ما تضررت مصالح هذه الأطراف أو وجدت أن التغيير السياسي القادم يجنبها الخسائر أو يقلل منها. وما حدث في سوريا لهو مثال ساطع على ما نقول. فلتتعلم المنظومة الحاكمة من الدروس البليغة المستجدة، ولتستند إلى الشعب وإرادته وتطلعاته نحو مستقبل أفضل، وتعمل على تلبية مطالبه الأساسية المستحقة، بغير ذلك فإن حكم التاريخ عليها سيكون قاسيا لا يرحم!

مقالات

عشر محطات ثقافية تاريخية عراقية – كويتية*

أحمد الديين

عند تناول العلاقات العراقية الكويتية، فإنّ الاهتمام ينصرف غالباً نحو المشكلات الحدودية والأزمات السياسية والأعمال الحربية، ولكني هنا سأركّز على البعد الثقافي التاريخي للعلاقات بين البلدين الجارين والشعبين الشقيقين، واخترت كنقطة بداية أواسط عقد عشرينات القرن العشرين لارتباطها من جهة بتأسيس الدولة العراقية الحديثة، ولارتباطها من جهة أخرى بانطلاق الحركات الإصلاحية في الكويت في ذلك الوقت، حيث سأتوقف أمام عشر محطات ثقافية تاريخية عراقية - كويتية تبرز أهمية الروابط الثقافية وتنوعها، وهي روابط لم تكن سطحية أو عابرة، وإنما كانت عميقة وواسعة، والأهم أنها كانت علاقات جدلية ذات تأثير تفاعلي متبادل، وكانت تستند إلى أسس موضوعية مادية ملموسة تتمثل في الجوار الجغرافي والصلات التاريخية والروابط الاقتصادية خصوصاً قبل النفط بين العراق والكويت... وبالطبع فقد شهدت هذه العلاقات الثقافية وغيرها ما شهدته من تبدّلات وتناقضات وانقطاعات، وتأثرت سلباً أيما أثر وتأثير جراء الصراعات والأزمات السياسية والحدودية. وكان أشدها خطورة مغامرة نظام صدام في العام 1990 بغزو الكويت واحتلالها، وما نجم عن ذلك من تداعيات، بل كوارث على البلدين والمنطقة.

فما هي المحطات الثقافية -التاريخية العشر، التي سنتوقف عندها؟

المحطة الأولى: المعلمون العراقيون في الكويت

بحكم اعتبارات عديدة يقع ضمنها مستوى التطور الثقافي النسبي في العراق، وتحديداً في الحواضر، فمن الطبيعي أن تتم الاستعانة بالمعلمين العراقيين للنهوض بمهام التعليم في الكويت.

ومن أوائل المعلمين الذين وفدوا إلى الكويت من البصرة السيد عبد الجليل الطباطبائي، حيث استوطن الكويت في العام 1836، وتبعه في المهمة ذاتها ابنه السيد أحمد، وبعدها ومع بدء التعليم شبه النظامي بافتتاح المدرسة المباركية في العام 1911 والأحمدية في العام 1921، توافد عدد من المعلمين من العراق، بينهم الشيخ محمد بن نوري من الموصل، والشيخ محمود الهيتي، فيما تولى محمد العادلي وهو من النجف نظارة المدرسة الوطنية الجعفرية

التي افتتحت في العام 1939 واستمر كذلك حتى العام 1944.

إلا أنّ التطور الأهم حدث بعد تأسيس جامعة الكويت في العام 1966، حيث شارك عدد من أبرز القامات الأكاديمية العراقية في انطلاقتها كأعضاء في هيئة التدريس، وتولى بعضهم مناصب العمادة في عدد من كليات الجامعة، وبينهم: رائدة الشعر الحديث د. نازك الملائكة، والفيلسوف العراقي د. حسام الآلوسي، والجغرافي البارز د. محمد رشيد الفيل، والتربوي الكبير د. محمد جواد رضا، د. وديعة طه النجم، والشاعر د. عبدالواحد لؤلؤة.

وقد تولى الدكتور محمد جواد رضا عمادة كلية الآداب والتربية بين العامين 1975 و1978، فيما تولت الدكتورة وديعة طه النجم عمادة كلية البنات الجامعية لفترة ليست قصيرة.

وألّف الأساتذة العراقيون في جامعة الكويت العديد من الكتب والدراسات العلمية خلال إقامتهم في الكويت، فقد نشر د. حسام الآلوسي كتابه "من الميثولوجيا إلى الفلسفة أو بواكير الفلسفة قبل طاليس" في عام 1973، فيما نشر د. محمد رشيد الفيل، وهو من الموصل وأحد رواد المدرسة الجغرافية العراقية، العديد من كتبه في الكويت وبينها: "الحدود العراقية – الكويتية"، "سكان الكويت"، و"الجغرافيا التاريخية للكويت"، كما نشرت د.وديعة طه النجم كتباً عديدة خلال عملها في الكويت من بينها: "الشعر في الحاضرة العباسية"، "الجاحظ والنقد الأدبي"، و"القصص والقصاص في الأدب الإسلامي".

أما الدكتور محمد جواد رضا فقد كان شديد التفاعل مع المجتمع الكويتي وقضاياه، وله ثلاثة كتب مهمة أولها "معركة الاختلاط في جامعة الكويت – دراسة في الفكر الاجتماعي الكويتي" الذي نشرته شركة الربيعان للنشر والتوزيع في الكويت عام 1984، والكتاب الآخر هو "صراع الدولة والقبيلة في الخليج العربي" الصادر عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت عام 1992، والثالث هو كتاب "الخروج من زمن البراءة: التجربة الكويتية 1961-1991"، الصادر عن دار قرطاس في الكويت عام 2000، الذي رصد فيه ما شهده المجتمع الكويتي من تحولات عاصفة وأزمات محتدمة... بالإضافة إلى ما ألّفه د. محمد جواد رضا من كتب متصلة بتخصصه الأكاديمي في الشأن التربوي، وهي كثيرة، بينها: "التربية والتبدل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي" الصادر عن وكالة المطبوعات في الكويت عام 1975، و"الإصلاح الجامعي في الخليج العربي" الصادر عن شركة الربيعان في الكويت عام 1984.

فيما تعرّض الفيلسوف العراقي د. حسام الآلوسي في بداية عمله بجامعة الكويت إلى هجمة تكفير من مجلة "المجتمع" التي تصدرها "جمعية الإصلاح الاجتماعي" المحسوبة على تيار الإخوان المسلمين في الكويت اتهمته فيها بالعداء للدين الإسلامي، وهذا ما نجده في العدد 65 من المجلة الصادر في 22 يونيو/ حزيران 1971 تحت عنوان "كافرون في جامعة الكويت" ورد وزير التربية الرئيس الأعلى لجامعة الكويت جاسم المرزوق على اتهامات مجلة "المجتمع" في العدد 67 من المجلة الصادر في 6 يوليو/ تموز 1971.

المحطة الثانية: البعثات التعليمية الطلابية الكويتية إلى العراق

غادرت أولى البعثات التعليمية الكويت للدراسة في العراق عام 1924 مع بداية تشكّل الدولة العراقية الحديثة، وكانت مكونة من سبعة طلاب للدراسة في "الكلية الأعظمية" وهؤلاء الطلاب هم: الشيخ فهد السالم الصباح، أحمد بن عمر العلي، عبدالله عبداللطيف العبدالجليل، عبدالكريم محمد البدر، محمود عبدالرزاق الدوسري، خالد بن سليمان العدساني، وسليمان العنيزي.

وكانت مخصصات كل طالب من أفراد البعثة خمس روبيات هندية شهرياً لمصروفاتهم ومواصلاتهم ودفاترهم، وعادت البعثة إلى الكويت في العام 1926.

وفي العام 1938 وبمبادرة من مجلس المعارف في الكويت، وهو مجلس منتخب، وبعد تنفيذ اقتراح زيادة الضريبة الجمركية بنسبة نصف في المئة لتمويل التعليم، جرى إرسال بعثة تعليمية للدراسة في "دار المعلمين الريفية" ببغداد ضمت خمسة طلاب هم: صالح عبدالملك الصالح، خالد عبداللطيف المسلم، بدر السيد رجب الرفاعي، عبدالعزيز سليمان الدوسري، وعبدالله عبداللطيف المطوع. وعادت البعثة إلى الكويت في العام 1942.

فيما درس في كلية الحقوق ببغداد عام 1939 جاسم حمد الصقر وذلك على النفقة الخاصة لأهله، ولعله أول خريج جامعي كويتي.

ومن اللافت للاهتمام أنّ الطلبة الكويتيين المبعوثين إلى العراق وكذلك بعض الطلبة الكويتيين الذين كانوا يدرسون هناك على نفقتهم الخاصة، قد شاركوا في دعم حركة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 وهذا ما يشير إليه عبدالعزيز سليمان الدوسري في حديثه المنشور ضمن كتاب "رجال في تاريخ الكويت" الجزء الثالث، حيث يقول: "انخرطنا في التدريبات العسكرية ضمن صفوف الطلبة، ووزعت علينا ملابس عسكرية، بل وشاركنا كطلاب بعثة كويتية في العديد من المناسبات الوطنية بالعراق في ذلك الوقت – لا تتعجب... فقد كانت الروح القومية كبيرة في نفوسنا والحماس الوطني كان يدفعنا إلى هذه التدريبات"... ويضيف " بل شاركنا بالدفاع المدني"... و"كانت مشاركتنا من خلال نقل العتاد والمؤن من المخازن إلى جهات أخرى معينة ومحددة لنا، وبقينا نؤدي هذا الدور لمدة شهر تقريباً". أما أحمد السيد عمر، الذي لم يكن ضمن طلاب البعثة وإنما كان يدرس في العراق على نفقته الخاصة، فيشير في حديثه المنشور ضمن الكتاب ذاته إلى اعتقاله في العراق هو ومجموعة من زملائه الطلبة المشاركين في دعم حركة رشيد عالي الكيلاني لمدة خمسة أشهر بعد فشل تلك الحركة.

المحطة الثالثة: الصراع حول تغيير مناهج التعليم العراقية في الكويت

يشير كتاب "تاريخ التعليم في دولة الكويت: دراسة توثيقية، المجلد الثاني، الصادر عن مركز البحوث والدراسات الكويتية، 2002، ص 142" إلى أنه خلال مسيرة التعليم في الكويت كان المنهج العراقي وبعض من المنهج الفلسطيني هو منهج التعليم المطبق في الكويت بين العامين 1936 و1942، إلا أنّه بدءاً من العام 1943 تم التخلي عن المنهجين العراقي والفلسطيني للتعليم في الكويت وتطبيق المنهج التعليمي المصري والاعتماد على الكتب المدرسية المصرية، وتحت ضغط من المستشار البريطاني "وكلن"، وهذا ما أدى

إلى اندلاع موجة استياء في صفوف المعلمين والطلبة الكويتيين، بل امتدت موجة الاستياء على تبديل المنهج الدراسي من العراقي إلى المصري إلى صفوف المثقفين الكويتيين عامة، وبرزت حركة احتجاجية كان من أبرز المشاركين فيها: عبدالله زكريا الأنصاري، حمود المقهوي، خالد المسلم، صالح الشهاب، فهد الدويري، عبدالله عبداللطيف المطوع، سعود الخرجي، عبدالوهاب العدواني، عبدالعزيز العنجري، صالح عبدالملك الصالح، وعبدالعزيز الدوسري، الذين عقدوا لقاءات في ديوان الأنصاري، وقاموا بكتابة منشورات كانت تلقى ليلاً في الأسواق ليطلع عليها المواطنون في الصباح، وعندما رصدت السلطات تلك الحركة اعتقلت قادتها وتعرضوا للضرب المبرح في إدارة المعارف بمبنى المدرسة المباركية، ثم نُقلوا إلى سجن "بهيتة" وامضوا فيه نحو أسبوع ، إلى أن تدخل الشيخ يوسف بن عيسى القناعي لدى الشيخ أحمد الجابر فتم الأفراج عنهم... وخلال فترة اعتقالهم أضرب طلبة المدرسة المباركية عن الدراسة[1].

المحطة الرابعة: دور د. متي عقراوي الرئيس الأسبق لجامعة بغداد في تطوير التعليم بالكويت

ضمن المحاولات الرائدة لتطوير التعليم في الكويت في العام 1954 بعدما تولى الأستاذ عبدالعزيز حسين إدارة المعارف، وهو أحد رواد التنوير في الكويت، فقد تمت دعوة اثنين من الخبراء التربويين العرب البارزين إلى الكويت لدراسة وضع التعليم في البلاد وتقديم اقتراحات لتطويره، وهما د. متي عقراوي رئيس جامعة بغداد، والأستاذ إسماعيل القباني من مصر، حيث أمضيا فترة من الوقت في الكويت، وأنجزا تقريرهما الشهير، الذي حمل عنوان "تقرير عن التعليم في الكويت" المؤرخ في 16 مارس/ آذار من العام 1955، وهو يقع في 122 صفحة، وتمت طباعته في مطابع "دار الكتاب العربي بمصر – محمد حلمي المنياوي"، ويعد التقرير أحد أهم الوثائق التربوية في تاريخ التعليم بالكويت.

إذ اقترح الخبيران التربويان عقراوي وقباني ثمانية أهداف للتعليم في الكويت، من أبرزها: إزالة الأمية عن المجتمع، وبث روح المواطنة للكويت خاصة وللعروبة عامة والروح القومية، وبث روح الديمقراطية وتعودها في العمل، وتنمية مواهب الإبداع والابتكار وتشجيع التعبير عنها بالفن، وكل ما من شأنه إثراء الحياة الثقافية للفرد والمجتمع... كما حدد الخبيران عقراوي وقباني ثلاثة مبادئ للتعليم في الكويت، وهي: إلزامية التعليم حتى الرابعة عشرة، ولا فرق بين كويتي وغير كويتي، وأن يكون مجانياً، القيام بحملة لمحو الأمية، إتاحة الفرصة لجميع المواطنين في الكويت الراغبين في الاستزادة من التعليم.

كما اقترح الخبيران التربويان عقراوي وقباني وضع ثلاث مراحل للسلم التعليمي في الكويت: ابتدائية ومتوسطة وثانوية، مدة كل منها أربع سنوات.كما اقترحا أن تنقسم الدراسة في المرحلة الثانوية إلى فروع أكاديمية أدبية وعلمية وصناعية وإعداد المعلمين، بالإضافة إلى اقتراحهما افتتاح مرحلة لرياض الأطفال بين الرابعة والسادسة.

وبالفعل فقد تم تبني تقرير د. متى عقراوي وإسماعيل القباني وتطبيقه على أرض الواقع، ما أحدث نقلة هامة في مسيرة التعليم في الكويت.

المحطة الخامسة: التاريخ المشترك للطباعة

تأخر دخول الطباعة إلى الكويت قياساً ببقية البلدان العربية، بل قياساً أيضاً إلى بعض بلدان الخليج والجزيرة العربية مثل اليمن، التي أنشئت فيها أول مطبعة في العام 1877 ومكة المكرمة التي أنشئت فيها أول مطبعة في 1883، والبحرين 1939، ولذلك فقد كانت الكتب التي ألّفها كويتيون تطبع خارج الكويت، ومن بين ذلك كانت تطبع في العراق، فكتاب "المذكرة الفقهية في الأحكام الشرعية" للشيخ يوسف بن عيسى القناعي طبع في مطبعة الفرات ببغداد في عام 1925، وكذلك كتاب "فتح الرحمن في التحذير من شرب الدخان" للشيخ أحمد بن الشيخ عبدالله العوضي الشافعي الكويتي طبع في بغداد عام 1926، وكذلك الطبعة الأولى من كتاب "تاريخ الكويت" للشيخ عبدالعزيز الرشيد، وهو أول كتاب لمؤرخ كويتي عن تاريخ الكويت، تمت طباعته في "المطبعة العصرية" في بغداد عام 1926. بينما تعود المحاولة الأولى لتأسيس أول مطبعة في الكويت إلى العام 1928 لطباعة مجلة كان مقرراً أن تصدر وتحمل اسم "الصباح"، ولكن ذلك المشروع لم يتحقق على أرض الواقع، مع أنّ الباحث د. يعقوب الحجي يشير في كتابه "عبدالعزيز الرشيد – سيرة حياته" إلى أنه "كانت هناك بالفعل مطبعة اشتراها الشيخ أحمد الجابر من قس أمريكي للأعمال الرسمية" ولكنه يوضح أنّ تلك المطبعة اقتصرت على طباعة ما تحتاج إليه الحكومة، بالإضافة إلى آلة طباعة ستانسل للمدرسة المباركية، وهناك إشارات غير واضحة في المصادر التاريخية بأن تلك المطبعة كانت حجرية!

ثم بعد مضي نحو عقدين من الزمان وتحديداً في العام 1947 جلب اثنان من المثقفين الكويتيين البارزين، وهما أحمد البشر الرومي وحمود المقهوي، من العراق أول مطبعة إلى الكويت، حيث اشترياها في بغداد وشحناها إلى الكويت، ويشير فؤاد المقهوي في مقالة له منشورة في جريدة "الوطن" الكويتية العدد الصادر في 13 يوليو/ تموز 2005 إلى أنّ حمود المقهوي استعان خلال سفره إلى بغداد بصديقه الناشر العراقي قاسم الرجب للبحث عن مطبعة، فأخبره أن مطبعة "دباس" معروضة للبيع، فاتفق المقهوي والبشر مع صاحبها على شرائها.

والطريف في الأمر أنّ تلك المطبعة كانت بالأساس مطبعة الحزب الشيوعي العراقي أو لعلها هي المطبعة التي كان الحزب الشيوعي العراقي يطبع فيها بعض منشوراته، حيث يروي الأستاذ إبراهيم المقهوي، وهو شقيق حمود المقهوي الذي اشترى المطبعة مع أحمد البشر الرومي، قصة تلك المطبعة، التي باعها إليهما شخص يهودي وتم الاتفاق على أن ينقلها من بغداد إلى البصرة ليتمكنا هما من نقلها إلى الكويت، ويقول: "بالفعل نقلت إلى البصرة، لكن طرأ أمر فيه مساءلة للبائع قد تصل إلى توجيه اتهام له بارتكاب جريمة وبالتالي إنزال أقصى العقوبة به... كانت المطبعة صغيرة الحجم، ولذلك فقد كانت تستخدم لطباعة المنشورات الخاصة بالشيوعيين العراقيين في ذلك الوقت، ومعنى ذلك أن اختفاءها في بغداد وظهورها في البصرة أمر يدعو إلى علامة استفهام بالنسبة للحكومة العراقية في تلك الفترة خاصة وإن الشيوعيين كان لهم موقف يعارض موقف حكومتهم...كان الأمر صعباً لكن الله سهل الطريق وأحضرت الماكينة من البصرة إلى الكويت"[2].

المحطة السادسة: الصحف والمجلات العراقية – الكويتية المشتركة

هناك تاريخ لما يمكن أن نسميه الصحافة العراقية – الكويتية المشتركة يمثّل محطة مهمة لابد من التوقف أمامها، حيث يورد د. خليفة الوقيان في كتابه "الثقافة في الكويت"، الطبعة الرابعة، أكتوبر 2020 ص 85-83 مستنداً إلى مقال للباحث في التاريخ الكويتي الأستاذ يعقوب يوسف الإبراهيم منشور في جريدة "القبس" الكويتية في عددها الصادر في 11 ديسمبر/ كانون الأول 2003 وكذلك إلى ما كتبه سامي رفائيل بطي نقلاً عن والده في كتاب "صحافة العراق" أن الرعيل الأول من الصحافيين والأدباء الكويتيين ساهم في صحافة البصرة، فقد أصدر السيد عبدالوهاب الطبطبائي جريدة "الدستور" عام 1912 بعد أن اشترى امتيازها من الأستاذ عبدالله الزهير، وأعقبها بجريدة "صدى الدستور"، التي توقفت عن الصدور عند احتلال البريطانيين البصرة، وأصدر السيد هاشم الرفاعي جريدة "البصرة" في فبراير/ شباط 1934 واستمرت بالصدور إلى تاريخ احتجابها في يوليو/ تموز 1937، كما ساهم جاسم حمد الصقر بتأسيس دار نشر وطباعة أصدرت جريدة "الناس" في فبراير 1947... هذا ناهيك عن كتابة الصحافيين والكتاب الكويتيين في الصحف والمجلات العراقية وبينهم إلى جانب السيد عبدالوهاب الطبطبائي والسيد هاشم أحمد الرفاعي كل من الشيخ عبدالعزيز الرشيد، خالد سليمان العدساني، محمد البراك، عبدالله الجوعان، محمد السيد يوسف الرفاعي، أحمد السيد عمر، وحمد موسى الفارس.

ومن بين تلك الصحف والمجلات العراقية- الكويتية المشتركة مجلة تحمل اسماً طريفاً هو "الكويت والعراقي"، فهو ليس "الكويت والعراق" ولا "الكويتي والعراقي" وإنما اسم المجلة "الكويت والعراقي"، وهي مجلة مشتركة أصدرها في إندونيسيا الشيخ عبدالعزيز الرشيد صاحب مجلة "الكويت"، التي كانت أول مجلة كويتية وصدرت أعدادها بين العامين 1928 و1930، ومعه زميله يونس بحري الملقب بالسائح العراقي، وهو شخصية مثيرة، وقد استمدت المجلة اسمها من مجلة "الكويت" ومن لقب يونس بحري "السائح العراقي" فأصبحت "الكويت والعراقي".

وتعرّف المجلة نفسها بأنها "مجلة دينية أخلاقية تاريخية مصورة لصاحبيها عبدالعزيز الرشيد وي. بحري "السائح العراقي" تصدر غرة كل شهر عربي، حيث صدر العدد الاول منها في جمادى الأولى من العام 1350 هجري، سبتمبر/ أيلول 1931، وربما صدرت منها عشرة أعداد[3].

المحطة السابعة: الصراع حول مداخلة د. صلاح خالص في الكويت عام 1958

شهدت الكويت في الفترة بين 20 و28 ديسمبر/ كانون الأول عام 1958 انعقاد الدورة الرابعة لاتحاد الادباء العرب، وكان موضوعا المؤتمر: بحث نظري هو "البطولة في الادب العربي" وبحث عملي حول قضايا الكتاب العربي، وشارك في المؤتمر وفود من تسع عشرة دولة عربية.

ولكن المؤتمر تحول إلى ساحة صراع حول قضايا فكرية وسياسية على خلفية الصراع الذي كان محتدماً في البلاد العربية بين الاتجاهين القومي العربي واليساري، في ظل التأجيج الإمبريالي حينذاك للعداء للشيوعية،

الذي انساقت نحوه مع كل أسف تيارات وشخصيات وطنية وأدى إلى انقسام حاد في صفوف حركة التحرر الوطني العربية، وخصوصاً بعد الخلاف بين جمال عبدالناصر وعبدالكريم قاسم.

وتفجّر الصراع في المؤتمر بعد مداخلة عضو الوفد العراقي د. صلاح خالص، التي حملت عنوان "حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الإسلام"[4] وتطرقت إلى حركة القرامطة من بين ما تطرقت إليه، عندما وصفها بالتقدمية.

وكان الوفد العراقي برئاسة الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري، الذي كان رئيساً لاتحاد أدباء العراق بعد ثورة 14 تموز، ويذكر الجواهري في الفصل الثالث من الجزء الثاني من كتابه "مذكراتي" المعنون "ضجة في الكويت" وقائع ذلك المؤتمر وما ثار فيه من صراع، وموجة العداء الحادة للشيوعية والشيوعيين، التي سيطرت على المؤتمر، ويتحدث عن قيام عضو وفد الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت تضم مصر وسوريا ذلك الحين محمد حيدر بالرد على مداخلة د. صلاح خالص، حيث يقول "فأطال وأطال أيضاً وبما لا يقل عن الغلظة، بل التهجم في رده إلى أن نفد صبري ودققت على الطاولة مطالباً إياه بإنهاء كلمته إلا أنه بعناد قد يكون مدبراً أو طبيعياً لست أدري استمر في الحديث. دققت على الطاولة ثانية وقلت له: إما أن تكف وتسكت وإما فإن هذه الجلسة ستخرب... وسننسحب من هذه القاعة... فلم يتعظ الرجل. فنهضت... ونهض الوفد العراقي بأكمله معلنين الانسحاب" ... ثم يشير الجواهري إلى تدخل رئيس الوفد اللبناني رئيف خوري، الذي طلب من حيدر الاعتذار أو الانسحاب كلنا أيضاً، فاضطر الرجل إلى الاعتذار.

ولكن الصراع الفكري والسياسي، الذي أشعلته مداخلة د. صلاح خالص في مؤتمر الأدباء العرب امتد بعد ذلك في جلسات المؤتمر وأروقته وخارجها.

وحول تلك الواقعة جاء في افتتاحية مجلة "الآداب" البيروتية للأديب سهيل أدريس الصادرة بعد المؤتمر "إنّ الصراع السياسي القائم بين بعض الدول العربية قد تجلى في المؤتمر بشكل لم يكن ينتظر أن يفسح له الأدباء المجال. نحن نؤمن بأن الأدب ليس له أن ينفصل عن السياسة في هذه المرحلة من التاريخ العربي، ولكننا لا نحب له أن ينحدر إلى المهاترة والاستفزاز والتبذل".

المحطة الثامنة: أول معجم للألفاظ الكويتية من تأليف شيخ بغدادي

زار الكويت في العام 1960 باحث عراقي هو الشيخ جلال الحنفي البغدادي، وشرع خلال فترة قصيرة من الزمن في الإعداد لتأليف معجم للألفاظ الكويتية، وهذا ما حدث، وقد جاء في مقدمة ذلك المعجم على لسان الشيخ البغدادي أنه "في الفترة الواقعة بين أوائل مايس وأوائل تموز من عام 1960 طفقت أدون في الكويت ما استطعت أن أدوّنه من ألفاظ القوم وخطط البلد وبعض ما يتصل بالأنساب والتقاليد وما إلى ذلك من المباحث الشعبية".

ويذكر الشيخ جلال الحنفي البغدادي "كان علي في تلك الأيام القائظة أن أتجوّل كل يوم على قدمي من أول الصباح حتى الظهر، ثم أعيد تجوالي من بعد العصر حتى الثلث الأول من الليل... وكنت خلال ذلك أسأل مَنْ ألقى من الناس عن أسماء ما تقع عليه عيني من المسميات الكثيرة".

ويعد معجم الألفاظ الكويتية للشيخ جلال الحنفي البغدادي أول معجم لها، وينبّه المؤلف في مقدمه كتابه إلى أنه "لم يسبق لأحد أن وضع معجماً في مثل هذا المعنى، اللهم إلا ما عرض له الأستاذ سيف مرزوق الشملال في كتابه (من تاريخ الكويت) حيث دوّن جمهرة من الأمثال وزمرة ضئيلة من الألفاظ والمفردات"، كما دوّن المؤلف لهجة أهل جزيرة فيلكا، إلا أنّه في المقابل ومن منطلق التواضع العلمي يعترف بنقص معجمه ويبدي في المقدمة أسفه لأنه لم يتمكن من زيارة قرى الكويت وباديتها لتدوين ألفاظها، بحيث يشمل معجمه الألفاظ الكويتية في بيئة البادية، مثلما شمل ألفاظ اللهجة في مدينة الكويت وجزيرة فيلكا.

وقد صدر كتاب "معجم الألفاظ الكويتية – في الخطط واللهجات والبيئة" في العام 1964 وتمت طباعته في مطبعة أسعد ببغداد، وساعدت وزارة التربية والتعليم العراقية على نشره، وتمت طباعة خمسمئة نسخة منه فقط... وبعد كلمة المؤلف في مقدمة الكتاب يورد الكلمات والألفاظ وفق ترتيب الحروف الهجائية، فيما استحدث المؤلف إشارات خاصة لبعض الحروف كما تنطق باللهجة الكويتية، ويقع الكتاب في 424 صفحة، وهو معجم مهم، بل لعله أقرب ما يكون إلى الموسوعة الثقافية التاريخية الاجتماعية الاقتصادية البيئية، ولهذا فهو مصدر رئيسي من مصادر دراسة المجتمع الكويتي.

المحطة التاسعة: تراث موسيقي وغنائي عراقي – كويتي مشترك

هناك نموذجان بارزان في التراث الموسيقي والغنائي يمكن القول إنهما مشتركان بين العراق والكويت على نحو أو آخر، أو بدرجة وأخرى.

النموذج الأول يتمثّل في الفنانين الموسيقيين الشقيقين صالح الكويتي وداود الكويتي المولودان من أسرة عزرا بن يعقوب أرزوني، وهي أسرة يهودية كانت مقيمة في الكويت، حيث ولد صالح في العام 1908 وداود في العام 1910، وتتلمذا في صغرهما على يد الموسيقار الكويتي المعروف خالد البكر، وكان صالح عازفاً على آلة الكمان بينما أخوه داود كان يعزف على آلة العود... وفي العام 1927 رافقا الفنان الشهير عبداللطيف الكويتي، وهو من أسرة العبيد الكويتية، في السفر إلى البصرة لتسجيل أسطوانات، ثم انتقل الأخوان الكويتي إلى بغداد في العام 1929 وهناك توثقت صلتهم بالفنانين الموسيقيين والمطربين العراقيين، ومن أهم مَنْ تعرف الأخوان عليه رائد المقام العراقي محمد القبنچي، الذي ضمّ الأخوين الكويتي إلى فرقته، وبعدها انطلقت في العراق مسيرتهما الفنيّة الثرية، وقد لحّن صالح الكويتي العديد من الأغاني لأشهر مطربي ومطربات العراق، ويكفينا مثالاً أغاني المطربة العراقية الشهيرة سليمة مراد "گلبك صخر جلمود" و"يا نبعة الريحان".

والنموذج الآخر، نموذج عراقي خالص تماماً، وهو المطرب الشهير ناظم الغزالي ذو الصوت الماسي، الذي فقده العراق وفقدته الساحة الغنائية العراقية والعربية مبكراً في العام 1963، ولكن المفارقة أنّ مَنْ حفظ أشرطة مصورة لتراثه الغنائي هو تلفزيون الكويت وليس تلفزيون العراق، مع أنّ تلفزيون الكويت تأسس في العام 1961 وذلك بعد مضي أربع سنوات على تأسيس تلفزيون العراق...

حيث سجّل تلفزيون الكويت أشرطة مصوّرة لأغاني الفنان ناظم الغزالي وحفلاته الغنائية التي أقامها خلال وجوده في الكويت في العام 1963 قبيل فترة وجيزة من وفاته، بالإضافة إلى تسجيله لقاءً تلفزيونياً نادراً معه، وقد أهدى تلفزيون الكويت تلك الأشرطة المصوّرة إلى تلفزيون العراق لاحقاً.

وبعد ذلك وعلى نحو مقارب ولكن لأسباب مختلفة نجد أن الأمر يتكرر مع ناظم الصغير الفنان فؤاد سالم، الذي لم يسجل له تلفزيون العراق سوى أغنية يتيمة له تم منع بثها بسبب مواقفه السياسية، فيما سجّل له تلفزيون الكويت العديد من أغانيه على أشرطة مصورة وذلك قبل انتشار اليوتيوب، وذلك خلال إقامته في الكويت في النصف الأخير من سبعينات القرن العشرين حتى أواسط الثمانينات.

المحطة العاشرة: أدباء مشتركون

عرفت الساحتان الأدبيتان في العراق والكويت حالات تستحق التوقف أمامها من الأدباء المشتركين... ولنأخذ هنا مثالين:

الأول: الروائي والقاص إسماعيل فهد إسماعيل، الكويتي الذي نشأ في العراق في بداية حياته وأمضى به ردحاً من شبابه، حيث انطلقت مسيرته الأدبية من العراق عبر روايته الأولى "كانت السماء زرقاء"، وبالتأكيد فإنّ إسماعيل فهد إسماعيل تأثر أيما تأثر بالبيئة الاجتماعية العراقية وبالمحيط الأدبي والنقدي في العراق، وبعدها عند عودته إلى الكويت في النصف الأول من ستينيات القرن العشرين تعاظمت مسيرته الأدبية ولم تنحصر في القصة القصيرة والرواية، بل امتدت إلى الكتابة المسرحية مثل: "النص" و"للحدث بقية (ابن زيدون)"، بالإضافة إلى الكتابات النقدية وكتابة البحوث والدراسات الأدبية مثل: "القصة العربية في الكويت" (1977)، و"الفعل الدرامي ونقيضه" (1978)، وأصبح إسماعيل فهد إسماعيل بحق قامة أدبية عربية، بما في ذلك انتاجه الأدبي، ذلك أنّ هناك العديد من أعماله تتجاوز البيئتين العراقية والكويتية وتنتقل إلى بيئات عربية أخرى مثل روايته "الشياح" عن الحرب الأهلية اللبنانية، وروايته الأخرى "النيل يجري شمالاً".

وفي الكويت أكمل إسماعيل دراسته الأكاديمية في المعهد العالي للفنون المسرحية، ومن جانب آخر نجده يرعى العديد من الأقلام الأدبية الشابة، ناهيك عن تنظيمه أحد أهم الملتقيات الثقافية النشطة في الكويت، كما شارك "الرفيق" إسماعيل في العمل السياسي من خلال عضويته في "حزب اتحاد الشعب في الكويت" وفي "اللجنة الكويتية للسلم والتضامن" في منتصف سبعينيات القرن العشرين... وعندما تعرضت كوادر الحزب الشيوعي العراقي للملاحقة في العام 1978 تولى إسماعيل فهد مهمة تسهيل إقامة وعمل العديد من الرفاق العراقيين الملاحقين في الكويت أو ترتيب أمور سفرهم إلى الخارج.

والمثال الآخر زهير الدجيلي، وهو عراقي تماماً، ولكن غالب إبداعه الأدبي والفني الغزير انطلق من الكويت منذ أن انتقل إليها إلى وفاته في العام 2016، فقد كان زهير الدجيلي شاعراً غنائياً مبدعاً بما في ذلك الأغنية السياسية، ومؤلفاً للعديد من المسلسلات التلفزيونية والإذاعية، وكان أحد أركان "مؤسسة الخليج للإنتاج البرامجي المشترك" وقد أعدّ الكثير من البرامج الثقافية والتوعوية من بينها البرنامجان الشهيران "افتح يا سمسم" و"سلامتك"، كما كان كاتباً

صحافياً مرموقاً نشرت له الصحف والمجلات الكويتية المئات من المقالات والتحليلات التي دافع فيها عن قضايا الشعب العراقي، ناهيك عن الدور المشهود لزهير الدجيلي في تأسيس "لجنة الصداقة الكويتية-العراقية" في عقد تسعينات القرن العشرين، التي لعبت دوراً مهماً في تصحيح العلاقة بين الشعبين الشقيقين والبلدين الجارين... وغير هذا فقد كان زهير الدجيلي شخصية اجتماعية محترمة في الكويت، وكانت له علاقاته الواسعة مع الأوساط المختلفة في المجتمع الكويتي، مع شيء من التميّز والحميمية في علاقته الرفاقية مع التقدميين الكويتيين.

***

بعد هذه الوقفات القصيرة والسريعة أمام المحطات الثقافية التاريخية العراقية الكويتية العشر، ربما حقَّ لنا أن نتساءل: ترى، هل يمكن في حال إعادة الاعتبار إلى الصلات الثقافية العراقية الكويتية أن يتم إصلاح حال ما أفسدته السياسة والحروب؟... وهل تستطيع الروابط الثقافية، إلى جانب عوامل أخرى، أن تسهم في تجاوز ما حدث بحيث تساعد على بناء علاقات سليمة ووثيقة بين البلدين الجارين والشعبين الشقيقين تقوم على أسس حسن الجوار والتعاون وتبادل المنافع والتضامن في مواجهة التحديات المشتركة؟

أجيب: نعم.

وهذه المحاضرة مساهمة متواضعة في هذا المسعى المستحق.

---

* في الأصل محاضرة قُدمت في معرض العراق الدولي للكتاب، بغداد، 4 - 14 كانون الأول / ديسمبر 2024.

الهوامش

1 - لمزيد من التفاصيل راجع مقالة أحمد الديين عن عبدالله زكريا الأنصاري "الأستاذ... مناضلاً سياسياً" المنشورة في الكتاب الأول الصادر عن مجلة "الكويت" في مايو 2005، وحديث عبدالعزيز سليمان الدوسري في كتاب "رجال في تاريخ الكويت" الجزء الثالث، 2000، للأستاذ يوسف الشهاب، ص 256-255، وكذلك حديث فهد الدويري في الكتاب نفسه، ص 429-423

2 - راجع حديث إبراهيم المقهوي المنشور ضمن كتاب "رجال في تاريخ الكويت" الجزء الرابع، الصادر في 2007، ص 33-28.

3 - للمزيد من التفاصيل عن مجلة "الكويت والعراقي" راجع كتاب "الشيخ عبدالعزيز الرشيد: سيرة حياته، د. يعقوب يوسف الحجي، مركز البحوث والدراسات الكويتية، الكويت، 1993، ص، -314 426.

4 - للاطلاع على نص مداخلة د. صلاح خالص "حول البطولة في الأدب العربي بعد ظهور الإسلام" راجع مجلة "الآداب" العدد الأول يناير/ كانون الثاني 1959، السنة السابعة، ص 17-14.

تحديات الاندماج للجيل الثالث
من أبناء المهاجرين العراقيين في البلدان الغربية

د. عبدالحسين صالح الطائي
أكاديمي عراقي مقيم في بريطانيا
متخصص في علم الاجتماع

شهد العالم تغيرات جوهرية كبيرة في دوافع الهجرة وأنماطها (يعزو الكثير من الباحثين أسباب هجرة العقول المفكرة من الدول النامية إلى الدول الصناعية لعوامل متعددة تتباين بتغير البلدان واختلاف أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية)[1].
وأكثر أنواع الهجرة انتشاراً هي الهجرة القسرية بسبب النزاعات والحروب الأهلية والاضطهاد السياسي وغيرها، أو بسبب الأزمات الاقتصادية أو المتغيرات المناخية، إلى جانب الرغبة في البحث عن فرص عمل أو تعليم. كان المهاجرون على الأغلب يأتون من دول قريبة ثقافياً أو جغرافياً إلى المجتمعات التي يهاجرون إليها، ولكن بمرور الزمن، أصبحت أنماط الهجرة أكثر تنوعاً، نتج عنها متغيرات كثيرة وتصاعد في أعداد المهاجرين من خلفيات عرقية ودينية مختلفة بشكل جذري عن تلك الموجودة في المجتمعات المستقبِلة.
وبنفس الوقت هناك إجراءات تتعلق بسياسات الهجرة الدولية في العديد من البلدان الغربية، أصبحت أكثر تقيداً وصرامة على مدى العقود الماضية، نتيجة لأسباب متعددة، أهمها تصاعد نفوذ اليمين المتطرف إلى الحكم، وزيادة التوترات السياسية المتعلقة بالهجرة أدت إلى تشديد القوانين المتعلقة باللاجئين والمهاجرين وفرض قيود شديدة على دخولهم. هذه الإجراءات عرقلت جهود الاستيعاب والاندماج في تلك البلدان. وقد أعاقت قوانين ولوائح جديدة بالضد من حقوق المهاجرين في العمل أو الحصول على الإقامة الدائمة أعاقت اندماجهم في المجتمعات الغربية وجعلتهم يعيشون في حالة من عدم اليقين. هذه السياسات زادت من شعورهم بالعزلة وأضعفت من قدرتهم على المشاركة الفاعلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

فالهجرة بأنماطها المتعددة والمتغيرة جلبت عقبات متزايدة أمام اندماج أجيال المهجر في المجتمعات التي يتعايشون فيها، وأصبحوا في مواجهة تحديات عديدة تتعلق بعدة عوامل مرتبطة بالتحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في كل من المجتمعات المرسِلة والمستقبِلة للمهاجرين. يواجه المهاجرون اليوم تحديات أكبر في كيفية التكيف مع المجتمعات الجديدة بسبب تداخل الكثير من العوامل، منها: التنوع الثقافي المتزايد، السياسات التقييدية، التفاوتات الاقتصادية، التمييز العنصري وغيرها من المعوقات التي زادت من صعوبة الاندماج بكل أشكاله. وعلى الرغم من هذه العقبات، فإن الأجيال الجديدة من المهاجرين تحاول التفاوض على هُويات جديدة تدمج بين الثقافات الأصلية وثقافة المجتمعات المستقبِلة، مستفيدةً من العولمة والتكنولوجيا وكل التقنيات العصرية لتعزيز هُوية عابرة للحدود.

وبخصوص الهجرة العراقية تعددت دوافعها إلى الخارج، فقد بدأ تصاعد تيار الهجرة الخارجية (بعد انقلاب 1968 نتيجة سياسات القمع السياسي والفكري والتبعيث القسري والتمييز القومي والديني والمذهبي والمناطقي التي انتهجها نظام البعث مما دفع أعداداً من المواطنين للهجرة وبالأخص من الكوادر المتخصصة وأصحاب الكفاءات[2]. وبهذا تُعد الهجرة القسرية من أبرز أنواع الهجرة التي تصاعدت في العقود الأخيرة مع تزايد الأزمات السياسية والنزاعات الداخلية في الكثير من مناطق العراق. فقد أشارت كل المؤشرات إلى ازدياد عدد طالبي اللجوء من الذين يفرون من العراق بحثاً عن الأمان والحياة الكريمة (الجالية العراقية في المهجر تجمعها سمات ومشتركات كثيرة، ولكن وجودها ودورها يتباين من مهجر لآخر وفقاً لطبيعة النظام السياسي والقوانين في ذلك البلد، ومواقف الأحزاب السياسية فيه، وطبيعة المجتمع ومدى تقبله للأجانب والآخر المختلف)[3]. هؤلاء المهاجرون غالباً ما يصلون إلى بلدان المهجر المستقبِلة بدون خطط طويلة الأجل للتكيف والاستقرار، ولهذا الكثير منهم يعانون من صدمات نفسية ناتجة عن الأوضاع الصعبة التي أجبرتهم إلى الهجرة إلى العوالم المجهولة.

يسعى المهاجرون العراقيون للاندماج في سوق العمل والتكيف بسرعة مع المجتمعات الجديدة، أصبحت لديهم القدرة في مواجهة تحديات أكبر في الحصول على فرص التعليم والعمل والخدمات الصحية، أثرت على تأخر اندماجهم في المجتمعات الجديدة بدرجات متفاوتة. هذه الأنماط المتغيرة خلقت تحديات متزايدة للكثير من أبناء المهاجرين، لا سيما الأجيال المولودة في بلدان المهجر ذات التنوع الكبير في الخلفيات الثقافية والعرقية والدينية. وكذلك يواجه المجتمع المستقبِل إشكاليات متعددة في كيفية استيعاب هذا التنوع والتفاعل مع عملية الاندماج المجتمعي والتكيف الثقافي، ما أدى إلى ظهور إشكاليات ثقافية واجتماعية. حيث يواجه أبناء المهاجرين من الجيل الثاني والثالث ثقافات وقيم تختلف تماماً عن تلك التي نشأ عليها آباؤهم، التي تتطلب منهم التكيف معها باعتبارهم أبناء مجتمعاتهم. نعني بالجيل الثاني أولاد المهاجرين، والجيل الثالث الأحفاد الذين ولدوا في مجتمعات المهاجر الغربية لأبناء المهاجرين من الجيل الأول والثاني (يشار إلى المهاجرين الأوائل

عادة بأنهم يمثلون الجيل الأول من الهجرة، وهم الذين ولدوا وتشربوا بثقافتهم الأم في بلدانهم الاصلية ثم هاجروا. أما ابناء الجيل الأول هؤلاء، المولودون أو من نشأوا صغاراً وتربوا في بلدان المهجر، فيطلق عليهم بالجيل الثاني، وعلى أبناء الجيل الثاني بالجيل الثالث من الهجرة وهكذا)[4].

يواجه الجيل الثالث من المهاجرين العراقيين في المهاجر الغربية، مجموعة كبيرة من التحديات التي تتداخل فيها عوامل متعددة تختلف عن تحديات الأجيال السابقة، فهم أكثر اندماجاً في المجتمعات الجديدة، ولكنهم يواجهون صراعات ذات طابع خاص بهم نتيجة خلفياتهم الثقافية المتنوعة. تزايد الاهتمام في العقود الأخيرة بدراسة واقع هذه التحديات التي تواجه أبناء المهاجرين من الجيل الثالث في المجتمعات الغربية بشكل عام من خلال تجاربهم الاجتماعية والثقافية، سواء من حيث الهُوِيّة والاندماج أو الصراع بين الثقافات.

على الرغم من أن الجيل الثالث يبدو أكثر قدرة على الاندماج في المجتمع الغربي، إلا أن التحديات ما زالت موجودة بأشكال مختلفة. تجربة الجيل الثالث من المهاجرين في المجتمعات الغربية تتراوح بين التكيف السريع مع الحياة الغربية وبين الحفاظ على التراث الثقافي للعائلة، إنهم يواجهون تحديات أقل في الاندماج مقارنة بالأجيال السابقة، ولكن لا تزال هناك عقبات في التكيف الكامل والقبول الاجتماعي. وبفضل التعليم الجيد، والطلاقة في اللغة، والتفاعل اليومي مع المجتمع، أصبح هذا الجيل أكثر قدرة على الاندماج في الحياة اليومية مقارنة بالجيل الأول أو الثاني، بسبب اكتسابهم المهارات الاجتماعية والثقافية التي تجعلهم جزءاً من النسيج الاجتماعي. وعلى الرغم من أنهم قد ولدوا وترعرعوا في بلدان المهاجر، إلا أن هناك أحياناً صعوبات في الاندماج الكلي في المجتمع المحلي، هذه الصعوبات تعود لأسباب متعددة، قد تكون نتيجة للتمييز العنصري أو الثقافي، أو الفروقات الاجتماعية بين ثقافات الأسرة والمجتمع الغربي.

وبإجراء بحث حول طبيعة التحولات عبر الأجيال، وبمقارنة مبسطة بين الجيل الأول والثاني والثالث ندرك بأن تجربة الجيل الثالث تختلف عن أسلافهم. هناك صراع حقيقي بين رغبة الجيل الثاني والثالث في التكيف مع الثقافة الغربية وبين أهمية المحافظة على العادات العائلية والأعراف التقليدية، التي قد تسبب توترات داخل الأسرة الواحدة، حيث يجد البعض أنفسهم في مواقف محرجة تتطلب منهم إرضاء كلا الجانبين: الأسرة التي تود الحفاظ على الموروث التراثي، والمجتمع الذي يتطلب التكيف والاندماج.

تحديات الاندماج

1 - الجيل الأول

الجيل الأول من المهاجرين العراقيين في الغالب يحاول المحافظة على التراث الثقافي واللغوي والديني الذي تربى عليه وجلبه من البلد الأصلي، وتنصب جهوده في الحرص والحفاظ على الروابط العائلية القوية، لأن هذا الجيل مرتبط بجذوره بشكل عميق. ويعتبر الحفاظ على التقاليد والتراث جزءاً من مهمته الأساسية، ويسعى إلى نقل قيمه وتقاليده لأبنائه من الجيل الثاني وأحفاده من الجيل الثالث معتقداً بأن الحفاظ على الهُوِيّة الثقافية هو الأساس لحماية الأسرة من

التأثيرات الخارجية. ولكن مع تقدم الأجيال، نجد هناك متغيرات كثيرة لا سيما في دور السلطة داخل العائلة. الجيل الأول بطبيعته يميل إلى فرض السلطة التقليدية القائمة على القيم الأصلية، ولكن مع الجيل الثاني والثالث، تبدأ هذه السلطة في التآكل بسبب تأثيرات الثقافة الغربية التي تشجع على الفردانية والاستقلالية.

وكثيراً ما تواجه الجيل الأول صعوبات متعددة ليس فقط في تعلم لغة البلد الجديد أو التكيف مع القيم الغربية، بل في كيفية التفاعل مع المجتمع الجديد. هذه المعوقات تخلق لدى المهاجر الكثير من الحواجز في مسار التواصل مع المجتمع المستقبِل وحتى مع أبنائهم أو أحفادهم الذين يولدون ويكبرون في هذه المجتمعات. ومن بين العقبات الكبرى أمام الاندماج هي التفاوتات الاقتصادية، في بعض البلدان، حيث يعاني المهاجرون من معدلات بطالة مرتفعة مقارنة بالسكان الأصليين، أو يجدون أنفسهم عالقين في وظائف منخفضة الأجر وبلا فرص للتقدم المهني. هذه الحالة تضع أمامهم المزيد من العقبات أمام تحقيق الاستقرار الاقتصادي الضروري للاندماج الاجتماعي. فالفقر والحرمان والأوضاع الاقتصادية السيئة للمهاجرين قد تؤدي بهم إلى العزل الاجتماعي والسكن في أحياء مكتظة بالمهاجرين، وبالتالي يقل التفاعل مع السكان المحليين، مما يؤدي إلى ضعف عملية الاندماج الاجتماعي وتفاقم المشاكل.

2 - الجيل الثاني

تختلف درجة الترابط الأسري بين الأجيال، فالقيم والأعراف العائلية تتفاوت وتتغير مع كل جيل، قد يكون الجيل الثاني أكثر تقبلاً للتغيرات الثقافية من الجيل الأول، لكنه يبقى متأثراً بواقع العادات والتقاليد الأصلية. أما الجيل الثالث، فقد يتبنى القيم الغربية بشكل أكبر، مثل حقوق الفرد والاستقلالية، مما يؤدي إلى توترات بين الأجيال. وحالة من الصراع بين الجذور والتكيف مع المجتمع الجديد.

وأغلبية أبناء الجيل الثاني متأرجحة بين ثقافتين، لأنهم نشأوا في مجتمع غربي مختلف تماماً عن البيئة الثقافية التي جاء منها الأهل. هذا الجيل على الأغلب يعاني من ضغوط العائلة للحفاظ على التراث، وبنفس الوقت يجد نفسه أمام ضغوط مجتمعية تجذبه للاندماج الكلي في الثقافة الجديدة. وبهذه الحالة فالأغلبية تعيش حالة من الصراع الداخلي جوهره محاولة إرضاء المتطلبات العائلية المتعلقة بالهُوِيّة الثقافية وبين التكيف مع القيم الغربية. وقد يشعر أبناء الجيل الثاني بالانفصال عن المجتمع الأصلي بسبب التباين بين ما يتوقعه المجتمع الأصلي وما يتطلبه المجتمع المستقبِل. والكثير منهم يلجأ إلى التفاوض على هُوِيته الخاصة، فيحاول دمج بعض العناصر الثقافية من كلا المجتمعين. فعلى سبيل المثال يحاول الاحتفاظ بعناصر يعتقدها أساسية كالدين واللغة الأصلية، ويسعى إلى محاولة التكيف بطريقة تلائم نمط الحياة في المجتمع الغربي الذي يعيش فيه.

3 - الجيل الثالث

أما الجيل الثالث لديه إشكالية مع الهُوِيّة، لأنه أكثر اندماجاً في الثقافة الغربية، إذ ينشأ في بيئة غربية تماماً ويتلقى تعليماً وثقافة تؤثر بشكل كبير على هُوِيته، والمدارس والمؤسسات الاجتماعية تساعده على اكتساب الثقافة السائدة في المجتمعات التي يعيش فيها. ولكن يبقى تأثير العائلة والجذور الثقافية عالقة في

الأذهان. وعلى الرغم من اندماجهم الأكبر في المجتمع المستقبِل إلا أنهم يحتفظون بهوية ثقافية هجينة، ويواجهون تحديات في التفاعل مع الجيل الأول (الأجداد) بسبب الفجوة الثقافية واللغوية الكبيرة. وفي نفس الوقت، لديهم مشاعر بضرورة مراعاة بعض جوانب التراث الثقافي مثل الأعياد والعادات الغذائية وبعض الالتزامات العائلية التقليدية.

وقد أسهمت التقنيات الحديثة في منح أبناء الجيل الثالث القدرة على الوصول إلى مصادر معلوماتية وثقافية في متابعة الأحداث السياسية والثقافية التي تتعلق بالبلد الأصلي، وسهل على الكثير منهم مسألة التواصل مع بعض الأهل والأقارب في البلد الأم، وبالتالي توافر فرصة لتعزيز الهُوِيّة العابرة للحدود والاعتزاز بالانتماء إلى الجذور. لأن ذلك نابع من ميلهم إلى الاحتفاظ بعلاقة ثقافية رمزية مع الجذور الأصلية، خاصة في الأعياد والمناسبات العائلية، حيث تبقى الثقافة الأصلية كمرجع أساسي لهم، بل تشكل بوصلة التوازن في مسار حياتهم. ويشعرون بالفخر بأصولهم ولكنهم قد لا يعيشون تجربة تلك الثقافة بنفس العمق الذي يعيشه الجيل الأول. فهم لديهم القدرة على التكيف مع الثقافة المستقبِلة والمتمثلة هنا بالقيم الغربية بشكل أفضل مع القيم الغربية مقارنة بالجيلين السابقين، ويعتبرون أنفسهم جزءاً من المجتمع الذي يعيشون فيه، بقدر اعتزازهم بموروثهم الأصلي الذي اكتسبوه من آبائهم.

ومن خصائص الجيل الثالث تأثره بشكل كبير بالعولمة[5]. فما ينتج من العولمة وآفاقها من أمور أتاحت للجيل الثالث الوصول إلى عناصر ثقافية متنوعة من كلا الثقافتين، ثقافة الآباء والثقافة الغربية، مما ساعدهم على بناء هُوِية متفردة متعددة الطبقات تجمع بين التأثيرات المحلية والعالمية التي يتعايشون معها بشكل واقعي من خلال القنوات الثقافية لا سيما التعليم الذي يلعب دوراً كبيراً في تشكيل الهُوِيّة. والشيء المتعارف عليه في دول المهجر بأن المدارس والمؤسسات التعليمية لها تأثيرها الهام في الإسهام في عملية الاندماج مع المجتمع المستقبِل، وبالتالي المساهمة في تعزيز الهُوِيّة الوطنية أو المحلية، وتوفير الكثير من الفرص لهم لاكتساب مهارات تتعلق بالتنوع الثقافي والتكيف مع عالمهم المُعولم بكل آفاقه الإيجابية.

وفي ظل هذا العالم المعولم المنفتح اقتصادياً، قد يستفيد الكثير من أبناء المهاجرين من ميزة امتلاكهم خلفيات ثقافية متعددة ومتنوعة تساعدهم في حرية حركة التنقل بين هُوِياتهم المختلفة واستخدامها لصالحهم في بيئات عمل متعددة الثقافات حيث تتوفر فرص العمل بمختلف المجالات الحياتية. وبحكم كون الجيل الثالث جيلاً ناشئاً قادراً على العمل في كل المجالات الاقتصادية (استطاع أن يتخطى بعض العوائق بسرعة، مثل تعلم اللغة والاختلاط والتأقلم، من خلال المدرسة، مع أقرانه من البريطانيين أو الأجانب... هذا الجيل إفكاره وتصرفاته ورؤيته للمستقبل أخذت تبدو أحياناً غير منسجمة مع أفكار الآباء. إن ما يمكن تسميته بالصراع بين الأجيال بدأت تتجلى ملامحه. والأمر مرتبط برؤية العائلة ونظرتها إلى المجتمع الجديد[6].

تحديات الهوية

يجد أبناء الجِيل الثالث أنفسهم في مواقف صعبة، لأنهم ينتمون إلى ثقافتين أو أكثر،

وتقع عليهم مهمة التوفيق بين هُوِيتهم الأصلية وهُوِيتهم في المجتمعات الجديدة[7]. ولهذا نلاحظ توجه هذا الجيل إلى تطوير هُوية هجينة تعكس التوازن بين تراث عائلته الأصلية والقيم الثقافية الغربية التي نشأ فيها. وقد يشعر البعض منهم بالانتماء الكلي لكلا الثقافتين أو يجدون أنفسهم مشتتين بين الاثنين. وحقيقة الأمر أن الكثير من أبناء الجيل الثالث يشعر بالراحة في المجتمعات الغربية التي ولدوا وترعرعوا فيها، وقد يشعر البعض منهم في الوقت نفسه بالاغتراب الثقافي عن الجذور الأصلية، لا سيما إذا كانت العائلة تحاول الحفاظ على العادات والتقاليد القديمة. أي يشعر البعض بالانتماء أكثر إلى البلد الذي يعيش فيه، بينما يعتبر البعض الآخر أنفسهم مختلفين أو مرتبطين بجذورهم بشكل أكبر، وقد يؤدي هذا إلى نوع من الانفصال أو سوء الفهم بين الأجيال.

الكثير من شباب الجيل الثالث يبحثون عن هُوِيتهم الذاتية الشخصية خارج إطار الأسرة والمجتمع، ويستخدمون التعليم والسفر والإنترنت لفهم أعمق لهويتهم المتعددة، ولكنهم في مواجهة حقيقة لكثير من التساؤلات، على سبيل المثال: "من أنا؟" أو "إلى أي مجتمع أنتمي؟"، فعلى الرغم من أن الجيل الثالث يبدو أكثر قدرة على الاندماج في المجتمعات الغربية، إلا أن التحديات شاخصة أمامه، أبرزها التمييز والعنصرية، لا سيما مع موجة صعود أحزاب اليمين المتطرف إلى السلطة والتحكم بإدارة المؤسسات الهامة والهيمنة عليها بما تخدم مصالحهم. هناك دون شك (تمايزات عميقة وحقيقية، لدرجة تحولها إلى تمييز على أساس من العرق أو المرجعية الإثنية، واللذان هما مرتبطان بجهة التمييز على أساس من الدين)[8]. ورغم تحسن ظروف الاندماج لدى الكثير منهم، ولكن يظل التمييز والعنصرية أحد العقبات والتحديات أمامهم، لأن كثيراً ما يجري التعامل معهم على اساس المظهر والأصول العرقية، مما يولد لديهم الشعور بعدم مقبوليتهم اجتماعياً بشكل كلي.

وهذا التمييز يمكن أن يظهر في صور متعددة، يمكن أن تبرز في سوق العمل أو في المدارس وفي المؤسسات الرسمية، مما يؤدي إلى عرقلة جهود الاندماج وإعاقة عملية التفاعل الايجابي في المجتمع. وعادة ما نلمس انعكاسات هذا التمييز من خلال الصورة النمطية السلبية التي تتبناها شريحة اجتماعية بالضد من المهاجرين والموقف من موضوع الهجرة بشكل عام المرتبط بالقضايا السلبية مثل البطالة أو الجريمة أو الأزمات الاقتصادية، وبالتالي استثمار هذه الأمور في بلورة تصورات سلبية عن المهاجرين في مجالي الإعلام والسياسة. هذه التصورات تزيد من صعوبة قبول الكثير منهم في المجتمع، بل تضع حدوداً أمام اندماجهم.

ومن التحديات الأخرى مسألة الحفاظ على الموروث الثقافي، عادةً ما ينشأ وينمو أبناء الجيل الثالث في بيئة متأثرة بثقافات متعددة: ثقافة الوطن الأصلي للعائلة والثقافة الغربية التي نشأ وترعرع فيها. فهم يواجهون صراعات معقدة في كيفية تعريف هُوِيتهم؛ هل يعتبرون أنفسهم جزءاً من المجتمع الذي يعيشون فيه أم التمسك بالجذور الثقافية لبلد الآباء والأجداد؟، هذا الصراع قد يتجسد بوضوح في الحياة اليومية، من خلال اللغة، والتقاليد، والدين. تُعد اللغة أحد أعمدة الموروث الثقافي، فهي تلعب دوراً كبيراً

ومهماً في الحفاظ على التراث الثقافي، ورغم أن الجيل الثالث عادة يتحدث لغة البلد الذي يعيش فيه بطلاقة بالإضافة إلى البعض منهم يُجيد لغة الآباء الأصلية [9]. ولكن بمرور الزمن الكثير منهم يفقد القدرة على التحدث بلغة أجداده أو استخدامها بشكل محدود أو تتلاشى لأسباب متعددة، وهذا الأمر قد يؤثر بشكل فعلي على طبيعة علاقتهم مع أفراد الأسرة الأكبر سناً الذين ما زالوا يتمسكون بلغة الأم، بسبب صعوبة التفاهم والتواصل معهم بأبسط الأمور.

ويحتل الدين المكانة الأهم بالنسبة إلى الحفاظ على الموروث الثقافي، حيث يعتبر جزءاً حيوياً من الهُوِيّة الثقافية للمهاجرين. علماً بأن الجيل الثالث قد يكون أقل تمسكاً بالدين مقارنة بالأجيال السابقة، لكنه يظل مرتبطاً بالعادات والتقاليد الثقافية المرتبطة بالدين بحالات متباينة من شخص لآخر[10]. ولهذا فأن الكثير من أبناء الجيل الثالث يجد طرقاً للتوفيق والموازنة بين هذه القيم وقيم المجتمع الذي يعيشون فيه. نراهم يحتفلون بالأعياد والمناسبات المتنوعة في البلد المضيف، وبنفس الوقت يجري الاحتفال بالمناسبات الدينية أو الوطنية التي تخص أصولهم. هذا التوازن يعكس محاولتهم للحفاظ على هُوِيتهم الثقافية مع المشاركة في حياة المجتمع المضيف، لأن الكثير من أبناء الجيل الثالث يرى نفسه مواطناً عالمياً بسبب انتشار مفهوم العولمة، وتأثره بالثقافات العالمية من خلال التقنيات المتطورة من الإنترنت والإعلام وغيرها، بحيث يشعر البعض منهم بالانتماء لثقافة متعددة الأوجه وغير مقيدة بجغرافيا أو حدود قومية، تشكل أحد تحديات الهُوِيّة.

ويهتم الكثير من أبناء الجيل الثالث بوسائل التواصل الاجتماعي بشكل كبير للتعبير عن آرائهم السياسية وتنظيم الفعاليات التي تدعم القضايا التي يهتمون بها. ويلعبون دوراً مهماً في بناء جسور بين مختلف الثقافات، ويشكلون جزءاً حيوياً من المجتمع المعاصر المتنوع. ويمكن إدراك الحقيقة الموضوعية بأن وعيهم السياسي، رغم صغر سنهم، يميل إلى المشاركة بشكل أكبر في مختلف جوانب الحياة السياسية والمدنية في دول المهجر، حيث يشعرون بالانتماء لهذه المجتمعات ويتمتعون بفهم أعمق للأنظمة السياسية والاجتماعية في تلك البلدان، مما يجعلهم أكثر قدرة على التأثير والمشاركة، وفي بعض الحالات، يستفيد أبناء الجيل الثالث من السياسات المتنوعة والمتسامحة في المجتمعات الغربية ويستغلون هذه الفرص للدفاع عن حقوق الأقليات والاندماج الثقافي. ويلاحظ بشكل جيد التحدي الأوضح من خلال مشاركة أبناء الجيل الثالث بالفعاليات الاجتماعية والسياسية التي تعكس درجة وعيهم الكبير بالحقوق المدنية والسياسية مقارنة بالأجيال السابقة. وبفضل التعليم والتفاعل المستمر مع المؤسسات الاجتماعية والسياسية، أصبح هذا الجيل أكثر استعداداً للمشاركة في النقاشات السياسية الجادة، ويتفاعلون مع القضايا السياسية المحلية بنفس اهتمام المواطنين الأصليين، وأهمية الاندماج في الحياة المدنية والمساواة العرقية، وتوعية المجتمع المحلي بآفاق التنوع الثقافي، والآراء المتباينة حول الرؤية المجتمعية لقضايا الهجرة ودوافعها. فعلى سبيل المثال مشاركات حفيدتي "ريم" مواليد 2006، في تجمعات سياسية شبابية، محلية ومساهماتها المتكررة في الفعاليات والمظاهرات الداعمة

للقضية الفلسطينية. هؤلاء الشباب، بفضل قدراتهم التنظيمية ووعيهم السياسي، يلعبون دوراً ضاغطاً مؤثراً في حشد الأفراد وتشجيعهم بالمشاركة بالمظاهرات التي تجوب شوارع لندن، لا سيما مع تزايد الوعي الدولي بالقضية الفلسطينية.

ولا ننسى تحديات الآفات الاجتماعية المنتشرة في المجتمعات الغربية من المخدرات والجريمة والسرقة وغيرها، التي لها تأثير بقدر معين على نهج وسلوك الأبناء من الجيل الثالث. وليس الخطر من الإدمان على المخدرات فقط، هناك أمراض العصر، كالإفراط في استخدام التقنيات الحديثة الذي يقلل من عملية التواصل مع الآخرين وفيه مخاطر أخلاقية إذ؛ (يوجد خطر كبير على أبناء المغتربين في مجال الإنترنت وهذا لا يقل خطره في بلاد المسلمين إلا أنه أكثر إباحية في عدم رفض المجتمع له مما يوجب على الآباء متابعة هذا العمل بتحذير الأولاد من مخاطر الإنترنت وسلبياته)[11]، بل يسبب إشكاليات عديدة في مجال الصحة العامة والنفسية والقلق والتوحد والاكتئاب وغيرها. وفي ظل الانغماس في هذه المعوقات والإشكاليات والضياع في بعض المحطات، تبرز معاناة الكثير من ضعف القراءة ومواصلة فنون المعرفة، وبالتالي الخلل في إمكانية التفكير النقدي والتحليل الموضوعي للكثير من القضايا المعاصرة.

وأخيراً، يمكن القول بأن أبناء الجيل الثالث من المهاجرين الذين حصلوا على تعليم عالٍ متميز يمتلكون قدرات وإمكانات فريدة يمكن أن تسهم بشكل كبير في بناء الوطن الأم، إذا منحت لهم الفرص المناسبة. لأن لديهم الوعي المتميز في إقامة جسور من التواصل والتعاون مع الوطن بما يحملونه من وعي بحقوق الإنسان والعمل المجتمعي الذي يسهم في دعم أو إنشاء بعض منظمات المجتمع المدني التي تعمل في المجالات الاجتماعية، لمكافحة الفقر، وتنمية المجتمع، وحماية البيئة، وتقديم الرعاية الصحية، وإصلاح النظام التعليمي، وتطوير البنية التحتية أو تقديم برامج تدريبية، وتنظيم ورش عمل في المجالات كافة. هذه المبادرات يمكن أن تلعب دوراً مهماً ناجحاً في رفع مستوى حياة الناس في الوطن. فهم يمثلون ثروة بشرية قادرة على إحداث التغيير الحقيقي في توجهات العراق التنموية إذا توفرت البيئة المشجعة الجاذبة، وتم تسهيل الإجراءات التي تمكّنهم من نقل مهاراتهم وخبراتهم في مجالات الاستثمار في الوطن.

الهوامش

1 - نادر أحمد عبدالغفور: العقول العراقية المهاجرة بين الاستنزاف والاستثمار، لندن مؤسسة الرافد، 2003، ص 32.
2 - هاشم نعمة فياض: العراق: دراسات في الهجرة السكانية الخارجية، بغداد، دار الرواد للطباعة والنشر، 2006، ص 7.
3 - عبدالحسين صالح الطائي: المهاجرون في مجتمع متعدد الثقافات، دراسة ميدانية حول الجالية العراقية، لندن، دار الحكمة، 2013، ص 9.
4 - حميد الهاشمي: العراقيون في هولندا، نحو صياغة اطار نظري لدراسة الاندماج الاجتماعي للمهاجرين، بغداد، مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، 2012، ص 75، 76.
5 - مصطلح العولمة ما زال تعبيراً غائماً يكتنفه كثير من الغموض إن لم نقل التناقض، إنه يعني فيما يعنيه ظاهرة تتداخل فيها أمور الاقتصاد والسياسة والثقافة والاجتماع والسلوك، إنها نسق ذو أبعاد عامة تشمل المال والتسوق والمبادلات السياسية والفكر والأيديولوجيا، ترمي إلى إزالة الحواجز والحدود أمام حركة الإنسان أفرزتها الثورة المعلوماتية وما رافقها من تطور في مجالي الاتصال والإعلام. انظر: نصر الدين بن غنيسة: عن أزمة الهُوية ورهانات الحداثة في عصر العولمة، منشورات ضفاف، بيروت، 2012، ص 20.
6 - عبدالإله توفيق: عوامل التكامل في تجربة الجالية العراقية، بحث من أعمال المؤتمر الثالث الذي نظمه النادي العربي في بريطانيا، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2002، ص 61.
7 - الهُوِيّة هي مجمل السمات التي تميّز شيئاً عن غيره أو شخصاً عن غيره أو مجموعة عن غيرها. كل منها يحمل عدة عناصر في هُوِيته. عناصر الهُوِيّة هي شيء متحرك ديناميكي يمكن أن يبرز أحدهما أو بعضها في مرحلة معينة وبعضها الآخر في مرحلة أخرى. انظر: عبير بسيوني رضوان: أزمة الهُوية والثورة على الدولة، بيروت، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، بيروت 2012، ص 85.
8 - يحيى اليحياوي: الإسلام الأوروبي: صراع الهُوية والاندماج، دبي، مركز المسبار للدراسات والبحوث، ط2، 2011، ص 115.
9 - ازدواجية اللغة هي بالضرورة دلالة على المهارة والحذق والطلاقة اللغوية التي لدى الفرد. وانطلاقاً من إيماننا، نحن المتعلمين الذين يجيدون اللغتين، بضرورة توفير فرص المعرفة والرقي والمساهمة في الحياة العامة. للتفصيل انظر: نهى جريج: اللغة والهوية الثقافية: فرص تعليم اللغة العربية، بحث من أعمال المؤتمر الثالث الذي نظمه النادي العربي في بريطانيا، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2002، ص 29.
10 - يعتبر الاختلاف الديني والطائفي عاملاً معيقاً للاندماج الاجتماعي بين المجموعات البشرية. انظر: حميد الهاشمي: العراقيون في هولندا، ص 183.
11 - جميل عبدالهادي: المولودون المسلمون في بلاد الاغتراب بين الاندماج والمحافظة على الهُوية، بيروت، دار المعرفة، 2012، ص 253.

مجلة (ليلى)... حلم منقطع وذاكرة ناطقة

أحمد الناجي

مثّلت خطوة إصدار مجلة (ليلى) حالة متميزة في تاريخ المرأة العراقية، لأنها أول مجلة نسائية تصدر في العراق، وقد ظهرت الى النور بتاريخ 15 تشرين الأول 1923، صاحبة المجلة ورئيسة تحريرها السيدة بولينا حسون (1895-1969)، وهي موصلية عراقية الأصل من جهة الأب، ومن جهة الأم من فلسطين أو من الشام. عاشت في مقتبل حياتها في مصر وفلسطين قبل عودتها الى بلدها العراق مع أسرتها سنة 1923. وعملت في بداية قدومها الى بغداد نحو سنتين بدائرة التفتيش بوزارة المعارف. ومن ثم جرى تعيينها مطلع سنة 1925، مديرة مدرسة باب الشيخ الابتدائية. أشارت أكثر من مرة إلى ابن عمها سليم حسون (1871-1947) المدير المسؤول في جريدة (العالم العربي) البغدادية، وهو صحفي عراقي بارز، كما نوهت أيضاً بأن خالها هو العلامة الشاعر الشيخ إبراهيم الحوراني (1844-1916) ، الذي كان يعمل معلماً في الجامعة الأمريكية ببيروت.

ذكرت بولينا حسون في مستهل العدد الأول، قائلة: "على أثر قدومي إلى بغداد، دعيت إلى إلقاء خطبة في الحفلة التي أقامها منتدى التهذيب بتاريخ 10 حزيران 1923، لتكريم الشاعر الكبير الأستاذ الزهاوي"، وهذا التصريح يوضح بشكل تقريبي تاريخ عودتها إلى بغداد، وقيامها بإصدار المجلة بعد ذلك بأشهر قليلة. أما سبب اختيار اسم (ليلى) للمجلة، فقد كتبت في العدد نفسه، ما يشير إلى: أنها سمعت الشاعر جميل صدقي الزهاوي يلقي قصيدة معنونه (في منتدى التهذيب)، وفيها بيت شعري يقول فيه:

إني بـ (ليلى) مغرم وهي (موطني)
وعليّ أقضي في غرامي بها نحبي

وظلت مواصلة حديثها حول المشاعر التي غمرتها أناء تلك اللحظة، قائلة: هبطت الكلمتان (ليلى والوطن) على قلبي هبوط الوحي، فاندفعت إلى تحلية المجلة باسم (ليلى)، وقد كان في فكري أن اسميها (فتاة العراق). وسنحاول في هذا المشوار البحثي الإحاطة على نحو موجز بعرض تفاصيل حول بعض المواد المنشورة في أعداد المجلة البالغة (20) عدداً التي صدرت خلال السنتين على مدى عمرها، لغرض تكوين فكرة وافية حول طبيعة خطاب المجلة،

كُتابها، أهدافها، والتحديات التي واجهت هذه الخطوة الرائدة.

و(ليلى) مجلة تبحث في العلم والأدب والاجتماع نسائية شهرية، صدرت بـ(48) صفحة من القطع المتوسط، وقد لاقت رواجاً بين المثقفين، مثلما وجدت لها طريقاً نحو الأوساط النسوية. والمجلة ذات طابع تربوي وعظي يحرض المرأة على المطالبة بحقوقها ونيل تعليمها، وعرفت المجلة عن نفسها بحسب ما جاء على غلاف عددها الأول السنة الأولى الصادر في 15 تشرين الأول 1923، بأنها صدرت: "في سبيل نهضة المرأة العراقية.. مجلة نسائية تبحث في كل مفيد وجديد فيما يتعلق بالعلم والفن والأدب والاجتماع وتدبير المنزل".

ووقفت صاحبة المجلة بشجاعة أمام ظروف بالغة الصعوبة منذ بداية انطلاق هذا المشروع النهضوي، وواجهت التحديات بمعنويات عالية، طامحة الى استدامة تشكل هذا الحلم كحقيقة ملموسة على أرض الواقع، وكانت على معرفة تامة بأهمية وجود مجلة تهتم بشؤون المرأة، وتدرك ضرورة صدورها في تلك المرحلة من تاريخ العراق المعاصر، فكتبت في ذلك العدد، قائلة: "يفتكر بعضهم أن ظهور مجلة نسائية في العراق من الكماليات التي لا حاجة اليها الآن، وأن المناداة بنهضة المرأة في العراق نفخ في رماد. هؤلاء وأمثالهم معتادون على اطفاء الأرواح، ولعلهم من بقايا الوائدين، ولكن ما لنا ولفكرهم الرجعي، وأنى يسمع صوتهم الخافت رعود الأصوات الحية الداعية الى التجدد. لله أنتم أيها المنادون بالحياة والساعون الى خير البلاد، أنتم روح العراق أنتم قلب العراق، قلب العراق شاعر بأنه لن يشفى غليله ما لم تشمل النهضة فتياته، فيستوفين حقهن في التجدد الاجتماعي لتصلح أحوالهن وأحوال الأمة بهن". وتضمن العدد نفسه مقالة تحمل عنوان (المرأة الحقيقية)، تطرقت فيها ملامح ظروف المرأة والواجب الذي يقع على عاتق المجتمع تجاهها من أجل تعزيز مكانتها بواسطة التهذيب والتعليم.

كما تضمن العدد الأول قصائد خاصة بالمجلة للشعراء جميل صدقي الزهاوي، معروف الرصافي، كاظم الدجيلي، والشاعر المصري أحمد نسيم، كما حفل ذلك العدد أيضا بعدة مقالات، احدها جاءت في باب بعنوان (بوق الحق)، وأخرى لمحمد الهاشمي بعنوان (المرأة العربية)، وثالثة طبية معنونه (قانون صحة الحامل) للدكتور جورج حيقاري، ورابعة بعنوان (ليلى الأخيلية) ليوسف غنيمة، لها تتمة في العدد اللاحق، وأخريات منها مقالة بعنوان (نظرة في فن تربية الأطفال).

لقد تضمنت محتويات كافة أعداد مجلة (ليلى)، مجموعة من المقالات المترجمة المأخوذة من المجلات الأجنبية الصادرة في البلدان الغربية المختلفة، وأخريات مقتطفات من الصحف والمجلات المحلية والعربية، وقد حرصت المجلة على استدامة عدد من الأبواب الثابتة، منها: رنات الأوتار السحرية، بوق الحق، حديث ربات المنازل، حقائق، مقتطفات الصحف، لمعات الأفكار، فوائد صحية، وباب الأخبار المتنوعة الذي جاء تحت عنوان (أخبار الغرائب وغرائب الأخبار). ومن الأهمية بمكان التنبيه الى أن كافة الموضوعات المنشورة في أعداد المجلة (العشرين)، مرتبطة جميعها

بالشؤون التي تمس قضايا المرأة من مختلف الوجوه والجوانب، ولكنها في الحقيقة لم تكن تجرؤ على الدعوة الى السفور علانية، خشية من المتربصين بها، بل اضطرت في أعداد لاحقة الى نفي هذا التوجه الذي خطر في أذهان البعض من المتشددين المناوئين.

صدر العدد الثاني السنة الأولى في 15 تشرين الثاني 1923، وضم بين دفتيه عدد من المقالات، منها تتمة لمقالات جاءت في العدد السابق، وأخريات تناولت مواضيع جديدة، وكررت صاحبة المجلة في مقالة بعنوان (متى تحيا الأمة) دعوتها الى تحرير المرأة لأنها عنصراً مهماً من عناصر حياة الأمة وتطورها.

ودأبت المجلة، ومنذ عددها الأول على نشر القصائد الشعرية التي تقف الى جانب قضية المرأة، والداعية الى تحررها، والمعبرة عن مساندة النهضة النسوية، ولذلك فتحت صدرها لكثير من المقالات التي كتبها أنصار المرأة، وقد استقطبت عدداً من الكتاب والأدباء والأطباء العراقيين والعرب.

اهتمت المجلة بتناول قضية النهضة النسوية من وجوه مختلفة، الاجتماعية والتربوية والأخلاقية، وركزت على تسليط الضوء نحو أحوال المرأة ومعاناتها، وجاءت افتتاحية العدد الثالث السنة الأولى الصادر في 15 كانون الأول 1923، تحت عنوان (العادات الوبيلة في قضية الزواج)، منطلقة من أهمية العائلة بوصفها ركيزة المجتمع، وضرورة ترصين العلائق داخل الأسرة الواحدة.

وردت مقالة أخرى تحت باب (حديث ربات المنازل) بعنوان (حديث اليوم)، تطرقت الى الدعوة التي تبنتها مجلة (ليلى) بشأن مشروع تأسيس نادي نسوي في بغداد، التي تكللت بتأسيس (نادي النهضة النسائية) بتاريخ 24 تشرين الثاني 1923، وكان مقره في محلة الصابونجية في بغداد، وتألفت الهيئة الإدارية للنادي من: أسماء الزهاوي بمنصب رئيس النادي، والسيدة نعيمة السعيد نائبة الرئيس، والسيدة ماري عبد المسيح سكرتيرة، والسيدة فخرية العسكري أمينة للصندوق، وعضوية كل من: نعيمة سلطان حمودة وبولينا حسون.

قامت المجلة في عددها الرابع السنة الأولى الصادر في 15 كانون الثاني 1924، بنشر مقالة بعنوان (العادات المستهجنة في معاملة المرأة)، بالاتساق مع توجهاتها في الإصلاح الاجتماعي، حملت مضامينها انتقادات تجاه بعض القيم والعادات الاجتماعية التي تسود في تلك المرحلة، حيث تعامل المرأة بوصفها مخلوق واطئ، وتحط من قدرها وتهضم حقوقها وتبقيها في حالة التخلف، وتؤثر سلباً على نهوضها. وتلت تلك المقالة أبيات شعرية للزهاوي، بعنوان (بكت فلا تمنعوها)، جاءت منسجمة كل الانسجام مع توجهات المقالة الفكرية، يقول فيها:

ما للفضيلة تأتي بها الفتاة رواج
اليوم للناس في خط ـــبة الثراء لجاج
تزوجت فأتاها بما يسوء الزواج
بكت فلا تمنعوها أن البكاء احتجاج

نقلت المجلة في العدد الخامس السنة الأولى الصادر في 15 شباط 1924، مقابلة صحفية مع الشاعرة التركية (نيكار خانم) التي تضمنت الإدلاء بمضامين رؤيتها حول تطور النهضة النسائية في تركيا، المنطوية على إيضاحات هامة حول تهذيب الإناث من مختلف النواحي، وخلصت المجلة الى طرح

فكرة، مفادها: "لن تضام أمة، راقية نساؤها، ولن يسعد أبناء شعب إلا بتهذيب بناته."
اهتمت مجلة (ليلى) بالأحداث السياسية التي حفلت بها تلك المرحلة، ومنها تأسيس أول برلمان عراقي هو (المجلس التأسيسي العراقي)، إذ جرى انتخاب (100) مندوب للبرلمان، على مرحلتين: الأولى في 24 تشرين الاول 1922 والثانية في 25 شباط 1924، وانعقدت أولى جلساته في 27 آذار 1924. وقد قامت المجلة بتغطية هذا الحدث، وتناولت انعقاد الجلسة الافتتاحية للمجلس التأسيسي العراقي بعدة مقالات في أعداد متتالية، مبتعدة عن الخوض في غمار أجواء المقاطعة الشعبية التي سرت كالنار في الهشيم أثناء انتخابات المجلس آنذاك، وانصبت رؤية المجلة فيما طرحته من وجهات نظر نحو قضية غياب المرأة العراقية عن تأدية دورها السياسي، فطالبت بضرورة ردم تلك الهوة التشريعية لما لها من تأثيرات سلبية على تقدم المجتمع، وما ينجم عن تعطيل دور المرأة بوصفها أحد مكوناته الرئيسة، فقد جاءت افتتاحية المجلة إزاء ذلك كله في العدد السادس السنة الأولى الذي صدر في 15 آذار 1924، تحت عنوان: (لدى الحادث التاريخي العظيم).
ولم تعدل المجلة عن مسارها، بل واصلت التعبير عن توجهاتها بعبارات صريحة، إذ حملت افتتاحية العدد السابع السنة الأولى الذي صدر في 15 نيسان 1924، المشاعر المرتجاة إنجازها من قبل المجلس، والمنشورة تحت عنوان: (أنظار نوابنا! لكل عين نظرة)، وانتقلت بعد ذلك الى عرض مواقف رئيس المجلس وبعض النواب ممن التقتهم أو تعرفت على وجهة نظرهم، واستمرت تستنهض الهمم، وتذكرهم بالوعود التي قطعوها على أنفسهم في وجوب إصلاح حال المرأة العراقية.
وانطوى العدد الثامن السنة الأولى الذي صدر في 15 أيار 1924 على افتتاحية، جاءت تحت عنوان (النساء في برلمانات الغرب)، تضمنت إحصائية حول عدد النساء البرلمانيات في معظم الدول الأوروبية. وفي مختتم هذه المقالة المثيرة، حملت صاحبة المجلة هواجسها الاستفهامية حول نصيب المرأة العراقية في هذا المنحى الديمقراطي، متوجهة الى الأستاذ يوسف غنيمة عضو المجلس التأسيسي، مستنجدة بمقدرته البحثية البارعة، ولم يخب ظنها، إذ وافى المجلة بمقالة مطولة على نحو من التفصيل التاريخي الوافي، استعرض فيها حركة مطالبة المرأة في الغرب بحق الانتخاب والتمثيل في المجالس النيابية، وجاءت بعنوان (المرأة والانتخابات النيابية)، وتوقف في مباحثه عند المرأة الشرقية أيضاً، موضحاً في أواخرها كافة المعوقات التي تقف أمام المرأة العراقية، سيما انعكاسات الوضع الاجتماعي وأحوال التعليم في التأثير على وعي المرأة السياسي في تلك الآونة، الذي يأتي في مقدمة العوامل المؤدية الى صعوبة مشاركة المرأة بهذا المعترك، ناهيك عن المعضلة الأساسية المتمثلة في استبعادها بنصوص قانون انتخاب النواب الأول، حيث لم يأتِ على ذكر حقوق المرأة النيابية.
ومما يلفت النظر، أن القانون الأساسي العراقي (الدستور) الصادر بتاريخ 21 آذار 1925، لم يفرق بين الرجل والمرأة في الحقوق السياسية ولا في الحقوق المدنية. ولم يحرمْ المرأة العراقية من حق الانتخاب،

وجاء في المادة الثامنة عشرة، بما يفيد ذلك، وبالنص: "العراقيون متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة...". ولكنه أشار في المادة السابعة والثلاثين إلى أن: "تعين طريقة انتخاب النواب بقانون خاص يراعى فيه أصول التصويت السري...". وقد أعتمد في تطبيق هذه المادة قانون انتخاب النواب الأول الذي سبق المصادقة عليه من قبل المجلس التأسيسي في سنة 1924، وتضمن عدة مبادئ، وهي: الانتخاب على درجتين، يعني انتخاب (غير مباشر)، مثلما حدد كون الناخبين هم الذكور فقط، أي استثنى المرأة واستبعدها. وهنا يقتضي بنا التنويه الى أن هذا المبدأ مخالف لأحكام الدستور، سواء المادة الثامنة عشر أو تعديلها. وبذلك حال مُشرع ذلك القانون دون ممارسة المرأة حقها السياسي، وأدى في المحصلة النهائية الى تغييب مبدأ المساواة ما بين الرجل والمرأة .

ودعونا نسلط الضوء بإيجاز نحو مقالة جاءت بعنوان (حرية نسائية في مصر) ضمن محتويات العدد التاسع السنة الأولى في 15 حزيران 1924، نقلت بعض الشواهد من مصر حول مظاهر لامعة مست قضية تحرير المرأة وشجونها، وانعكست على تطور الحياة الاجتماعية هناك، وبينت أن التمدن يتوجب الأخذ من الحياة الغربية لكل ما يسهم في ارتقاء واقع المرأة وتعزيز مكانتها، وأن تحقيق الإصلاح الاجتماعي يتطلب مواجهة نزعة المحافظة على القديم. وأشارت الى دور اتحاد النساء المصريات برئاسة هدى شعراوي في تحقيق بعض المكاسب للمرأة المصرية، على شاكلة قبول الحكومة المقترح الخاص بتعيين أدنى حد للسن في الزواج، بالإضافة الى تحقيق ما يتعلق في مجال حريتها وسط المجتمع، من حيث توفير ظروف مناسبة لممارسة كثير من الأنشطة على النطاق الاجتماعي والسياسي.

وقد يكون من المفيد ان نشير الى أن دوافع نشر هكذا مقالة، إنما تنطوي على تحريك الرأي العام في العراق، واستثارة المرأة العراقية على وجه التحديد باتجاه المطالبة بحقوقها، فضلاً عن تبيان أهمية التنظيم النسائي وضرورة الانخراط في نشاطاته المعبرة عن آمال المرأة وطموحاتها.

عانت مجلة (ليلى) الكثير من المصاعب منذ بدايتها، وهذا ما أوضحته صاحبتها في المقالة الافتتاحية المنشورة بالعدد العاشر السنة الأولى الصادر في 15 تموز 1924، بعنوان (وداع السنة الأولى لمجلة ليلى)، والتي تقول فيها: "لقد كابدت ليلى في سنتها الأولى ما كابدت، لأنه لم يكن بالأمر السهل أن تشخص على غفلة، وتنادي بأعلى صوتها: اتقوا الله وفكوا قيود المرأة، وأقيموها من حضيض الجهل والذل والخمول، فإنها مساوية لكم في الحقوق وإنكم بدونها لخاسرون، متأخرون، خائبون. ولم تسلم ليلى من ألسنة المخادعين الذين تنكروا بزي الأصدقاء المخلصين وتظاهروا بالعطف عليها بنصائح شتى لم يبغوا منها سوى وأدها وخنقها. من ذلك زعموا أن ليلى تكبد صاحبتها أتعاباً كثيرة، وخسائر جمة تذهب سدى، وأن مشروع ليلى سابق لأوانه. وأن الناس لا يرغبون في القراءة، وإن السيدات والأوانس لا يملن للمطالعة والتَنوّر... فإلى الخصوم ترسل اليوم (ليلى) العفو والغفران، والى المناصرين تسوق طيب الثناء، وعلى جميع القراء والقارئات

تتلو آيات الحمد والشكر ".
وافتتح العدد الأول السنة الثانية في تشرين الثاني 1924، بمقالة معنونة (افتتاح السنة الثانية لليلى)، عبرت فيها صاحبة المجلة بولينا حسون عن مشاعر الفخر الاعتزاز التي تغمرها بسبب استمرارية صدور هذا المنجز، مشيرة الى أن المجلة لاقت تأييداً واسعاً من القراء وهم أساس استدامة صدورها، مثلما وقف آخرون بالضفة المناوئة، وعلى الضد من وجودها وتوجهاتها، وأكدت في حديثها، قائلة: "عادت ليلى وناظرها مرفوع وثغرها باسم، وعلى رأسها أكليل غار... وما كان سلاح ليلى سوى الصبر والثبات والمواظبة على نشر كلمة الحق..."، وتضمن هذا العدد مقالة تاريخية بعنوان (المجلات النسائية في سوريا) وسوريا هنا المقصود بها الشام أي سوريا ولبنان، للأديب اللبناني جرجي نقولا باز وهو أحد مناصري قضية المرأة، استعرض فيها تاريخ الصحافة النسائية، وقدم فيها إحصائيات دقيقة شملت أعداد الصحفيات الشاميات والصحف والمجلات وسنوات صدورها، وقد عرج أيضاً على ذكر الصحفيات ممن مارسن العمل الصحفي خارج بلاد الشام، سواء في مصر أو بلدان المهجر المختلفة، بما في ذلك تحمل مسؤولية إصدار صحف ومجلات هناك. وضم هذا العدد في آخر صفحاته، مقالة إشادة بمجلة (ليلى) نشرتها جريدة الأحرار البيروتية بتاريخ 23 أيلول 1924، ونقتطف بعضاً مما جاء فيها: "هي مجلة نسائية تبحث في كل مفيد وجديد من العلم والفن والأدب والاجتماع وتدبير المنزل، أنشأتها في بغداد الآنسة بولينا حسون ابنة أخت العلامة الحوراني. أكملت عامها الأول بعشرة أجزاء في خمس مئة صفحة وستبدأ مجلدها الثاني بعد بضعة أيام. جميلة الأسلوب. حسنة الإنشاء. جريئة في الدفاع عن المرأة. متحمسة في إنهاضها من سباتها ودفعها الى الأمام... انكلوسكسونية المنهج. عربية المبدأ. عراقية الشعور. إنسانية الغاية. مجددة الرأي. إصلاحية. فما أنفعها للعراقيات والعربيات، كثر الله أمثالها."
وكان للشعر حظ وافر في العدد الثاني السنة الثانية في كانون الأول 1924، إذ احتوى على ثلاث قصائد: قصيدتين للزهاوي الأولى (ليلى تزورني) والثانية قصيدة (على قبري)، وقصيدة أخرى للشاعر اللبناني محمد علي الحوماني بعنوان (أو تجني العلا ولا تتجنى). كما يتجلى الاهتمام بقضية اجتماعية تأتي على نحو من التكرار على صفحات أعداد المجلة، إلا وهي موضوعة (الزواج)، حيث ضم هذا العدد عدة مقالات سلطت الضوء على قضايا الزواج من زوايا متعددة.
ونشرت المجلة في العدد الثالث السنة الثانية في كانون الثاني 1925، مقالة حول حاسة البصر بعنوان (سير النور غير المنظور)، تضمنت أبياتا شعرية للشاعر أبو العلاء المعري، مثلت نظرته الى الجسد بعد الفناء، كما بقي مسار المجلة في الاهتمام بقضايا الزواج على الوجهة نفسها، ولكن هذه المرة جرى عرضها من خلال التعبير بفن القول، عبر قصيدة للشاعر معروف الرصافي بعنوان (إن الزواج محبة)، وقصيدة أخرى للشاعر اللبناني نقولا رزق الله بعنوان (بعد زواج سعيد).
وافتتح العدد الرابع السنة الثانية في شباط 1925، بمقالة معنونة (صوت النصف

الآخر)، حيث ولجت الى عالم السياسة من خلال توظيف المشكلة المثارة حول الحدود العراقية ـ التركية، المعروفة في تلك الآونة بقضية الموصل، منبهة الى أن التاريخ لن يعود للوراء، وسلطت الضوء على أحوال الناس عامة في العهد العثماني، وركزت على وضع المرأة بشكل خاص، وأشارت الى وجود بعض المظاهر التي تبين التطورات الناشئة خلال الفترة القصيرة للحكم الوطني، والتي تمهد سبل النهضة النسائية في البلد. وعلى منحى قضية الموصل نفسها، جادت قريحة الشاعر محمد مهدي البصير بقصيدة منشورة في هذا العدد بعنوان (الجنس اللطيف يدافع عن الموصل)، وتحت باب (حديث ربات المنازل)، انضوت مقالة بعنوان (الرجل مرآة المرأة في الاجتماع)، بقلم حسنية فهمي، منقولة عن مجلة (المرأة الجديدة) المصرية.

مثلت الأجواء الغربية هنا وهناك في العدد الخامس السنة الثانية الصادر في 15 آذار 1925، بعدة مقالات ومقتطفات، منقولة ومترجمة من المجلات الأجنبية، كذلك كانت موضوعة (الحب) حاضرة في متون المجلة، إذ جاءت بهذا العنوان مقالة للأديب المصري ابراهيم اباظة منقولة عن مجلة (المرأة الجديدة) المصرية، تبعتها على نغمات الحب في وريقات أخرى قصيدة شعرية للشاعر اللبناني حليم دموس بعنوان (الحب بلسان أصحاب المهن)، انطوت على التعبير عن المشاعر والأحاسيس بحسب اهتمامات كل واحد منهم، بحيث يشرح حبه بلسان مهنته، ففاضت القصيدة برؤى الوجدان على صفحات هذا العدد والعددان الآخران اللذان تلياه، ونطقت بلسان كل من: الأستاذ، الصحافي، الشاعر، المحامي، الفلكي، المزارع، الطبيب، الصيدلي، القائد، طبيب العيون، القاضي ، الرسام، الساعاتي، الراعي، حكيم الأسنان، الحلاق، الكاتب، الرياضي، الطباع، الصياد، الطيار، السياسي، البحري، وبائع الخمور. فعلى سبيل المثال، دعونا ننصت الى قول المزارع:

(زرعت) تحية (فجنيت) حباً
بما في (حقل) قلبي حين مالا
فهل (زهرات) حبك (ثابتات)
إذا ريح النوى (عصفت شمالا)

ويقول الرسام:

(رسمت) جميع الكائنات (بريشتي)
فلا قبلها (شبه) ولا بعده (ند)
وإذا رمت (تصوير) الهوى عجزت يدي
فلا تعجبوا فالحب ليس له (حد)

أما الساعاتي، فلسانه يناغم صوت ضربات قلبه في قول:

(ساعة) الحب مضت (لذاتها)
شبه حلم طيب حلو المذاق
كلما (دق) فؤادي شغفاً
صاحت (الساعة) قد حان الفراق

نشرت المجلة في مفتتح العدد السادس السنة الثانية الصادر في 15 نيسان 1925، رسالة مطولة بعنوان (النهضة الجامدة)، مرسلة من قبل قارئة متخفية تحت اسم مستعار هو (عارفة)، ويبدو واضحاً أنها بمثابة مقالة مكتوبة بقلم متمرس تحمل رؤية ناضجة، وفي الغالب من كتبها مطلع تماماً على مجريات الأوضاع في البلد، وبصرف النظر عن هوية كاتبها، إلا انها تكاد تكون منسجمة الى أبعد الحدود مع توجهات الآنسة بولينا حسون صاحبة المجلة، ومتطابقة في

التعبير عن هواجسها الشخصية ومرامي المجلة وأهدافها، وقد تناولت الرسالة (المقالة) تفاصيل دقيقة حول أحوال المرأة العراقية، وتطرقت الى شؤون النهضة النسائية وشجونها، استنهضت أصحاب الشأن في البلد -بما في ذلك الملك والملكة- لأجل مناصرة مشروع مجلة (ليلى) المتبنية باندفاع قضية المرأة، والساعية الى الارتقاء بأوضاع فتيات العراق عبر محاربة الجهل والتخلف، والتركيز على التهذيب والتربية والتعليم. وحملت الكلمات المكتوبة ما بين سطورها انتقادات على نحو بائن مرة ومضمر مرة ثانية تجاه ضعف الإدارة وبطيء التطور وقلة العمران، سواء في العاصمة أو بقية حواضر البلاد. وفي سبيل الإحاطة بمضامين تلك الرسالة، نجتزأ منها المقطع الآتي: "إن الطبيعة والعصر والشرع والعرف والقانون، وكل حق، وكل عزيز، وكل مقدس يأمرهم ويحرضهم منادياً وقائلاً: انصفوا الأنثى، أعطوها حقها من المساواة، من الاحترام، من التهذيب، من الرقي. ضعوها في مركزها الحقيقي حتى تحيا حياتها الحقيقية، وحتى يجني منها المجتمع البشري الفوائد العظيمة الحقيقية التي بها وحدها ترتقي الامة".

جاءت افتتاحية العدد السابع السنة الثانية الصادر في 15 أيار 1925، بعنوان (التزاحم بين الجنسين)، وانطوت مضامينها على نقل تصور حول مكانة المرأة أمام الرجل في البلدان الغربية، ومرامي المقالة تحريضية بامتياز، يتضح ذلك من خلال القيام باستعراض عدة مناصب هامة تمكنت المرأة على تولي إدارتها بكفاءة، وتبيان عديد من مجالات العمل التي ولجتها المرأة واستطاعت أن تقدم مهارة على غرار ما يقدمه الرجل، بل وأزيد، وأشارت الى تفوق المرأة في مجال الإبداع الأدبي، فهناك مثلاً شاعرات وروائيات مشهورات، وهنالك أيضاً متفوقات على نطاق الاكتشافات العلمية، وفي مختتم المقالة الافتتاحية هذه يظهر الاستفهام على نحو من الاثارة، والمرتجى منه الاستنهاض، ومفاده: "فهل لبنات العراق أن يغرن عند قرائتهن (قراءتهن) أخبار أخواتهن في العالم الناهض -ليس الى منازعة الرجال والتفوق عليهم- ولكن الى طلب التهذيب وحب الشغل المجدي نفعاً وخيراً؟".

ونطالع في العدد الثامن السنة الثانية الصادر في 15 حزيران 1925، قصيدة رومانسية للشاعر اللبناني إلياس أبو شبكة بعنوان (مات حسونها)، يصف فيها فتاة تبكي على موت أليفها ومؤنسها الطائر ذو الصوت الجميل المعروف بـ (الحسون). وتلتها قصيدة مطولة حول بيتهوفن الموسيقار العالمي مبدع السيمفونيات الكلاسيكية، بعنوان (بيتوفن) (هكذا) للشاعر اللبناني منير الحسامي، مكتوبة أواسط عشرينيات القرن الماضي على نسق شعري مغاير لما هو سائد ومألوف آنذاك، لا يلتزم بأوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي، عرف بـ (الشعر المنثور) والقصيدة مأخوذة من ديوانه (عرش الحب والجمال)، كما نشرت المجلة في عددها التالي (التاسع) قصيدة ثانية لهذا الشاعر من الشعر المنثور أيضاً بعنوان (أحب أن أبكي فمن يبكي معي!.)

جاءت المقالة الافتتاحية للعدد التاسع السنة الثانية الصادر في 15 تموز 1925، تحت عنوان لافت، ينطوي على صرخة

نابعة من أعماق صاحبة المجلة، إلا وهو (بمناسبة التئام البرلمان العراقي الأول.. هل لنا حصة في ذلك؟)، وأبتدأ النص بالآتي: "كلا، اننا لا نطلب حصة في الانتخاب والكراسي والوظائف... إنما نطلب من البرلمان العراقي الأول الذي افتتح منذ منتصف الشهر الحاضر، ولا يزال يوالي جلساته بالخير، حصة مشروعة، بل أمراً ضرورياً للوطن، بل مشروعاً هو أيضاً من المشروعات الحيوية التي لا نزال نسمع الجرائد المحلية تشيد بذكرها وتضج بترديد ذكرها، والمشروع هو توفير أسباب تعليم الفتاة العراقية وترقية تربيتها... إن المستقبل لا يبسم للأمة العراقية إلا متى كان نور التهذيب شارقاً على بناتها. فعجلوا يا ممثلي الأمة ومدبريها نشر هذا النور...". وكان افتتاح البرلمان حدثاً مثيراً لاهتمام المجلة، فقامت بنشر تغطية اخبارية حول حضور الملك فيصل الأول الجلسة الافتتاحية نهار يوم الخميس 16 تموز، ثم قيامه بإلقاء خطبة العرش، وبعد أن غادر المجلس، جرى أداء القسم من قبل أعضاء مجلسي الأعيان والنواب، ثم انتخب أعضاء كل مجلس رئيساً له، ففاز برئاسة الأعيان السيد يوسف السويدي، وبرئاسة النواب السيد رشيد عالي الكيلاني.

وتلت تلك المادة الإخبارية مباشرة، مقالة بعنوان (النظام البرلماني) بقلم (عارف)، تمثل محتواها في تقديم لمحة تاريخية وافية حول النظام البرلماني، اشتملت في البدء على توضيح مطالبة العراقيين لكي يكون للعراق حكومة ملكية دستورية ذات نظام برلماني وتشريع دستور للبلاد. ثم ذهب الكاتب الى توضيح معنى النظام البرلماني بتفصيل دقيق، واستكمل مباحثه باستعراض تاريخي حول نشأة النظام البرلماني في إنكلترا منذ القرن الثامن عشر وتبيان التطورات التي طرأت عليه بفعل التطبيق في بقية البلدان حتى مطلع القرن العشرين. كما حفل هذا العدد بمقالة معنونة (نوادر عن العظماء والعظيمات)، تناولت كل من الشخصيات الآتية: بطرس الأكبر، اسكندر الأكبر، السير ولتر والي، الملكة فكتوريا، الإمبراطور شرلمان (هكذا)، كانج هاي إمبراطور الصين.

نشرت مجلة (ليلى) بنهاية عامها الثاني، في العدد العاشر (الأخير) السنة الثانية الصادر في 15 أب 1925، مقالة افتتاحية حزينة بعنوان (ختام عام ليلى الثاني)، حملت بين سطورها هواجس صاحبة المجلة حول احتمالية توقفها عن الصدور، تحدثت بصراحة محملة بالعتاب حول الظروف الصعبة التي تواجه الصحافة في العراق عموماً، وركزت على وجه التحديد نحو ما كانت تعانيه مجلة (ليلى) من منغصات ومتاعب، بالإضافة الى المشاكل المالية التي واجهت هذا المشروع الناشئ. وجاء في مختتم هذه المقالة، الآتي: "أن ليلى لعلى يقين لا تضطر الى إبداء أدنى تشكك في عامها الثالث، وأنها ستلاقي أعواناً أقوياء يسعون الى إطالة عمرها وإسعاد حالها وتأييد مشروعها الوطني الذي يجب أن يَعْضُدَهُ كل ذي دماغ وقلب". ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السَفن، إذ توقفت المجلة بعد صدور هذا العدد، وجرى على المستوى الشخصي تعيين الآنسة بولينا حسون، مديرة لمدرسة باب الشيخ الابتدائية، وكان هذا التعيين بداية للحملة الشعواء التي تعرضت

لها تلك الصحفية الرائدة، فضلاً عما تحملته من مشاكل أثناء مدة إصدار المجلة.

تجدر بنا الإشارة الى أن جريدة (المفيد)، صاحبها ومديرها المسؤول إبراهيم حلمي العمر، كانت في مقدمة الصحف التي هاجمت بولينا حسون بقسوة، في مقالة جاءت مذيلة بتوقيع (خبير بما هنالك)، وبالمقابل دافعت عنها جريدة (العالم العربي) في العدد: (118) بتاريخ 10 آب 1924، بنشر رد تحت عنوان (تكذيب مدعي الخبرة)، واستمرت المشادات تتوالى على صفحات عدد من الجرائد، ومن ثم بعد فترة قصيرة انبرى الصحفي رزوق غنام، صاحب جريدة (العراق) الى نشر مقالات تتهجم على صاحبة (ليلى) وتتهمها بعدم امتلاكها لأصول التربية والتعليم، وبعبارات تسيء اليها، ودخلت في صراع حاد، أخذ أبعاد المواجهة الشخصية، وفي آخر المطاف انتقل الى المحاكم، وكانت النتيجة النهائية لصالح بولينا حسون، وأغلب الظن أن عدائية رزوق غنام كانت تستبطن خلافات أسرية، وصراعات في مضمار المهنة الواحدة والتي تتجسد في ميدان الصحافة أكثر من بقية الميادين الأخرى. ومع ذلك كله، كانت المحصلة النهائية، أن صدر من مجلة (ليلى) خلال السنتين عشرون عدداً.

مهم أن نشير الى أن جذوة الأمل باستعادة الحلم في تلك الأثناء ظلت متقدة بدواخل بولينا حسون على الرغم من كل ما واجهته في الحملات الصحفية المقامة ضدها، فقد عبرت بعد انتهاء السنة الثانية عن رغبتها وإصرارها على معاودة إصدار مجلة (ليلى)، حين قامت بنشر إعلان في جريدة (العالم العربي) في العدد: (533) الصادر بتاريخ 15 كانون الأول 1925، يلفت أنظار القراء والقارئات الى أن العدد الأول للسنة الثالثة من مجلة (ليلى) سيصدر في الشهر القادم، ويبدو أن الضغوط الشديدة والحملات القاسية التي جابهتها سواء من المناوئين المتزمتين بالمحافظة على القديم أو من زملاء مهنة الصحافة كانت أقوى من إرادتها، هذا بالإضافة الى مزامنة تلك الأهوال مع صدور قرار بتنحيتها عن وظيفتها في إدارة المدرسة، ذلك كله، قد دفعها في نهاية المطاف الى اتخاذ قرار العدول عن الاستمرار في العمل الصحفي، وهكذا تكالبت الظروف القاسية على قمع تلك المجلة الرائدة المتميزة، مما اضطرها إلى الاستسلام بالأمر الواقع. فتوقفت المجلة عن الصدور وأغلقت نهائياً، وسافرت صاحبتها إلى خارج العراق.

لقد بقيت بولينا حسون في العراق تطارد حلمها طيلة سنتين، ولكنها عاشت في آخر المطاف صدوع حلم منقطع، وتركت ذاكرة ناطقة تحكي قصة ظلال قلم اقترن بالحلم.

التحليل الثقافي للخطاب السياسي

أنموذج خطاب رئيس الحكومة المغربية السابق سعد الدين العثماني

محمد دهموش
باحث في تحليل الخطاب/المغرب

تشكلت الدراسات الثقافية إثر مجموعة من التحولات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، وتطورت نتيجة تشربها للعديد من التخصصات المعرفية ومناهج البحث المختلفة. فهي "تتجاوز حدود حقل معرفي معين...وقد تضمنت منهجيتها التحليل النصي والسيميائيات والتفكيك والإثنوغرافيا والتحليل اللساني والتحليل النفسي"[1].

لقد كان لمدرستي برمنجهام وفرانكفورت الدور الحاسم في تطوير هذه المقاربات الثقافية، والتي تهدف إلى تحليل الثقافة ونقدها، بالتركيز على كشف كل أشكال السلطة والهيمنة التي رسخت في المجتمعات البشرية. إنها ترى النصوص باعتبارها نتاج ثقافة تؤثر في كل الإبداعات الإنسانية. وبالتالي، فإن تعدد المقاربات في الدراسات الثقافية راجع إلى تعدد المرجعيات التي تنطلق منها؛ لأنها تقوم بـ" الاستعانة بما أمكن من العلوم والمعارف "[2] كالفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وغيرها ...فقد انبثقت منها الدراسات النسوية ودراسات ما بعد الاستعمار والتاريخانية الجديدة والنقد الثقافي وغيرها من المقاربات التي تهدف إلى تحرير الإنسان، وكشف المسكوت عنه داخل كل ثقافة من الثقافات .

تتوسل هذه الورقة البحثية مقاربة النقد الثقافي في تحليل الخطاب السياسي المغربي تحليلا ثقافيا، وذلك باتخاذ الخطاب الذي ألقاء رئيس الحكومة المغربية السابق سعد الدين العثماني [3] يوم 23 مايس / ماي2017 بمناسبة انعقاد مجلس النواب بعد تشكل حكومة جديدة، اتخاذه متنا للدراسة. لغرض الإجابة على تساؤلين مترابطين يتعلقان بالكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة وراء خطاب سعد الدين العثماني والتي تتحكم في تشكيل مستوياته اللغوية المعجمية والتركيبية والدلالية. بالإضافة إلى مدى إمكانية وصف

هذا الخطاب بأنه خطاب شعبوي.

1. تحديدات مفهومية

مفهوم النسق الثقافي

يعتبر من المفاهيم الإجرائية والأساسية "للنقد الثقافي"[4] وقد أشار عبد الله الغذامي إليه باعتباره رمزا ذهنيا يُحتكم إليه ويُلتزم به كدليل وموجه اجتماعي وسلوكي، وهو أمر فرضته الدلالة الثقافية. في حين عرفه تالوكت بارسونز بأنه "نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تتبع من الرموز المشتركة والمقروءة ثقافيا"[5]. بينما يعتبره عبد الفتاح كيليطو "مواضعة (اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيتيقية ...) تفرضها، في لحظة من تطورها، الوضعية الاجتماعية والتي يقبلها ضمنيا المؤلف وجمهوره" [6].

من خلال هذه التعريفات لمفهوم النسق يتضح أن المشترك بين التعاريف السابقة هو أن النسق عنصر مفروض من طرف الثقافة. إضافة إلى كونه جمعي متفق عليه من طرف فئة محددة وذهني الإدراك يحدد الخصوصيات الثقافية لجماعة ما، ويعمل على توحيد الوعي الجمعي ويعزز الانتماء والهوية.

لكن التمييز الذي انفرد به الناقد عبد الفتاح كيليطو، في رأيي، أنه ربطه بالتغير والتطور حسب طبيعة المجتمع، فما قد يكون نسقا اليوم قد لا يكون كذلك غدا.

مفهوم الشعبوية

الشعبوية هي كلمة مشتقة من الشعب. فهي ترتبط بالفئة الشعبية في مقابل النخبة، وحين تتجسد هذه الشعبوية في الخطاب السياسي، ينظر إليه أنه خطاب يخص الشعب منبثق منه وموجه إليه لغايات سياسية. بهذا المعنى، فالشعبوية حسب إدريس الكنبوري "هي نوع من الخطاب السياسي الذي يرمي إلى دغدغة مشاعر الناس البسطاء، وتوظيف منطق تبسيطي يقدم حلولا سريعة وسهلة للمشكلات "[7]. بالإضافة إلى أن الشعبوية في مضامينها تقوم على الفصل والتقسيم لفئات المجتمع فتنظر إليه منشطرا إلى "فئة الشعب أو الجمهور النقي وفئة النخبة الفاسدة التي هي أصل المشاكل والاختلالات"[8]. فالسياسي الذي يتبنى الخطاب الشعبوي في السياسة يدعي كونه واحدا من أبناء الشعب، والوحيد الذي يدافع عن المطالب الشعبوية المشروعة. إنه ينصب نفسه القيادي المثالي الممثل لهذه الفئة ضد فئات أخرى تحرص على رعاية مصالحها الشخصية.

إن الهدف الذي يدفع السياسيين لتبني مثل هاته الخطابات في السياق المغربي حسب محمد سبيلا هو أن الشعبوية "تهدف إلى توسيع القاعدة الاجتماعية للأحزاب وتضمن في جوهرها عدم اقتصار المشاركة السياسية على النخبة الثقافية، بل توسيعها لاستيعاب شرائح واسعة من المجتمع "[9].

انطلاقا من التعريفات السابقة يمكن أن نستنتج الخاصيات الجوهرية للشعبوية، والتي ستكون منطلقا لتحليل خطاب سعد الدين العثماني. ويمكن تحديدها فيما يلي:

- الاقتراب من الفئة الشعبية الدنيا وتمثيلها
- التبسيط وسهولة اللغة
- مخاطبة العواطف والوجدان عوض العقل
- ادعاء امتلاك الحلول للمشاكل التي يواجهها الشعب

مفهوم النخبة

يرجع أصل هذه الكلمة في اللغة العربية نخب وانتخب بمعنى اختار واصطفى. فمعنى اختيار شخص معين في مقابلة عمل ما، مثلا، يعني: إقصاء البقية، وهذا الشخص الذي تم اختياره له صفات ومميزات تعليه عن بقية الأشخاص. إن النخبة في السياقين الاجتماعي والسياسي " تشير إلى الفئة الاجتماعية التي يعتقد أنها الأفضل والأهم بين غيرها بفضل امتلاكها السلطة أو الثروة أو مهارات عقلية مثل: النخبة الحاكمة، والنخبة المثقفة "[10]. وعلى هذا الأساس، فإن النخبة في المجال السياسي هي من تمتلك زمام الأمور والثروة، وتسيّر العمل السياسي لامتلاكها أدوات القوة سواء كانت اقتصادية أو فكرية. بالإضافة إلى أن الخطاب السياسي الذي تنتجه غالبًا ما يعكس رؤيتها للعالم ويدافع عن مصالحها، وأيديولوجياتها. مما يعزز مرتبتها في قمة الهرمين الاجتماعي والسياسي. ودائما ما تكون أقلية، وهي نقيض الشعبوية التي أشرنا إليها سابقا.

مفهوم الخطاب السياسي

في البداية لابد من الوقوف عند مفهوم الخطاب الصرف لننتقل بعدها لتحديده حين يؤطر في مجال السياسة.

تتعدد تعريفات الخطاب[11] بتعدد الحقول المعرفية وتنوع المرجعيات والمقاربات التي تشتغل على تحليل الخطاب: اللسانيات، التداوليات، البلاغة ...إنه بهذا المعنى "يستعمل بمعان أكثر دقة ولكن مختلفة اختلافا ما، في سياقات متنوعة"[12].

إن الخطاب حسب إميل بنفينيست هو "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وهدف الأول التأثير على الثاني بطريقة ما "[13]. ويعرفه مايكل شورت بأنه "اتصال لغوي يعتبر صفقة بين المتكلم والمستمع، نشاطا متبادلا بينهما، وتتوقف صيغته على غرضه الاجتماعي"[14].

انطلاقا من التعريفين السابقين يتضح أن الخطاب ممارسة لغوية تفاعلية واعية مرتبطة بسياق تواصلي لها علاقة بالمكان والزمان وبالقواسم المشتركة بين المتكلم وبين المتلقي لتحقيق أهداف محددة. إنه يتجاوز المستويات الصرفية والتركيبية والمعجمية والدلالية، إلى المستوى التداولي، بل إن المستوى الأخير يضم المستويات الأخرى السابقة وينطلق منها دارس الخطاب بوصفها أرضية تتحدد وفقها آليات التأويل والقراءة.

أما الخطاب السياسي فهو ذلك الخطاب الذي يتخذ من السياسة موضوعا لها كما يراد به "خطاب السلطة الحاكمة في شائع الاستخدام"[15]، فهذا النوع من الخطاب يقوله السياسي في سياق معين ويوجهه إلى فئة معينة لغايات ومقاصد سياسية.

تُظهر العلاقة بين النخبة والشعبوية والخطاب السياسي تفاعلًا بين الفئات المؤثرة في المجتمع والفئات الشعبية. النخبة تصوغ خطابًا سياسيًا يتسم بالعمق والمنطق، بينما تروج الشعبوية لخطاب عاطفي وبسيط موجه نحو العامة. الصراع بينهما يعكس التوترات بين السلطة والشعب، وبين الرؤية النخبوية التي تسعى للحفاظ على الوضع القائم والرؤية الشعبوية التي تسعى للتغيير الجذري.

من خلال التحديدات المفهومية السابقة، سننطلق لتحديد الأنساق الثقافية في خطاب

رئيس الحكومة، من فرضية مفادها أن هذا الخطاب شعبوي يخاطب العاطفة بدرجة أولى ثم يخاطب العقل بدرجة ثانية، وبالتالي، فهدفه التأثير الذي يؤدي في النهاية إلى الإقناع. بمعنى آخر، أن التأثير يكون بالتركيز على المشاعر، بينما الإقناع يأتي في الخطاب الشعبوي في مرحلة ثانية.

2. قراءة ثقافية لخطاب سعد الدين العثماني

بعد تحديد المفاهيم سنقدم قراءة ثقافية - باعتماد مقاربة النقد الثقافي – للخطاب السياسي للسيد رئيس الحكومة المغربية سعد الدين العثماني بمناسبة عقد اجتماع مجلس النواب بعد تشكل الحكومة يوم 23 مايس/ ماي 2017. فهذا الخطاب يحركه نسقان ثقافيان أساسيان تتفرع منهما أنساق صغرى خدمة للتوجه الأيديولوجي الذي يؤطر سعد الدين العثماني.

أ. النسق الديني

يتوارى النسق الديني في هذا الخطاب وراء مجموعة من الرموز اللغوية والخطابية التي تتحدد وفق سياق الخطاب. إذ أن المرسل استند على معطيين أساسيين يختفي وراءهما النسق الديني. ويمكن تقديمهما كما يلي:

المرجعية المؤسسة للخطاب

ينتمي المرسل لحزب العدالة والتنمية ذو مرجعية دينية إسلامية. حيث تعددت الألفاظ التي تدل على الأيدولوجيا والمرجعية التي ينطلق منها الرئيس، فقد وردت كلمات من قبيل "الإخوة، الإخوان، الأخ، "في أكثر من موضع والتي تعتبر نسقا يحيل إلى تيار الإسلام السياسي عامة والمتمثل في حزب العدالة والتنمية في السياق المغربي.

التوظيف الرمزي للدين: اعتماد كلمات ذات صبغة دينية، مثل الأخوة، يهدف إلى بناء صورة متماسكة عن الحكومة ككيان يحمل قيم التعاون والتضامن، كما أن الدين هنا ليس محصورًا في طابعه التعبدي، بل يمتد إلى كونه أداة لتوحيد الخطاب السياسي والتواصل مع الجمهور المتمثل في الحاضرين في الجلسة وكافة شرائح المجتمع المغربي.

ب. النسق الوطني

إلى جانب النسق الديني، يبرز النسق الوطني كمحور مركزي في الخطاب، مما يعكس محاولة تحقيق توازن بين الهوية الإسلامية والانتماء الوطني.

التأكيد على الهوية المغربي: يبين الخطاب ارتباطا بالخصوصية المغربية في العمل السياسي، حيث يتم تقديم رؤية وطنية شاملة تزاوج بين الأصالة والمعاصرة. بالإضافة إلى استحضار قضايا التنمية الاجتماعية والاقتصادية يبرز اهتمامًا بالمواطن كجزء من "الجماعة الوطنية"، مما يُكسب الخطاب بعدا وطنيا وتاريخيا يظهر رؤية شمولية للتنمية تتجاوز الجوانب المادية لتشمل القيم الثقافية والأخلاقية.

التعامل مع التعدد الثقافي: المغرب يتميز بتعدد مكوناته الثقافية (العربية، الأمازيغية، الإسلامية)، ما ينعكس في خطابات تظهر احترام هذا التعدد. وقد استخدم النسق الوطني كأداة لتوحيد هذه المكونات تحت مظلة مشتركة.

ج. النسق السياسي

هذا النسق منتشر بكثرة في الخطاب

المدروس. ويمكن توضيح أبعاده من منطلقين أساسيين هما:

التركيز على نزاهة الانتخابات: حين قال: "الشعب صوت يوم 7 أكتوبر وقال كلمته". مما يعني تزكية أحقية هذا الحزب في رئاسة الحكومة، هذه الإشارة تمثل دعوة ضمنية لاحترام المسار الديمقراطي الذي أفرز فوز حزب العدالة والتنمية، ما يمنح الخطاب بُعدًا سياسيا يعزز النزاهة والشفافية. كما أن التأكيد على تحمل مسؤولية الأخطاء التي وقع فيها صديقه في الحزب عبد الإله بنكيران، وفي رأيي أن هذا الاعتراف والمشاركة في تحمل المسؤولية يريد التنصل منها بشكل آخر كخطة تكتيكية لتجنب النقد الموجه للحكومة التي يترأسها، وفي الآن ذاته يلتزم ظاهريا بالولاء للقيادة الحزبية المتمثلة في الأمين العام للحزيب عبد الإله بنكيران.

استغلال الأزمات: لقد استدل المرسل بأزمة الريف: "أنا قلتها من البداية يجب الوفاء بتحقيق المطالب ديال الإخوان فالحسيمة ". وما قابله من طرف الحاضرين بالهتاف والتصفيق الذي يحمل، في هذا السياق، دلالات تتعلق بنجاح المرسل في التأثير على المتلقين بعد ذكره لقضية تتعلق بأزمة الريف، ويمكن تأكيد هذا الطرح من خلال النظر إلى المدة التي استغرقها التصفيق، ما يدل على مدى قدرة الخطاب على إعادة بناء الثقة بين القيادة والجماهير، خاصة في سياق أزمة اجتماعية وسياسية مثل أزمة الريف التي لها وقعها الخاص على المشهد السياسي المغربي.

د. النسق الشعبوي

وظف هذا النسق الشعبوي لخدمة النسق السياسي الذي بواسطته يحظى بالقبول ويضمن بذلك استمراريته في المنصب. لا شك أن الشعب من أولويته العمل والتعليم والصحة. فإن الرئيس ركز على ضرورة التعاون من أجل القضاء على الفساد الذي يعتبره مصدر المشاكل الأخرى "الفساد ليس مشكلا صغيرا. هو إشكال ممتد عبر الزمن ...أنا يالاه شهر ونصف وتقولو عطينا النتيجة". ورغم وقوعه في تناقض مع تأكيده على تحمل المسؤولية ومشاركة الحكومة السابقة في ذلك. إلا أنه استدرك ليخوض في الشعبوية حيث تحدث عن حق الشعب في المشاركة في وضع اقتراحات وانتقادات لما يجب انتقاده وهدفه التقرب من الشعب، بينما تطرق أيضا لمبدأ الشفافية في فرص الشغل رافضا الزبونية "حنا ديما كناخذو الأوائل ". والسماع لآلام المواطن وشكاياته سعيا لحلها. إن الخطاب السياسي الذي تبناه السيد العثماني هو خطاب شعبوي؛ لكونه يخضع لأغلب الخصائص التي حددناها سابقا وسنقوم بإبراز تجليات هذه الخصائص في هذا الخطاب:

الخاصية الأولى

الاقتراب من الفئة الشعبية الدنيا وتمثيلها: وردت كلمة الشعب في الخطاب ثلاث مرات، وكلمة المواطن سبع مرات، في حين جاء الضمير الدال على المتكلمين نحن سبع مرات. وقد وردت لفظة الجمهور مرة واحدة ولفظة المجتمع مرتين. ومن هنا، يتضح أن الرئيس اعتمد معجما يزخر بعبارات وألفاظ دالة على الشعبوية كموجه أساسي يؤكد من خلالها انتماءه إلى الشعب.

الخاصية الثانية

التبسيط وسهولة اللغة: طغى على الخطاب اللسان الدارج في معظم لحظاته. وحينما يوظف اللغة الفصحى حينا، يعود إلى اللهجة العامية. إن هذا دليل على أنه يلمح بانتمائه إلى الفئات الشعبية "الشعب صوت ...قال كلمته. أنا مع تحقيق المطالب ديال الإخوان في الحسيمة "باعتباره متكلما باسمها باعتماد لغة بسيطة وسهلة، مع إدراج الضحك حينا ورفع قبضته تارة أخرى. مما يوحي إلى النضال والوقوف بجانب الشعب.

الخاصية الثالثة

مخاطبة العواطف والوجدان عوض العقل وادعاء امتلاك الحلول للمشاكل التي يواجهها الشعب.

إن معظم ما جاء في الخطاب يسعى بواسطته المرسِل إلى التأثير في المتلقين لكسب تعاطفهم وإقناعهم بقدرته على إصلاح الأوضاع وتخطي الأزمات، فهو يعتمد آليات تركز على الانفعال الداخلي في غالب الأحيان. وبالتالي الإيمان بالسياسي (الرئيس) "الاستراتيجيات بعيدة المدى هي لي غتمكن من الإصلاح الجذري ...يجب تظافر الجهود بين جميع الفئات ...غنوضعوا خلية للاستماع لشكايات المواطن ".

لقد سبقت الإشارة إلى وجود نسقين كبيرين يشتغلان لخدمة بعضهما البعض، هما - النسق الشعبوي والنسق الديني- يخدمان نسقا أكبر هو السياسي، ويمكن توضيح العلاقة بين هذه الأنساق في الرسم الموجود في اسفل الصفحة.

إن القاسم المشترك بين النسقين الديني والشعبوي من حيث إدماجهما في خطاب سياسي هو كون كل منهما آلية فعالة وناجعة للسيطرة والتأثير، مما يعني تحقيق الأغراض والمقاصد التي يسعى إليها المرسِل؛ لأنهما يخاطبان الوجدان والعاطفة.

تركيب

من خلال ما سبق، يمكن القول بأن خطاب السيد العثماني خطاب شعبوي؛ لأنه يتمحور على خصائص الشعبوية المذكورة، وهي اللغة السهلة والبسيطة ومخاطبة الوجدان ثم ادعاء الانتماء للشعب واعتبار السياسي الشعبوي نفسه يمتلك مفاتيح حل كل المشاكل الشعبية.

النسق الديني في الخطاب مرتبط بأيديولوجيته الرئيسة ومرجعيته الدينية التي تشكل خليفة لحزب العدالة والتنمية. ومن جهة أخرى، تبين أن حضور النسقين الشعبوي والديني هدفهما خدمة النسق السياسي؛ لأنه يشكل

(الاستفادة من الدين والشعبوية كأدوات سياسية للتأثير على المجتمع وتوجيه سلوك الأفراد)

محور الخطاب ونواته. وذلك لتأكيد شرعية حزب العدالة والتنمية في رئاسة الحكومة للولاية الثانية، وتأكيد دور الرئيس الجديد في قيادة الحكومة لإعادة الثقة في قدرة الحكومة التي يتزعمها الإسلاميون على تصحيح الأخطاء الماضية، وكسب تعاطف المواطنين المغاربة.

لقد اتسم خطاب العثماني بالاعتدال؛ إذ يتجنب التطرف في استحضار الدين ويركز على قضايا عملية، مما يعكس محاولة للمزاوجة بين المبدأ الأيديولوجي والممارسة السياسية. إن خطاب العثماني المذكور أعلاه يعكس رؤية ثقافية تجمع بين النسق الديني والوطني، مما يبين محاولة لتقديم حكومة ذات مرجعية إسلامية بطريقة منفتحة وشمولية. عبر مقاربة النقد الثقافي، يتضح أن هذا الخطاب يشكل مثالا على كيفية توظيف الرموز اللغوية والقيم الثقافية لتعزيز الشرعية السياسية وتحقيق التواصل مع مختلف شرائح المجتمع التي يتكون منها الشعب المغربي.

يقدم الخطاب قدرة على التلاعب الرمزي بالأحداث. الحديث عن قضية الريف بهذه الطريقة يكشف تماهي العثماني مع مطالب الشعب، لكنه في الوقت نفسه يُظهر رغبة في احتواء الأزمة سياسيا دون تقديم حلول عملية محددة.

الهوامش

1. عبد النبي أصطيف، "ما النقد الثقافي ولماذا؟"، مجلة فصول، العدد 99 ربيع 2017، ص 25.
2. المصدر نفسه.
3. أنظر الرابط، https://www.youtube.com/live/2m5Q7GLyIAo?si=fiZkB7I1neMZ0TA4 /تاريخ الزيارة 27/12/2020، الساعة: 22:00
4. هو نشاط معرفي يتناول بالتحليل الظواهر الثقافية كافة، في ضوء العلاقة بينها وبين المجتمع والأيديولوجيا والثقافة. انظر: محمد ابراهيم عبد العال، "منهجية النقد الثقافي بين النظرية والتطبيق"، مجلة فصول، العدد 99 ربيع 2017، ص 283.
5. اديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، 1993، ص 411.
6. عبد الفتاح كيليطو، المقامات والسرد والأنساق الثقافية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، ط2، دار توبقال، الدار البيضاء، 2002، ص 8.
7. إدريس الكنبوري، "الشعبوية... المفهوم والتجليات شرقا وغربا"، مجلة ذوات، العدد 47،2018، ص 14.
8. الطاهر بنكي، الافتراضي والشعبوية، دور الميلتميديا في تصاعد الخطاب الشعبوي، مجلة ذوات، العدد 47، 2018، ص 45.
9. محمد جليد، الخطاب السياسي الشعبوي في المغرب، موقع: https://qantara.de/ar/node/5177، تاريخ الزيارة: 27/12/2020، الساعة: 16:00
10. The Oxford English Dictionary, vol.111, Great Britain, Oxford University Press, 1969. P. 90.
11. يمكن العودة إلى دراسات وأبحاث فصلت في تحديد مفهوم الخطاب، مثل: أحمد جيلالي، الخطاب الاشهاري بالمغرب، استراتيجية التواصل، منشورات القلم المغربي دار القرويين، الدار البيضاء، ط1 ،2017، ص 56، 60.
12. ماريان يورغنسن، لويز فيليبس، تحليل الخطاب، النظرية والمنهج، ترجمة شوقي بوعناني، هيئة البحرين،2019، ص 13.
13. حكيم سلمان السلطاني، القراءة الحداثية للنص القرآني في ضوء تحليل الخطاب، دار كنوز المعرفة، عمان،2018، ص 137.
14. نعيمة سعدية، التحليل السيميائي والخطاب، الأردن، عالم الكتاب الحديث، 2016، ص 4.
15. محمود عكاشة، لغة الخطاب السياسي، دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، مصر، 2005، ص 45.

سيمون بوليفار

القائد الذي حرّر أمريكا اللاتينية وخلّد حلم الوحدة

محمد جمعة توفيق
مترجم وأكاديمي متخصص
في اللغة والثقافة الإسبانية ودول أمريكا اللاتينية

في تاريخ الشعوب، هناك قادة لا تُقاس أدوارهم فقط بما أنجزوه في حياتهم، بل بما خلفوه من إرث حيّ يمتد أثره عبر الزمن ليصبح جزءًا من وجدان الأمم. سيمون بوليفار، المحرر العظيم، هو أحد هؤلاء القادة الذين تجاوزت أعمالهم حدود اللحظة، ليصبح رمزًا خالدًا للحرية والنضال. سطر التاريخ اسمه بحروف من ذهب.

لم يكن مجرد قائد عسكري ينظم الجيوش ويقود المعارك، بل كان تجسيدًا لفكرة الحرية في أبهى صورها. كانت رؤيته أعمق من مجرد تحرير الأراضي؛ كان ينظر إلى الحرية كحق طبيعي للشعوب، وكواجب مقدس يجب النضال من أجله. لم يكن تحرر أمريكا اللاتينية من الاستعمار الإسباني بالنسبة له مجرد حلم بعيد المنال، بل قضية وجودية آمن بها بكل جوارحه، وبذل كل ما يملك لتحقيقها.

في زمن مضطرب، وبين أصوات الأمل وأصداء الاستعمار يولد وينشأ بوليفار وتتشكل رؤيته من خلال تجاربه المبكرة، بين تعاليم أساتذته ونضالات شعبه المستَعْمَر، ورحلاته إلى أوروبا التي عرّفته على أفكار التنوير والثورة الفرنسية؛ مشعلةً شرارة الحلم بداخله، إذ رأى في أوروبا مثالًا للإرادة الإنسانية في مواجهة الطغيان، لكنه أدرك أيضًا أن الحرية الحقيقية لا تُمنح، بل تُنتزع بالنضال والمثابرة.

لم يكن بوليفار نحاتًا للحجارة أو راسمًا للخطوط، لكنه نحت ببطولاته ملامح قارة جديدة.. رسم بأفكاره خارطة جديدة لأمريكا اللاتينية الحرة.. لم يرَ في شعوب القارة مجرد تابعين للاستعمار الإسباني الذي حط على بلادهم أكثر من 300 عام، بل رآهم مواطنين أحرارًا يستحقون أن يعيشوا بكرامة وعدل.

تجاوزت عظمة بوليفار ساحات القتال إلى ميادين الفكر. لقد آمن بأن الحرية لا تكتمل إلا بوحدة الشعوب، ورغم أن حلمه بوحدة أمريكا اللاتينية تحت راية واحدة لم يتحقق، فإن رؤيته بقيت ملهمة، ليست فقط لشعوب أمريكا اللاتينية، بل لكل من يناضل ضد الظلم والاستبداد.

إن شخصية بوليفار ليست مجرد ذكرى تاريخية، بل هي درس متجدد في كل زمان ومكان.. بوليفار، بحياته وإنجازاته، جسّد هذه القيم، وحوّلها إلى واقع يبقى خالدًا في ذاكرة الأجيال على مدار الزمان.

ميلاد بطل

وُلد سيمون بوليفار في الرابع والعشرين من تموز/ يوليو عام 1783 في كاراكاس بفنزويلا لعائلة أرستقراطية. فقد والديه في طفولته، لكنه نشأ تحت رعاية أقاربه، حيث تلقى تعليمًا شاملًا جمع بين الأدب والفلسفة على يد المفكر سيمون رودريغيث، هذا التعليم المبكر زرع فيه شغفًا بالحرية وأفكار التنوير التي ستشكّل لاحقًا أساسًا لحركاته التحررية.

بين عامي 1799 و1805، كانت رحلات سيمون بوليفار إلى أوروبا محورية في تشكيل رؤيته السياسية والفكرية. خلال هذه الفترة، انفتح على الأفكار التنويرية التي كانت تعصف بأوروبا. في باريس، تعرّف على الثورة الفرنسية، التي ألهمته بفكرة الحرية والعدالة الاجتماعية كمبادئ لا غنى عنها. تأثر بشدة بفكر جان جاك روسو حول الإرادة العامة وحقوق الشعوب، وفولتير الذي رسّخ لديه مفهوم تحدي الطغيان والإيمان بالعقل.

أثناء وجوده في إيطاليا، صعد بوليفار إلى جبل مونتسيرات في روما عام 1805، وهناك أقسم قسمًا تاريخيًا يُعد نقطة تحول في حياته: أن يكرّس حياته لتحرير أمريكا اللاتينية من الاستعمار الإسباني. كان هذا القسم أكثر من مجرد وعد شخصي؛ لقد كان التزامًا أبدياً تجاه شعوب قارة بأكملها. ورغم إدراكه لاختلاف الظروف بين أوروبا وأمريكا اللاتينية، إلا أن هذه الأفكار زرعت فيه الحلم الكبير بتحرير القارة وتوحيد شعوبها تحت راية واحدة تسمى الحرية.

لقد استغل بوليفار هذه التجارب لتأسيس رؤية جديدة تدمج بين الفكر الأوروبي والتطلعات التحررية لأمريكا اللاتينية... رؤية ستقوده لاحقًا لقيادة واحدة من أعظم الحركات الثورية في التاريخ.

مجلس كاراكاس العسكري الأعلى وبداية الثورة

مع ضعف الملكية الإسبانية بسبب الحروب النابليونية وسقوط الملك فرديناند السابع في أيدي الفرنسيين عام 1808، وغياب حكومة مركزية قوية، ظهرت الفرصة سانحة للشعوب المستعْمَرة في أمريكا اللاتينية لتأكيد حقوقها والمطالبة بالاستقلال الذاتي. كان عام 1810 نقطة تحول في تاريخ فنزويلا، ففي 19 نيسان| أبريل قامت نخبة كاراكاس من "الكريوليون" - ذوي الأصول الأوروبية المولودين في أمريكا اللاتينية- بعزل الحاكم الإسباني فيسينتي إمباران وتشكيل مجلس كاراكاس العسكري الأعلى الذي أعلن ولاءً شكليًا للملك المخلوع، بينما سعى فعليًا نحو تعزيز الحكم الذاتي والبدء بحركة استقلال تدريجية.

برز سيمون بوليفار خلال هذه الفترة كقائد

شاب مفعم بالحماس الثوري، داعمًا لفكرة الاستقلال الكامل. لعب دورًا أساسيًا في تعبئة الرأي العام عبر خطاباته الملهمة. ولعب دورًا في تحفيز النقاشات حول مستقبل فنزويلا، وكان جزءًا من الحركات السرية التي تناقش التحرر التام من التاج الإسباني، ما مهّد الطريق لتحرير فنزويلا.

هذا الحدث كان البداية الفعلية لمسيرة بوليفار الثورية ولحركة التحرر في فنزويلا، إذ مهّد الطريق للإعلان الرسمي عن الاستقلال عام 1811، ليصبح مجلس كاراكاس العسكري الأعلى أول خطوة في رحلة بوليفار الطويلة نحو الحرية، وتحرير أجزاء واسعة من أمريكا الجنوبية من الاستعمار الإسباني.

بيان قرطاجة ومرسوم الحرب حتى الموت (وحدة وانتقام)

في عام 1812، وبعد سقوط الجمهورية الأولى في فنزويلا تحت ضربات الإسبان، كتب سيمون بوليفار بيان كارتاخينا أثناء وجوده في كولومبيا (مستعمرة غرناطة الجديدة آنذاك). كان هذا البيان بمثابة دعوة قوية إلى الوحدة الإقليمية، حيث ألقى بوليفار الضوء على أهمية التضامن بين الشعوب في أمريكا اللاتينية لمواجهة الخطر الإسباني. تناول البيان أسباب فشل التجربة الأولى في الاستقلال، مشيرًا إلى ضعف القيادة السياسية، وقلة الانضباط العسكري، والانقسامات الداخلية بين سكان فنزويلا. دعا بوليفار إلى تجاوز هذه الأخطاء عبر بناء جيش موحد قوي وتنظيم سياسي يعكس طموحات التحرر والاستقلال. كانت رسالته واضحة: لا يمكن لأي دولة منفردة أن تقاوم السيطرة الإسبانية، لكن بالتضامن الإقليمي يمكن تحقيق التحرر الكامل.

في العام التالي، وخلال حملته العسكرية لتحرير فنزويلا للمرة الثانية، أصدر بوليفار مرسوم "الحرب حتى الموت" في مدينة تروخيّو. كان هذا المرسوم بمثابة إعلان حرب شامل ضد الإسبان المعارضين للاستقلال، حيث منح بوليفار الحرية للمدنيين الأمريكيين اللاتينيين الذين أيدوا الثورة، لكنه توعّد الإسبان بالموت إذا عارضوها.

نص المرسوم بشكل صريح: " إن كنتم إسبانًا ولم تدعموا قضيتنا، فإن مصيركم الموت. أما إن كنتم أمريكيين لاتينيين حتى وإن دعمتم الإسبان في الماضي، فسيُعفى عنكم"(1).

رغم أن المرسوم يُعتبر اليوم خطوة عنيفة، إلا أنه يعكس مدى التحديات التي واجهتها الحركة التحررية. فقد كان بوليفار يدرك أن العدو ليس فقط القوات الإسبانية، بل أيضًا الخونة داخل القارة، لذا لجأ إلى هذه الخطوة لإثارة الرعب بين أعدائه وحشد الدعم بين السكان المحليين.

بيان كارتاخينا ومرسوم الحرب حتى الموت يُظهران تحول بوليفار إلى قائد براغماتي، مستعد لاتخاذ قرارات صعبة لضمان نجاح قضية الاستقلال. الأول كان دعوة للوحدة والعمل الجماعي، والثاني وسيلة لفرض الهيبة والإرادة الثورية. هذه القرارات شكلت أساس الاستراتيجيات التي قادت بوليفار إلى تحرير أجزاء واسعة من أمريكا الجنوبية، رغم التحديات الهائلة.

جمهورية كولومبيا الكبرى: الحلم الكبير لبوليفار

بعد تحقيق الاستقلال في أمريكا الجنوبية، كان سيمون بوليفار مقتنعًا بأن إنشاء أنظمة

جمهورية مركزية قوية هو السبيل الوحيد لضمان استقرار الدول الناشئة، وهو ما كان جزءًا من حلمه الأكبر بتوحيد القارة في كيان واحد يُعرف بـ كولومبيا الكبرى. فبعد المعارك الضارية وتحقيق الانتصارات الحاسمة التي أدت إلى تحرير فنزويلا وكولومبيا في عام 1819، قرر سيمون بوليفار المضي قدمًا لتحقيق حلمه الأكبر، حيث أعلن في السابع عشر من كانون الأول| ديسمبر 1819، تأسيس جمهورية كولومبيا الكبرى، التي ضمت الأراضي الحالية لفنزويلا، كولومبيا، بنما، والإكوادور. كان الهدف الرئيسي لهذا الاتحاد مواجهة التحديات الإقليمية والدولية بصفته كيانًا اقتصاديًا وعسكريًا قويًا يمكنه الصمود أمام القوى الاستعمارية الأوروبية.

لقد أراد بوليفار أن تكون الجمهورية الجديدة نموذجًا للوحدة بين شعوب أمريكا اللاتينية، فقد كانت كولومبيا الكبرى بمثابة درع ضد أي محاولة من القوى الأوروبية لإعادة فرض الهيمنة الاستعمارية، كما أن رؤية بوليفار تضمنت إقامة اقتصاد مشترك قائم على التكامل بين الأقاليم المختلفة.

سنكمل مع حلم كولومبيا الكبرى بعد قليل، لكن دعني عزيزي القارئ في لمحة خاطفة ننتقل إلى لقاء جمع بين سيمون بوليفار وأحد قادة أمريكا اللاتينية كان يعمل على جبهة أخرى في استقلال بلاده المستعمرة حتى أحيانًا يطلق الكثير على الأخير اللقب ذاته "محرر أمريكا اللاتينية.. إنه حامي بيرو الأرجنتيني خوسيه دي سان مارتين.

لقاء غواياكيل: نقطة تحول في التحرر اللاتيني

في 26 تموز/ يوليو 1822، اجتمع اثنان من أعظم قادة التحرير في أمريكا اللاتينية: سيمون بوليفار وخوسيه دي سان مارتين، في مدينة غواياكيل (الإكوادور حاليًا). كان هذا الاجتماع التاريخي يمثل مفترق طرق في مسار التحرير من الاستعمار الإسباني.

رغم الأهمية البالغة لهذا اللقاء، لم تُوثق تفاصيل المحادثات بشكل كامل، مما جعله محاطًا بالتكهنات. يُعتقد أن الاجتماع تناول موضوع تحرير بيرو، آخر معاقل الحكم الإسباني في أمريكا الجنوبية، ومستقبل مدينة غواياكيل التي كانت تطمح إلى الانضمام إلى كولومبيا الكبرى.

بعد اللقاء، أعلن سان مارتين بشكل مفاجئ انسحابه من الحياة السياسية والعسكرية، وترك الساحة لبوليفار ليقود مهمة تحرير بيرو. وهنا نقول إنه من المحتمل أن القرار جاء نتيجة خلافات في الرؤية بين الرجلين، فقد يكون سان مارتين، المعروف بتواضعه السياسي، فضّل ترك القيادة لبوليفار الذي كان أكثر حزمًا واستعدادًا للسيطرة الكاملة على التحركات العسكرية والسياسية، فبعد انسحاب سان مارتين، قاد بوليفار جيوشه إلى بيرو، حيث أسس جيش التحرير، الذي ضم قوات متنوعة من مختلف المناطق المحررة. تمكن من تنظيم جيش قوي ومتماسك، بفضل مهاراته القيادية وقدرته على توحيد الجنود ذوي الخلفيات المختلفة.

وفي 9 كانون الأول| ديسمبر 1824، خاض الجيش معركة أياكوتشو تحت قيادة الجنرال أنطونيو خوسيه دي سوكري، أحد أقرب حلفاء بوليفار. كانت هذه المعركة الحاسمة إيذانًا بنهاية الحكم الإسباني في بيرو، وبالتالي، نهاية الاستعمار الإسباني في معظم أراضي أمريكا الجنوبية، كما أنها

كرّست بوليفار كرمز عالمي للتحرر والإلهام لحركات الاستقلال حول العالم.

دعنا الآن نعود مرة أخرى إلى حلم بوليفار الكبير

اعتمد سيمون بوليفار على مبادئ مستوحاة من الفكر الأوروبي مثل الدستورية والتوازن بين السلطات، لكنه أدرك أن الديمقراطية التقليدية قد لا تلائم مجتمعات أمريكا اللاتينية الممزقة بالنزاعات والفوضى. سعى لتحقيق وحدة إقليمية عبر مشروع كولومبيا الكبرى، لكن التحديات كانت هائلة، بدءًا من مقاومة النخب الإقليمية التي رفضت مركزية السلطة، إلى تنوع المناطق جغرافيًا وثقافيًا، والنزاعات السياسية، والاقتصاد المنهك بسبب الحروب. ورغم إصلاحاته الجذرية، مثل إلغاء العبودية وتوزيع الأراضي على السكان المحليين، واجه بوليفار معارضة شرسة من القوى التقليدية التي رأت في هذه الاصلاحات تهديدًا مباشرًا لنفوذها.

وبحلول عام 1829، بدأت جمهورية كولومبيا الكبرى تنهار وتواجه انشقاقات داخلية. ففي عام 1830 أعلنت فنزويلا والإكوادور انفصالهما عن الاتحاد، مما أدى إلى انهيار كولومبيا الكبرى بشكل نهائي. كان هذا الانهيار بمثابة خيبة أمل عميقة لبوليفار، الذي اعتبر الوحدة الإقليمية الهدف الأسمى لنضاله، معبرًا عن إحباطه في إحدى خطاباته الأخيرة قائلًا عبارته الشهيرة: " لقد حررتكم، لكنني لم أحقق لكم الحرية."

كانت تلك النهاية المأساوية لمسيرته السياسية، وشكّلت جزءًا من أسباب اعتزاله العمل السياسي قبل وفاته. ففي عام 1830، ومع تصاعد الخلافات والانشقاقات داخل كولومبيا الكبرى، أعلن بوليفار استقالته من الرئاسة، وشهد حلمه يتلاشى أمام عينيه.

اليوم، تبقى كولومبيا الكبرى رمزًا لطموح بوليفار في الوحدة الإقليمية، وإرثًا يُذكّر بتحديات تحقيق الأحلام الكبرى في وجه الانقسامات والصراعات، وشاهدًا وإرثًا طويل الأمد على رؤيته الطموحة لقارة موحدة وقوية.

وفاة المحرر الكبير

في نفس اليوم الذي أعلن فيه عن تأسيس حلمه.. السابع عشر من ديسمبر وفي عام 1830، توفي سيمون بوليفار في سانتا مارتا بكولومبيا، منهكًا بالسل وخيبة أمله السياسية بعد أن تلاشى حلمه بوحدة أمريكا اللاتينية. رحل وحيدًا، مستقيلاً من مناصبه، وعازمًا على المنفى، تاركًا في مذكراته كلمات مؤلمة: "حرثتُ في البحر".

وبعد مرور اثني عشر عامًا، تعيد فنزويلا رفاته إلى كاراكاس في مراسم مهيبة، لتضعه في البانثيون الوطني، اعترافًا متأخرًا بعظمته كرمز وطني خالد.

إن قصة نقل رفاته تعكس الاحترام العميق الذي تكنه شعوب أمريكا اللاتينية لإرث بوليفار. فقد أصبح قبره في البانثيون الوطني مزارًا وطنيًا، حيث يتم إحياء ذكراه سنويًا كرمز للتحرر والوحدة. نقل رفاته لم يكن مجرد حدث بروتوكولي، بل كان شهادة على مكانته التاريخية، وإقرارًا بالدور الذي لعبه في تحقيق استقلال القارة.

سيمون بوليفار: رمز خالد للحرية والوحدة والإلهام

رغم وفاته في عزلة وفقر، بقيت ذكرى

سيمون بوليفار نابضة في قلوب شعوب أمريكا اللاتينية، رمزًا للوحدة والمقاومة ضد المستعمر.

تجاوز إرثه إنجازاته العسكرية والسياسية ليشمل شخصيته الإنسانية الغنية، التي ألهمت أجيالًا حول العالم فضلًا عن أدباء أمريكا اللاتينية، فقد قدّم غابرييل غارثيا ماركيز في روايته "الجنرال في متاهته" بُعدًا إنسانيًا جديدًا لبوليفار، يصوره كرجل يواجه خيبة الأمل في تحقيق حلم الوحدة، لكنه يظل رمزًا للحرية والإصرار.

إن سيرة سيمون بوليفار وأفكاره ليست فقط تاريخًا يُروى، بل إرثًا يتجاوز زمنه، إذ أصبحت رمزًا للتحدي والأمل في مواجهة الاستعمار، ودعوة تستمر في إلهام الملايين لتبقى رسالته الخالدة صوتًا يدعو لتحقيق أحلام الشعوب.. ورغم كل التحديات وخيبات الأمل، تظل رؤيته مصدر إلهام للحركات التحررية حول العالم، وتجسيدًا لقيم الحرية والكرامة.. كفاح استثنائي أضاف إلى الإنسانية درسًا في الإصرار والتضحية.

إرثه اليوم هو تذكير بأن القادة العظماء يعيشون أحياء مهما بليت أجسادهم.. أحياء بأفكارهم وأحلامهم التي تتجاوز حدود الزمان والمكان.

الهوامش

1 - مؤسسة فينزويلا انمورتال تمت الاستشارة من خلال موقع المؤسسة في 2024-12-15 في مقال بعنوان "فنزويلا 1813: مرسوم الحرب حتى الموت"
https://venezuelainmortal.com/venezuela-1813-decreto-de-guerra-a-muerte/

أسئلة في جذور الاستبداد ومآلات الديمقراطية

قراءة في كتاب الدكتور فارس حرام

"أرض جاهزة للفاشيين...تقرير عن إعدام من لا يعدم"

جاسم الحلفي

يفتتح الدكتور فارس حرّام كتابه (أرض جاهزة للفاشيين.. تقرير عن إعدام من لا يُعدم) بطرح سلسلة من التساؤلات العميقة التي تنبثق منها أسئلة أكثر عمقا وتشعبا على امتداد صفحات الكتاب، من أبرزها:

• هل كنا على صواب حينما حاكمنا صدام حسين محاكمة جنائية مادية فقط، وتجاهلنا محاكمة القيم التي تبناها نظامه؟

• هل كان تركيزنا على إجراءات الاجتثاث التي استهدفت الرموز والأسماء كافيا، في حين أغفلنا معالجة البيئة والجمهور الحاضن لتلك القيم؟

• والأهم من ذلك، هل كان صدام حسين وحزب البعث وحدهما الممثلون لقيم الاستبداد في مجتمعنا؟

هذه التساؤلات تشكل أرضية لانطلاق مزيد من الأسئلة الأكثر حدة وعمقا، مسلطة الضوء على دور القيم في تشكيل الأحداث السياسية، ليس في العراق فحسب، بل على مستوى التجارب الإنسانية عموما:

• كيف استمر إرث الأنظمة الفاشية التي تم اجتثاثها؟

• كيف يمكن منع تكرار ما حدث بأقصى قدر من الحزم والوعي؟

• كيف نحمي مجتمعا عانى من تجربة فاشية مريرة من ظهور فاشيين جدد قادرين على تدمير الأمة بضربة واحدة؟

غير أن السؤال الأخطر الذي يتكرر بصيغ مختلفة عبر صفحات الكتاب هو: ماذا نفعل إزاء الجمهور الفاشي؟

هذا السؤال يضعنا أمام تحدٍ فكري ومجتمعي مفصلي: كيف نواجه خطر عودة الفكر الفاشي؟ أو بالأحرى، ماذا كان علينا أن نفعله لضمان عدم تكرار تلك المآسي؟

يدفعنا فارس حرّام من خلال هذه الأسئلة، للتفكير العميق في مسؤوليتنا الجماعية في مواجهة الخطر الداهم. يحذرنا من احتمال عودة الفاشية بشكلها الجديد، التي قد تتشكل

من سياسيين، مثقفين، أكاديميين، وجمهور يحملون إرثا ثقافيا ونفسيا فاشيا، معبأين بشعور النقص وتعويضه بالاندفاع نحو السلطة بأي وسيلة، مع تعلق مَرَضي بالكهف، كما وصفه أفلاطون، وجهتهم القتل، والعنف، والخراب.

يتناول الكتاب البنى الثقافية والاجتماعية التي تُعيد إنتاج الفاشية، مثل استغلال الشعور الجمعي بالخوف، والتلاعب بالهوية الوطنية، واستثمار الأزمات الاقتصادية والاجتماعية لتعزيز النزعات السلطوية. كما يوضح كيف تستخدم الفاشية أدوات القمع المباشر وغير المباشر لفرض هيمنتها، من خلال تشويه الوعي العام، واحتواء الطبقات الوسطى، وتحويل الفضاء السياسي إلى مساحة تفتقر إلى التنوع الفكري.

يناقش الكتاب، بخلفية تاريخية وثقافية دقيقة، صعود النزعات الفاشية في العراق، محذرا من استمرار قيمها التدميرية رغم سقوط نظام صدام حسين. ويربط هذا الاستمرار بغياب التصدي الفكري والثقافي لإرث الفاشية، مشيرا إلى أن الفراغ السياسي والانهيار المؤسسي بعد الاحتلال الأميركي عام 2003 وفّرا بيئة مواتية لتصاعد قوى جديدة أعادت إنتاج الهيمنة باستخدام العنف والشعبوية.

باختياره عنوانا صادما لكتابه، أراد حرّام أن يدق ناقوس الخطر ويقول لنا انتبهوا فان: (الأرض جاهزة لإنتاج الفاشيين) هذا العنوان بحد ذاته تحذير صريح من خطر يهدد الجميع، وهو نداء لتنبيه القارئ إلى أهمية التصدي لهذا الواقع قبل فوات الأوان. أما الإشارة إلى (إعدام من لا يُعدم)، فهي دعوة للتأمل في طبيعة العدالة التي نطبقها وأبعادها الأخلاقية والقيمية، حيث لا تقتصر القضية على الأشخاص، بل تمتد إلى القيم التي تنتجهم وتعيد إنتاجهم، إذ إنَّ عدم تعريض القيم التي يتبناها المستبد للمناقشة والتفنيد (يعني بقاءها فعّالة بعد إعدامه، وتعني في الحقيقة أنّه لم يُعدم)[1]. وبهذا الشكل، يصبح الكتاب وثيقة تحمل القارئ عبء إدراك التحديات وضرورة التحرك الحاسم لمواجهتها.

وبهدف وضع القارئ بما يبحثه الكتاب، حرصت على تقديم إيجاز مكثف عن أبرز أفكار الكتاب، مع التأكيد على أن هذه النقاط لا تُغني عن ضرورة قراءته كاملا، لما يحمله من تفاصيل وتحليلات عميقة تستحق الاطلاع.

وقد قمت بترتيب الأفكار على النحو الآتي:

1. استمرار الفاشية بعد 2003: يوضح الكتاب كيف استمرت النزعات الفاشية في العراق من خلال جماعات تستخدم العنف والشعبوية لتعزيز نفوذها، حيث وفرت الاوضاع فرصة لتصاعد قوى جديدة أعادت إنتاج الهيمنة باستخدام أدوات العنف والشعبوية. الشعبوية في هذا السياق هي وسيلة لتزييف الوعي الجماهيري، حيث يُصور الآخر عدوا بعد أن يصنفه على أساس عرقي أو طائفي، سيما وان (الفاشية تعتمد على أساليب الشعبوية لإعادة إنتاج الهيمنة الأيديولوجية في لحظات الأزمات. إنها تُعيد صياغة المفاهيم الثقافية والاجتماعية لتبرير الاستبداد والعنف كوسيلة للحفاظ على السيطرة الطبقية)[2] وعلى الرغم من سقوط النظام الدكتاتوري، فقد برز عجز النظام الجديد، الذي يبدو ديمقراطيا ظاهريا، عن تجاوز قيم الاستبداد، بسبب هيمنة الأحزاب الطائفية والفكر الشمولي، ما زاد من اغتراب العراقيين وإحباطهم.

2. قصور المحاكمات بعد سقوط النظام: اقتصرت محاكمة صدام حسين على رمزية سطحية ولم تعالج جذور الفاشية الثقافية

والأيديولوجية التي دعمت نظامه. كما يشير الكتاب إلى قصور إجراءات المحكمة الجنائية العراقية العليا، التي تشكّلت بعد 2003، لأنها ركزت على قضايا محددة، مثل الدجيل والأنفال، بينما أهملت القضايا الكبرى المتعلقة بتأثير البعث على الثقافة والمجتمع.

3. الفاشية كظاهرة متجددة: يشير الكتاب إلى قدرة الفاشية على التجدد وظهور قيادات جديدة خلال الأزمات السياسية والاجتماعية، لترسيخ قيم الشمولية والولاء الأعمى. (تتطور الفاشية وتتخذ في كل بلد اشكالاً مختلفة، تبعا للظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية)[3].

4. الحاجة إلى محاكم ثقافية للاستبداد: يدعو المؤلف إلى إنشاء "محاكم ثقافية للاستبداد" لتفكيك (إرث القيم التي أنتجت الفاشيّة والشمولية فضلاً عن التي نتجت عنها، وتقويض أكبر قدر ممكن من أسسها الثقافية[4].

5. تصاعد الفاشية عالميا: يربط الكتاب بين الإحباط من الأنظمة الديمقراطية التي أخفقت في مواجهة الأزمات، وصعود الفاشية عالميا، مما يتطلب دورا حاسما للمثقفين والسياسيّين الوطنيّين في التصدي لهذه التهديدات.

6. رمزية الغضب الشعبي: يشير الكتاب إلى شخصيات رمزية مثل "أبو تحسين"، التي جسدت غضب العراقيين ضد إرث الديكتاتورية، كجزء من عملية إسقاط النظام.

7. الهرم الفاشيّ للقيم: تناول الكتاب كيف تكرّس الفاشيّة الولاء عبر هرم قيمي يكون في أعلاه القائد الفاشيّ، ويضرب لذلك مثلاً بمنظومة الولاء الهرمية في حزب البعث، ويراها شبيهة بتلك الموجودة في النظام النازي في ألمانيا.

8. الفصل بين القضاء والتاريخ: يميز المؤلف بين دور القاضي، الذي يصدر الأحكام بناءً على الأدلة، ودور المؤرخ، الذي يركز على فهم السياقات والخلفيات المؤثرة في الأحداث.

9. أهمية وعي المواطن: يؤكد الكتاب على دور المواطن كشريك أساسي في تحقيق العدالة الانتقالية، من خلال وعيه وتعزيز ثقافة حقوق الإنسان لمواجهة الاستبداد ومنع عودة الفاشية.

10. النقاش الثقافي كحل: يدعو الكتاب إلى معالجة القيم الداعمة للاستبداد عبر نقاش ثقافي عميق يتجاوز الإجراءات الجنائية التقليدية.

11. تفنيد الفكر بدل الإعدام: يشدد المؤلف على أهمية "المحاكمة الثقافية" لتفنيد الفكر الاستبدادي ومنع تكرار إنتاجه، بدلاً من الاكتفاء بإعدام القادة.

12. استهداف الجمهور الفاشي: يحذّر الكتاب من تأثير القادة المستبدين على "الجمهور الفاشي"، مشيرا إلى تجربة ألمانيا التي يراها "فاشلة" في مواجهة النازية الجديدة.

13. الفصل بين القضاء والثقافة: يبرز أهمية معالجة الفكر الفاشي والثقافي بشكل مستقل عن المحاكمات الجنائية لضمان عدم عودة الاستبداد.

يقدم الكتاب أفكاره بالاستناد إلى مقارنة بمستويات مختلفة بين النظام البعثي في العراق والنظام النازي في ألمانيا، بوصفهما أنموذجين متماثلين للفاشيّة، كما يقارن المرحلة التي تلت سقوط كلّ منهما، ويرى أنّ النظامين الجديدين في البلدين لم ينجحا في مواجهتها، كما ظهرت في كلّ منهما فاشية جديدة.

بهذا التركيز، يعرض الكاتب رؤية متكاملة لمواجهة الفاشية، ليس فقط كمنظومة حكم، ولكن كإرث ثقافي واجتماعي يتطلب حلولا أعمق من مجرد التغيير السياسي.

الفاشية الجديدة: خشية واقعية أم هواجس سياسية؟

بالنظر إلى النقاط الواردة أعلاه، يمكننا الاستنتاج أن الخشية من عودة الفاشية ليست مجرد هواجس عابرة، بل هي انعكاس لواقع سياسي واجتماعي ملتبس يهيئ بيئة مواتية لإعادة إنتاج الاستبداد. هذه الخشية تستند إلى مجموعة من المؤشرات الصارخة التي تُظهر استمرارية الأنماط السلطوية في عراق ما بعد 2003، على الرغم من سقوط النظام البعثي.

1. تجدد عسكرة النظام: التغيير الذي أعقب سقوط النظام لم يمس الجوهر الطبقي للنظام السياسي، التغيير السياسي الذي يكتفي بتغيير شكل النظام، (دون تفكيك الأيديولوجيا السائدة وعلاقات الإنتاج القائمة محكومة بأن تنتج استبدادا جديدا، يتكيف مع الظروف القائمة، ولكنه يظل أداة للهيمنة الطبقية) [5].

2. فالبُنى السياسية، الاقتصادية، والاجتماعية باتت مهيأة لاستمرار أنماط الاستبداد. قوى جديدة، مسلحة ومدعومة سياسيا وعسكريا، أصبحت جزءا من السلطة وشريكا في الهيمنة الاقتصادية، ما أدى إلى عسكرة النظام وتحويله إلى سلطة طبقية معقدة.

3. طغمة الحكم الجديدة: تتشكل هذه الطغمة بين سياسيين صعدوا عبر المحاصصة الطائفية والإثنية ونخب من تجار الصفقات وكبار الفاسدين. يشكل هؤلاء طبقة أوليغارشية مترفة تهتم بمصالحها الضيقة وتستخدم أدوات مزدوجة للهيمنة. الهيمنة المسلحة، واستخدام القوة لقمع الاحتجاجات المطالبة بالعدالة الاجتماعية، مثال على ذلك دورها كـ"طرف ثالث" ابان انتفاضة تشرين 2019، وكذلك الديمقراطية الشكلية لإعادة إنتاج نفسها عبر انتخابات مفرغة من مضمونها.

4. الفشل المؤسساتي وغياب المشروع الوطني: تركت الأوضاع الأمنية والاقتصادية المضطربة فراغا كبيرا استغلته قوى استبدادية لتعزيز نفوذها، مما يعيد إلى الأذهان تجارب أنظمة فاشية أخرى نمت في ظل فوضى اجتماعية وغياب بدائل ديمقراطية.

5. التجاوزات على حرية التعبير والتضييق على حركات الاحتجاج تمثل أبرز ملامح النزعة السلطوية المتجددة في العراق. تُستخدم أدوات قمع متعددة، تشمل الملاحقات القانونية والترهيب الإعلامي والعنف المفرط ضد المتظاهرين، لقمع أي صوت يطالب بالتغيير. هذه السياسات لا تستهدف فقط إخماد الاحتجاجات الآنية، بل تهدف أيضا إلى خلق حالة من الخوف المستمر تمنع المواطنين من المطالبة بحقوقهم.

عند تحليل هذه المؤشرات، يتضح أن الفشل في معالجة الجذور الطبقية والثقافية للاستبداد، إلى جانب العجز عن بناء مشروع وطني حقيقي، قد أسهم في ظهور قوى جديدة تعيد تدوير الفاشية بأشكال مختلفة، من عسكرة السلطة، إلى ترسيخ المحاصصة الطائفية، وصولاً إلى الانتخابات الشكلية.

تثير المسارات التي سلكها النظام السياسي الجديد قلقا مشروعا حول إمكانية عودة الفاشية بشكل أو بآخر. نرى ان الخشية من تجدد الفاشية كتهديد مستمر في المشهد العراقي، والخوف من عودتها ليس وليد مبالغة، بل انعكاس لواقع سياسي معقد يفتقر إلى معالجات جذرية، فإذا كانت الفاشية القديمة قد انتهت بسقوط النظام البعثي، فإن المؤشرات أعلاه تلمح إلى ظهور نسخ جديدة بنفس القيم، ولكن بأدوات مغايرة، (إذ بلغ فقدان الثقة بالنظام السياسيّ حديث الناس في كلّ مكان، وأصبح

القمع الدمويّ للاحتجاجات علامة انحلال في أخلاقيّة النظام. وتحوّلت الانتخابات إلى تثبيت روتيني لقوى السلطة في الحكم، وسط ضعف عام في المشاركة. حتى أخذ الناس - بدلاً من الدفاع عن نظامهم الديمقراطي الوليد - يطلبون ظهور مستبدّ قويّ يشفي بلادهم من الأحزاب المتصارعة)[6]. وبالنتيجة: تبرز هذه المعطيات السياسية والاجتماعية الراهنة خشية مشروعة من عودة الاستبداد تحت مسميات وأشكال مختلفة.

المحاكمات خطوة سطحية لا تمس جوهر الفاشية

يناقش الكاتب الفرق الإجرائيّ بين القضاء والثقافة في محاكمات الأنظمة الفاشية. القضاء يعالج الأفعال الجنائية، لكنه لا يتناول الجذور الثقافية التي تدعم الاستبداد. المحاكم الثقافية، جزء من ثورة ثقافية تهدف إلى زعزعة الهيمنة الأيديولوجية للنخب الحاكمة، كما تحدث عنها أنطونيو غرامشي.

إذ لا يتحقق إنهاء الفاشية بمحاكمة رموز النظام فقط، بل يتطلب معالجة جذرية تشمل تفكيك البُنى الاقتصادية والثقافية التي دعمت السيطرة الطبقية والاستبداد. الهدف الأسمى يجب أن يكون بناء مجتمع جديد على أسس ديمقراطية حقيقية تعزز قيم الحرية والعدالة وتضمن تفكيك القيم الاستبدادية.

المحاكمات التي جرت ركزت على حادثة الدجيل وحملة الأنفال، وتجنبت قضايا أخرى ذات بعد إقليمي كغزو الكويت والحرب العراقية - الإيرانية، التي تحمل أبعادا سياسية واقتصادية عميقة. هذا التجنب يعكس خوفا من الخوض في جذور المشكلات وتأثيراتها الإقليمية والدولية.

يرى الكاتب أن إعدام صدام حسين عام 2006 كان خطوة انتقامية رمزية تهدف إلى تهدئة الرأي العام، لكنها لم تعالج الأزمات العميقة التي خلّفها النظام الشمولي. العدالة الانتقالية يجب أن تكون أداة لإصلاح البُنى الثقافية والاقتصادية التي كرّست الاستبداد. لقد افتقرت المحاكمات إلى مواجهة القيم الاستبدادية والأيديولوجيا التي زرعها حزب البعث منذ انقلاب 1968، حيث حول العراق إلى دولة شمولية سيطرت على كل مجالات الحياة، بما في ذلك التعليم والإعلام والثقافة.

المحاكمات الجنائية اقتصرت على الأفراد ولم تمس التأثيرات البنيوية للنظام الشموليّ، مثل السيطرة على الإعلام والتعليم والمجال العام. هذه العدالة الشكلية عملت ضمن إطار الهيمنة الطبقية السائدة، مما جعلها عاجزة عن تحقيق إصلاح جذري. القضاء على إرث نظام استبدادي يتطلب تفكيك العلاقات الطبقية والبُنى الاقتصادية والاجتماعية التي دعمت النظام.

تعد "المحاكمات الثقافية" التي يدعو إليها الكاتب، جزءاً من ثورة أعمق تهدف إلى زعزعة الهيمنة الأيديولوجية للنخب الحاكمة. فهذا النوع من المحاكمات يسعى لتحطيم أدوات الهيمنة مثل التعليم والقانون، وتحويلها إلى أدوات تحررية تسهم في بناء مجتمع جديد خالٍ من إرث الاستبداد.

المحاكمة الثقافية، هي فضاء مفتوح يهدف إلى تفنيد الفكر الاستبدادي وكشف خوائه، بدلا من الاقتصار على إعدام القادة. أن تفكيك الأيديولوجيا أهم من معاقبة رموزها، حيث تستهدف هذه المحاكم "الجمهور الفاشي" الذي يظل متأثرا بقيم الاستبداد ويعيد إنتاجها. (القضاء على نظام استبدادي دون تفكيك

أجهزته الأيديولوجية يترك القيم والمفاهيم التي تدعمه قائمة، مما يؤدي إلى إعادة إنتاج نفس العلاقات القمعية في أشكال أخرى[7]. المحاكمات الجنائية للقيادات الاستبدادية، عندما تقتصر على الرمزية والانتقام، تفشل في تحقيق إصلاح جذري. العدالة الحقيقية تتطلب معالجة شاملة للبُنى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي كرّست النظام الشمولي، وإعادة تشكيل المجتمع على أسس تضمن التحرر الفعلي من إرث الاستبداد. لتحقيق ذلك، لا بد من ثورة ثقافية تُعيد تعريف القيم والأدوات التي كانت أدوات للهيمنة، لتصبح أدوات للتحرر والبناء. إن الاقتصار على المحاكمات الجنائية دون تحليل ثقافي يؤدي إلى نتائج شكلية، كما حدث بعد سقوط النازية في ألمانيا. يعكس فشل النظام الجديد في تفكيك البُنى الاقتصادية والاجتماعية التي أنتجت الفاشية، مما سمح بإعادة إنتاجها في شكل نازية جديدة.

إن المحاكمات الجنائية وحدها لا تُعالج جذور الفاشية. القضاء على الاستبداد يتطلب معالجة شاملة تشمل الأيديولوجيا والثقافة التي تُعيد إنتاج الهيمنة الطبقية. المحاكم الثقافية يمكن أن تكون وسيلة فعالة لتفكيك القيم الاستبدادية، لكنها تحتاج إلى تكامل مع تغييرات بنيوية في النظام الطبقي.

تكامل الثورة الثقافية مع التحول السياسي والاقتصادي

رسّخ النظام السابق قيما أيديولوجية شمولية تعتمد على الولاء المطلق لرأس النظام والخضوع له. تكرس الفاشية الولاء المطلق للقائد، الذي يُصور كمنقذ أو قائد تاريخي خارق، (بحيث يتم تصوير القائد كمنقذ، الفاشية تأله "القائد التاريخي" الذي تفوق قدراته حتى أعظم عباقرة البشرية)[8]. هذا الولاء يُستخدم لتزييف الوعي الطبقي، حيث يُخفي الصراع الطبقي الحقيقي ويعيد تشكيل تحالفات هدفها ترسخ النظام الطبقي القائم.

يشير الكاتب إلى أن النظام البعثي في العراق صاغ "هرما قيميا" يضع صدام حسين على قمته كقائد أوحد، مما رسّخ قيم الولاء المطلق للقائد وحوّلها إلى جزء لا يتجزأ من حياة العراقيين. هذا النموذج، كما يوضح، يشابه الأنظمة الفاشية الأوروبية، مثل النازية، التي اعتمدت على القمع والدعاية لتعزيز الولاء الأعمى للقيادة وإخفاء التناقضات الطبقية. أن القضاء على نظام استبدادي دون تفكيك أجهزته الأيديولوجية يترك القيم والمفاهيم الداعمة للاستبداد قائمة، مما يؤدي إلى إعادة إنتاج نفس العلاقات القمعية بأشكال مختلفة. الأنظمة الفاشية ليست مجرد أنظمة استبدادية، بل أدوات للحفاظ على السيطرة الطبقية، خصوصا في أوقات الأزمات. (إن الهيمنة لا تُمارس فقط بالقوة، بل عبر الهيمنة الثقافية التي تُعيد إنتاج النظام الطبقي في العقول قبل المؤسسات)[9]. تعمل هذه الأنظمة على خلق "وعي زائف" يصرف الجماهير عن التناقضات الطبقية الحقيقية، ويوجه ولاءهم نحو القائد باعتباره المنقذ.

اما (الأجهزة الأيديولوجية للدولة)، كما يسميها لوي ألتوسير، مثل التعليم والإعلام والثقافة، عملت على ترسيخ هذا الولاء المطلق، ما جعل القمع يبدو شرعيا لضمان "وحدة" المجتمع. هذه الآليات استخدمت لتحويل الأفراد إلى أدوات طيّعة تخدم أهداف النظام.

الثورة الثقافية لا يمكن أن تُحقق أهدافها دون تكاملها مع التحولات السياسية والاقتصادية. تفكيك الهيمنة الأيديولوجية يتطلب إعادة

بناء وعي الجماهير، وهو شرط أساسي لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية. في ظل فشل الأنظمة الانتخابية وتراجع الثقة بقدرة النظام على تحقيق العدالة، يزداد الإحباط الجماهيري، ما يخلق فراغا تستغله القوى الفاشية لتقديم وعود زائفة وسرديات مبسطة للأزمات. أما النخب الثقافية والأكاديمية فأنها تلعب دورا حاسما في تفكيك القيم الأيديولوجية التي تعزز الفاشية.

الفاشية في السياق الرأسمالي

يقول إريك هوبسباوم، (الفاشية ليست انحرافا عن النظام الرأسمالي، بل هي أداة تُستخدم لإعادة ترتيب النظام الطبقي والحفاظ على السيطرة في لحظات الأزمات الحادة)[10]. تتخذ الفاشية أشكالا مختلفة في كل بلد، متأثرة بالظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية. في أوقات الأزمات، تُستخدم الفاشية لتزييف الوعي الطبقي وتوجيه الغضب الجماهيري بعيدا عن التناقضات الحقيقية بين الطبقات.

الفاشية هي رد فعل عنيف. تعتمد على خلق تحالفات بين النخب والجماهير عبر تزييف الوعي الطبقي، مستبدلة الصراع الحقيقي بشعارات وهمية تدعم الهيمنة الطبقية وتحافظ على استقرار النظام القائم. وهي أداة سياسية تُستخدم في لحظات الأزمات لإعادة ترتيب الهيمنة الطبقية، معتمدة على استغلال التوترات الاجتماعية والاقتصادية وتزييف الوعي الجماهيري لصالح النخب الحاكمة، مما يجعلها آلية مستمرة للنظام الرأسمالي في أوقات الاضطراب.

الفاشية في القرن العشرين كانت نتاجا للأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وهي نفس الظروف التي يمكن أن تُعيد إحياءها في مجتمعات أخرى تعاني من نفس التناقضات. بالتالي هي نتيجة مباشرة لأزمات النظام الطبقي، حيث تُستخدم كأداة لإعادة إنتاج الهيمنة الطبقية عبر القمع والشمولية. تجدد الفاشية في المجتمعات التي تعاني من اضطرابات سياسية أو اقتصادية يشير إلى فشل تلك المجتمعات في معالجة التناقضات البنيوية في النظام الرأسمالي. يكمن في تفكيك هذه التناقضات وإعادة صياغة النظام الاجتماعي والاقتصادي بما يخدم الطبقة العاملة.

الفاشية ليست مجرد سياسات أو أفراد، بل هي جزء من البنية الفوقية التي تعكس تناقضات البنية التحتية، أي الاقتصاد وعلاقات الإنتاج. تعمل البنية الفوقية (الثقافة، الدين، القانون) على تبرير العلاقات الطبقية، حيث لا تُمارس الهيمنة بالقوة فقط، بل عبر الهيمنة الثقافية التي تُعيد إنتاج النظام الطبقي في العقول قبل المؤسسات. الفاشية ليست مجرد نظام سياسي استبدادي، بل هي نتاج تاريخي للصراع الطبقي وتناقضات النظام الرأسمالي في سياق محدد. إذا كانت الفاشية التقليدية قد نشأت في أوروبا نتيجة أزمات اقتصادية واجتماعية، فإن عودتها في العراق تشير إلى توافر ظروف مشابهة من انهيار بنيوي في النظام الاجتماعي والسياسي.

إسقاط الرموز الديكتاتورية

مشاهد إسقاط التماثيل تمثل لحظات رمزية للتحرر الشعبي، لكنها تظل غير كافية إذا لم تُعالج الجذور الاقتصادية والاجتماعية الداعمة لهذه الهيمنة. شخصية (أبو تحسين)، التي استعان بها الكاتب في العبارات الاولى من الفصل الاول، ترمز إلى الغضب الجماهيري

ضد رموز النظام، وتجسد وعيا طبقيا مبدئيا، لكنه قد يظل وعيا زائفا إذا لم يتحول إلى حركة ثورية تُعيد صياغة العلاقات الطبقية. إسقاط الرموز يمكن اعتباره بداية لتفكيك الهيمنة الأيديولوجية، ولكنه يتطلب معالجة أعمق للقيم والمفاهيم التي عززت الديكتاتورية، مثل الولاء الأعمى والتبعية. وهذا ما أشار إليه الكاتب بالفعل في ختام الفصل نفسه، إذ يقول (التاريخ يعلّمنا أنّ زمن ما بعد الكارثة ليس آمناً، فقد تنقلب الغايات بشكل معاكس إذا ارتكب أحدهم خطأً ما. والعامل المسيطر في هذا كلّه: تغلُّب الانتقام على التفكير بحلول أعمق)[11].

تفكيك الفاشية والاستبداد لا يتحقق بإسقاط الرموز فقط، بل يتطلب ثورة شاملة تعيد صياغة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وتفكك أجهزة الدولة التي تُكرس السيطرة الطبقية، ما يضمن تحررا حقيقيا مستداما. إسقاط رموز الديكتاتورية، كتماثيل وصور صدام حسين، يمثل بداية للتحرر لكنه يظل خطوة رمزية ما لم يتبعها إصلاح جذري للبُنى الاقتصادية والاجتماعية. التحرر الحقيقي يتطلب وعيا طبقيًا يُمكّن الجماهير من مواجهة الأسس التي دعمت النظام الاستبدادي وإعادة بناء المجتمع على أسس العدالة الاجتماعية والمساواة.

يبرز الكاتب خطأ النظام العراقي الجديد بعد 2003 في الاكتفاء بإعدام رموز النظام السابق دون مواجهة الأفكار التي دعمتهم. يقارن ذلك بتجربة ألمانيا بعد سقوط النازية، حيث أدى غياب محاكمة الفكر النازي إلى ظهور النازية الجديدة.

وقد كان الفصل الأخير من الكتاب، الموسوم "أين هم الفاشيّون الجدد؟" بمثابة قرع جرس الإنذار للجميع، إذ بسط فيه الكاتب التناقضات البنيوية النظام السياسي الجديد في العراق، من جهة التعارض القائم حتى الآن، بين نص الدستور من جهة، والتشريعات المعمول بها في المحاكم حالياً، العائدة الى حقبة النظام الفاشيّ، كما يبرز الكاتب في هذا الفصل بعض عناصر التركيبة الاجتماعية والثقافية الحالية للواقع العراقي، تلك التي تجعله "أرضاً جاهزة للفاشيّين"، ويجملها في ثلاثة عناصر: فرض التقديس الذي تمارسه السلطات السياسية والدينية، والروح القبلية، والسلوك الاستبدادي اليوميّ للمجتمع نفسه.

استنتاجات

تتيح لنا الدراسة التي قدمها الدكتور فارس حرّام في كتابه "أرض جاهزة للفاشيين" استخلاص عدد من الاستنتاجات التي تفيد القوى الديمقراطية في نضالها قبل استحكام الفاشية الجديدة وتعزيز تمترسها داخل النظام السياسي.

1. القضاء على الفاشية يتطلب معالجة الجذور الاقتصادية، الاجتماعية، والثقافية التي تُنتجها، وليس الاكتفاء بالمحاكمات الجنائية. الفاشية ليست ظاهرة معزولة، بل هي نتاج للبُنى الطبقية والأزمات البنيوية التي تستغلها الطبقة الحاكمة لضمان السيطرة في أوقات الاضطراب. هذه الحقيقة تتطلب تكامل المحاكمات الجنائية مع محاكمات ثقافية تستهدف تفكيك الفكر الاستبدادي وإعادة بناء الوعي الجماهيري على أسس عادلة ومستدامة.

2. بعد سقوط النظام البعثي في 2003، بقيت البُنى الاقتصادية والاجتماعية التي عززت الاستبداد قائمة. الفشل في تفكيك

هذه البُنى يتيح المجال لظهور فاشية جديدة بأشكال مختلفة. علاقات الإنتاج التي تُكرّس الاستغلال ما زالت حاضرة، مما يُبقي الفاشية كامنة وقادرة على الظهور مجددا عند توافر الظروف المواتية.

3. الفاشية الجديدة ليست مجرد عودة لشكل النظام البعثي، بل هي تعبير عن أزمات بنيوية متجددة. هذه الأزمات، بما فيها التفاوت الطبقي والاضطرابات السياسية والاقتصادية، تُشكّل الأرضية المناسبة لنمو الفكر الاستبدادي.

4. من أهم مظاهر الفاشية هو وجود ما يُطلق عليه "الجمهور الفاشي"، وهو شريحة واسعة من المجتمع تتبنى الفكر الاستبدادي نتيجة "وعي زائف" خلقته الطبقة الحاكمة عبر أدواتها الأيديولوجية، مثل التعليم والإعلام. هذا الجمهور يُعيد إنتاج الفاشية من خلال تأييده لخطاب القوة والخضوع للإرادة الاستبدادية.

5. تفكيك "الوعي الزائف" يتطلب حوارا ثقافيا واسع النطاق يُعيد صياغة القيم الجماعية على أسس الحرية والعدالة الاجتماعية. هذا الحوار يجب أن يكون جريئا وشاملا، يعيد النظر في الروايات التاريخية والمفاهيم الثقافية التي تدعم الاستبداد.

6. عودة الفاشية بشكل جديد تنبع من الفشل في معالجة جذورها الاقتصادية والاجتماعية. إذا استمرت نفس العلاقات التي تُكرّس الفقر والتفاوت الطبقي، فإن الفاشية ستبقى خطرا قائما، تتحين الظروف للظهور من جديد.

7. الفاشية كظاهرة سياسية يمكن ان تتجدد: حيث انها انعكاس لصراعات وتناقضات طبقية متجذرة، تتجدد عند توافر ظروف اجتماعية واقتصادية ملائمة، لا سيما في أوقات الأزمات الحادة التي تهدد الاستقرار الاجتماعي والسياسي.

8. تُستخدم الفاشية كأداة تلجأ إليها النخب الحاكمة أو الطامحة للحفاظ على النظام الطبقي القائم، معتمدة على إعادة ترتيب الهيمنة الطبقية باستخدام أدوات جديدة.

9. النزعات الفاشية في العراق ما بعد 2003 ليست ظاهرة منفصلة عن السياق التاريخي الذي سبقها. يمكن النظر لها كأداة تُستخدم في أوقات الأزمات العميقة لإعادة إنتاج الهيمنة الطبقية.

10. في العراق، أدى سقوط النظام البعثي إلى انهيار بنية الدولة المركزية، لكن غياب البديل الديمقراطي الحقيقي أدى إلى ظهور قوى جديدة استغلت الفراغ السياسي والاجتماعي.

11. أن صعود الفاشية في العراق لا يمكن فهمه فقط من خلال التحليل السياسي للنظام القائم، بل عبر تفكيك تحالفاته وآليات عمله التي تجمع بين الهيمنة المسلحة والانتخابات الشكلية.

12. أي مشروع لبناء نظام ديمقراطي في العراق يجب أن يتجاوز الأطر السطحية للإصلاح، ويتوجب عليه تبنى تغيير البُنى العميقة التي تُعيد إنتاج الاستبداد. إن الفشل في تحقيق عدالة اجتماعية شاملة سيبقي النظام العراقي في خطر الوقوع في قبضة استبداد جديد، لا يقل خطورة عن الفاشية السابقة.

13. مواجهة الفاشية الجديدة ليست مجرد قضية سياسية، بل هي تحدٍ ثقافي واجتماعي شامل. القضاء عليها يتطلب مشروعا متكاملا يربط بين الإصلاحات الاقتصادية، العدالة الاجتماعية، والتفكيك الثقافي للوعي الزائف. هذا المشروع هو الضامن الحقيقي لبناء عراق خالٍ من الفاشية والاستبداد.

من خلال ما تقدم، يمكن للقوى الديمقراطية

استيعاب هذه الاستنتاجات كأدوات فعّالة لمواجهة الفاشية عبر:

• التوعية المجتمعية: نشر الوعي بمخاطر الفاشية وتعزيز قيم المواطنة والديمقراطية التي تقف على النقيض من الفكر الاستبدادي.

• إحياء الحراك الطبقي: التركيز على توعية الطبقات المسحوقة بأسباب معاناتها الحقيقية، وربط هذه المعاناة بالنظام السياسي القائم الذي يعزز الانقسام الطبقي.

• مواجهة البنية الثقافية للفاشية: دعم الأدب والفن والثقافة النقدية التي تسعى إلى فضح التلاعب الفاشي بالقيم الوطنية والاجتماعية.

• تعزيز التحالفات الديمقراطية: بناء شبكات وتحالفات بين القوى المعارضة للفاشية، على أن تكون هذه التحالفات مستندة إلى برامج واضحة تدافع عن حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية.

• أن مواجهة الفاشية لا تتطلب فقط كشف أدواتها وأساليبها، بل أيضا بناء مشروع ديمقراطي جذري قادر على مواجهة استبدادها وتحطيم بنيتها الاقتصادية والسياسية.

الهوامش :

1 - فارس حرّام، أرض جاهزة للفاشيّين، دار نابو، بغداد، 2023، ص42.
2 - أنطونيو غرامشي، دفاتر السجن، ترجمة، محمد زكريا، دار التنوير، القاهرة، 2015، ص 231.
3 - جورجي ديمتروف، الجبهة الوطنية الموحدة، دار الطليعة، بيروت، ص44
4 - حرام، ص134.
5 - كارل ماركس، الثامن عشر من برومير لويس بونابرت، ص 63.
6 - حرام، ص176.
7 - لوي ألتوسير، الأيديولوجيا وأجهزة الدولة الأيديولوجية، دار الفارابي، بيروت، 2006، ص 112.
8 - كاظم حبيب، الفاشية التابعة في العراق، مؤسسة حمدي للطباعة والنشر، السليمانية، ص284.
9 - غرامشي، ص 182.
10 - هوبسباوم إريك، عصر التطرفات، ترجمة فايز الصياغ، بيروت، دار المدى، 2001، ص 152.
11 - حرام، ص20.

نصوص قديمة

الصهيونية الأميركية*

إدوارد سعيد

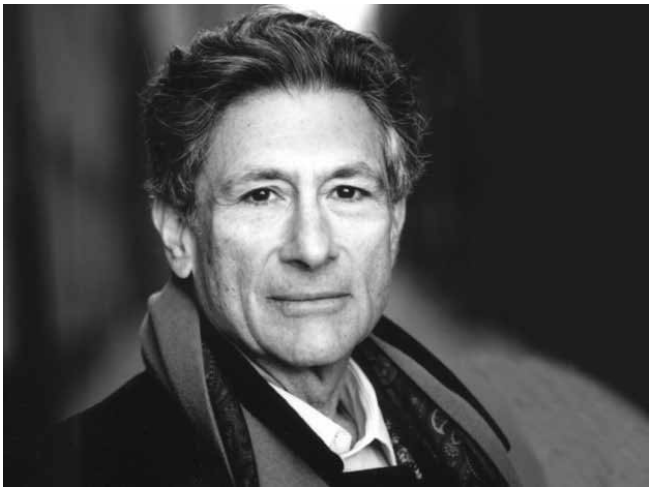

(1)

هذه هي المقالة الأولى ضمن سلسلة حول الدور الذي أسيء فهمه وأسيء تقديره للصهيونية الأميركية في قضية فلسطين. وحسب ما أرى فإن دور الجماعات والأنشطة الصهيونية في الولايات المتحدة لم يعالج بصورة كافية خلال مرحلة "عملية السلام"، وهو إهمال أجد انه مدهش تماماً، آخذاً في الاعتبار أن السياسة الفلسطينية تمثلت أساساً بإلقاء مصيرنا كشعب في أحضان الولايات المتحدة من دون أي إدراك استراتيجي للطريقة التي تخضع بها السياسة الأميركية عملياً للهيمنة، إن لم يكن السيطرة كاملة، من جانب أقلية صغيرة تبدو مواقفها من السلام في الشرق الأوسط بشكل ما اكثر تطرفاً حتى من تلك التي تتبناها كتلة ليكود في إسرائيل.

دعوني اقدم مثالاً بسيطاً: قبل شهر أوفدت صحيفة "هآرتز" الإسرائيلية أحد كتاب أعمدتها البارزين، آري شافيت، ليمضي بضعة أيام في التحدث معي. ونُشر ملخص جيد لهذه المحادثة الطويلة كمقابلة بصيغة سؤال وجواب في ملحق الصحيفة الصادر في 18 آب (أغسطس) الماضي، من دون أن تحذف مقاطع منها أو تخضع للرقابة. وقد عبرت عن وجهات نظري بصراحة تامة مع تأكيد كبير على حق العودة وأحداث العام 1948 ومسؤولية إسرائيل عن هذا كله. أثار استغرابي أن تُعرض آرائي كما عبّرت عنها بالضبط، من دون أدنى تحريف من قبل شافيت الذي كانت أسئلته دائماً كيسة وغير

استفزازية.
بعد أسبوع على نشر المقالة جاء رد عليها من ميرون بنفنيستي، النائب السابق لرئيس بلدية القدس تيدي كوليك. اتسم الرد بطابع شخصي مثير للاشمئزاز، وكان يطفح بالإهانات وتشويه السمعة ضدي وضد عائلتي. لكنه لم ينكر أبداً أن هناك شعبا فلسطينيا، أو أننا شردنا في 1948.
لقد قال في الواقع، نحن قهرناهم، ولماذا ينبغي أن نشعر بالذنب؟ بعثت برد على بنفنيستي نشرته ''هآرتس'' بعد ذلك بأسبوع. ما كتبته نشر أيضاً من دون حذف. ذكّرت القراء الإسرائيليين بأن بنفنيستي كان مسؤولا عن تدمير)والأرجح أنه كان على معرفة بقتل عدد من الفلسطينيين) حارة المغاربة في 1967 التي فقد فيها مئات عدة من الفلسطينيين منازلهم تحت جنازير البلدوزرات الإسرائيلية. لكنني لم أكن بحاجة الى تذكير بنفنيستي أو قراء ''هآرتس'' بأننا كشعب موجودون، ويمكن على الأقل أن نناقش حقنا في العودة. فهذا أمر مفروغ منه.
توجد هنا نقطتان: الأولى، هي أن المقابلة كلها ما كان يمكن أن تظهر في أي صحيفة أميركية، وقطعاً ليس في أي صحيفة أميركية - يهودية. ولو كانت هناك مقابلة فان الأسئلة الموجهة إلي كانت ستكون عدائية ومتغطرسة ومهينة، مثلاً، لماذا كنت متورطاً في الإرهاب، ولماذا ترفض الاعتراف بإسرائيل، ولماذا كان الحاج أمين نازياً، وهلم جرا. النقطة الثانية، هي أن صهيونياً إسرائيلياً يمينياً مثل بنفنيستي، مهما كان يمقتني أو يمقت آرائي، لن ينكر أن هناك شعباً فلسطينياً أجبر على الرحيل في 1948. لكن صهيونياً أميركياً سيظل يقول انه لم يكن هناك أي احتلال، أو كما زعم جون بيترز في كتاب صدر في 1948 بعنوان ''منذ زمن سحيق'' وقد اختفى الآن وكاد يطويه النسيان)فاز بكل الجوائز اليهودية عندما ظهر في أميركا)، لم يكن هناك أي فلسطينيين يعيشون في فلسطين قبل 1948.
سيعترف كل إسرائيلي من دون تردد، وهو يعرف تماماً، بأن إسرائيل بكاملها كانت في ما مضى فلسطين، أي)كما قال موشي دايان علناً في 1967) أن كل بلدة أو قرية إسرائيلية كان لها يوما اسم عربي. ويقول بنفنيستي بشكل صريح ''نحن'' انتصرنا، ثم ماذا؟ لماذا ينبغي أن نشعر بالذنب بشأن الانتصار؟ أما الخطاب الصهيوني الأميركي فانه ليس صادقاً بشكل صريح على هذا النحو إطلاقاً. فهو يجب أن يلف دائماً ويتحدث عن جعل الصحراء تزهر، وديموقراطية إسرائيل، وغيرها، متحاشياً كلياً الحقائق الأساسية عن 1948 التي عاشها فعلاً كل إسرائيلي. بالنسبة الى الأميركي تمثل هذه في الأغلب تخيلات، أو أساطير، وليست وقائع. ويبلغ مدى ابتعاد أنصار إسرائيل الأميركيين عن الواقع، وانغماسهم في تناقضات الشعور بالذنب الذي تولده حياة الشتات، فماذا يعني أن يكون المرء صهيونياً ولا يهاجر الى إسرائيل؟ ونزعة الغرور باعتبارهم الأقلية الأكثر نجاحاً والأكثر نفوذاً في الولايات المتحدة، يبلغ حداً يجعل ما يظهر في معظم الأحيان مزيجاً مرعباً من ممارسة العنف بالنيابة عن آخرين ضد العرب وخوفاً وكرهاً عميقين لهم، وهو نتيجة لعدم وجود أي تماس مباشر ودائم مع العرب بخلاف اليهود الإسرائيليين. لا يمثل العرب إذا بالنسبة للصهيوني الأميركي أشخاصاً حقيقيين بل تخيلات عن

كل شيء تقريباً يمكن تبشيعه وازدراؤه، وبالأخص الإرهاب ومناهضة السامية. تسلمت أخيراً رسالة من أحد طلبتي القدامى، ممن أتيحت لهم فرصة الاستفادة من أرقى تعليم متوافر في الولايات المتحدة، يسألني فيها رغم كل شيء بصدق وكياسة لماذا أسمح كفلسطيني لنازي مثل الحاج أمين أن يستمر في تحديد أجندتي السياسية. وقال مجادلاً "قبل الحاج أمين لم تكن القدس مهمة بالنسبة للعرب. ولأنه كان شريراً تماماً فقد جعل منها قضية مهمة بالنسبة للعرب لإحباط التطلعات الصهيونية التي اعتبرت القدس دائماً مهمة". لا يمثل هذا منطق شخص عاش مع العرب، ويعرف شيئاً ملموساً عنهم. انه منطق شخص يتكلم بخطاب منظم وتحركه إيديولوجية لا تعتبر العرب سوى دالات سلبية، يجسدون مشاعر عنفية مناهضة للسامية، ولذا ينبغي محاربتهم والتخلص منهم إن أمكن ذلك. ولم يكن محض صدفة أن يكون الدكتور باروخ غولدشتاين، الذي قتل بصورة مروعة 29 فلسطينياً كانوا يصلون بخشوع في الحرم الابراهيمي في الخليل، أميركياً، كما كان الحاخام مائير كاهانا. وبدلاً من اعتبار كاهانا وغولدشتاين حالتين شاذتين تشكلان إحراجاً لاتباعهما، يُنظر إليهما في الوقت الحاضر بتبجيل من قبل آخرين على شاكلتيهما. كما أن كثرة من المستوطنين المتطرفين اليمينيين الأكثر تعصباً الذين يجثمون على أراض فلسطينية، ويتحدثون بقسوة عن "ارض إسرائيل" باعتبارها عائدة لهم، ويكرهون ويتجاهلون المالكين والمقيمين الفلسطينيين الذين يحيطون بهم، ولدوا هم أيضاً في أميركا. ويبدو المشهد مرعباً عندما تراهم يسيرون في شوارع الخليل كما لو كانت هذه المدينة العربية كلها ملكاً لهم، ويفاقم ذلك ما يظهروه من استخفاف وازدراء سافرين ضد الغالبية العربية.

ألفت الانتباه الى هذا كله لتثبيت نقطة أساسية واحدة: عندما اتخذت منظمة التحرير الفلسطينية في أعقاب حرب الخليج القرار الاستراتيجي - الذي كان بلدان عربيان رئيسان حسماه قبل المنظمة - بالعمل مع الحكومة الأميركية، وإذا أمكن مع اللوبي النافذ الذي يتحكم بمناقشة سياسات الشرق الأوسط، فإنها أقدمت على هذه الخطوة كما فعل البلدان العربيان قبلها بالاستناد الى جهل هائل وافتراضات خاطئة على نحو استثنائي تماماً. كانت الفكرة، كما أوضحها لي ديبلوماسي مصري كبير بعد 1967 بوقت قصير، هي أن يتم الاستسلام عملياً ويقال إننا لن نواصل الكفاح بعد الآن. نحن الآن مستعدون لأن نقبل إسرائيل ونقبل أيضاً دور الولايات المتحدة المقرر في مستقبلنا. كانت هناك أسباب موضوعية وراء وجهة نظر كهذه في ذلك الحين، كما هو الحال الآن مثل التساؤل عن جدوى مواصلة المعركة، كما فعل العرب تاريخيا إذا كان ذلك سيؤدي الى هزيمة أخرى وحتى كارثة. لكنني اعتقد بقوة أنها كانت سياسة خاطئة أن يُلقى بسياسة العرب ببساطة في أحضان الولايات المتحدة، وفي أحضان المنظمات الصهيونية الرئيسية أيضاً، لأن الأخيرة تمارس نفوذاً كبيراً في كل مكان في الولايات المتحدة، معلنين في الواقع أننا لن نقاتلكم، دعونا ننضم إليكم، لكن رجاءً احسنوا معاملتنا. كان الأمل هو أننا إذا تنازلنا وقلنا نحن لسنا أعداءكم سنصبح كعرب أصدقاءهم.

المشكلة تكمن في التفاوت بالقوة الذي ظل

قائماً. فمن وجهة نظر الأقوى، أي تأثير سيطرأ على استراتيجيتك إذا كان خصمك الأضعف يقر بعجزه ويقول ليس هناك شيء آخر أقاتل من اجله، خذني، أريد أن أكون حليفاً لك، حاول فحسب أن تفهمني بشكل افضل وربما ستكون عندئذ أكثر إنصافا؟ إحدى الوسائل المفيدة للإجابة على هذا السؤال بطريقة عملية وملموسة هي أن نلقي نظرة على آخر تطورات الأحداث في السباق الانتخابي على مقعد ولاية نيويورك في مجلس الشيوخ، حيث تتنافس هيلاري كلينتون مع الجمهوري ريك لازيو على المقعد الذي يشغله حالياً الديموقراطي دانييل باتريك موينيهان الذي سيتقاعد من منصبه. فقد أعلنت هيلاري العام الماضي أنها تؤيد إقامة دولة فلسطينية، وخلال زيارة رسمية الى غزة مع زوجها عانقت سهى عرفات. إلا أنها منذ دخول السباق الانتخابي في نيويورك بزّت حتى أكثر الصهاينة يمينية في حماسها لإسرائيل ومعارضتها لفلسطين، بل ذهبت الى حد تأييد نقل السفارة الأميركية من تل أبيب الى القدس و(ما هو اكثر تطرفاً) تأييد تخفيف الحكم الصادر بحق جوناثان بولارد، الجاسوس الإسرائيلي الذي دين بالتجسس ضد الولايات المتحدة ويقضي الآن حكماً بالسجن مدى الحياة. وقد حاول خصومها الجمهوريون إحراجها بتصويرها على أنها «نصيرة متحمسة للعرب» وبترويج صورة فوتوغرافية تظهر فيها وهي تعانق سهى. وبما أن نيويورك هي قلعة النفوذ الصهيوني فان إطلاق نعوت مثل «نصيرة متحمسة للعرب» و «صديقة سهى عرفات» يعادل أسوأ إهانة ممكنة. هذا كله على الرغم من أن عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية هما حليفان معلنان لأميركا، ويتلقيان مساعدات عسكرية ومالية أميركية، ويستفيدان في مجال الأمن من الدعم الأمني لوكالة الاستخبارات المركزية الأميركية «سي آي أي». في غضون ذلك، وزع البيت الأبيض صورة فوتوغرافية يظهر فيها لازيو وهو يتصافح مع عرفات قبل عامين. واضح أن كل ضربة تستحق الأخرى.

الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن الخطاب الصهيوني هو خطاب القوة، والعرب في هذا الخطاب هم أهداف للقوة - وأهداف محتقرة أيضاً، وبعدما راهنوا على هذه القوة باعتبارهم الخطاب هم أهداف للقوة - وأهداف محتقرة أيضاً -، وبعدما راهنوا على هذه القوة باعتبارهم خصمها السابق المستسلم لم يعد بإمكانهم أن يتوقعوا أبدا أن يكونوا على قدم المساواة معها. ومن هنا المشهد المخزي والمهين لعرفات (رمز العداء دائماً وأبدا بالنسبة الى عقل الصهيوني) وهو يستخدم في سباق محلي تماماً في الولايات المتحدة بين خصمين يحاولان أن يبرهنا أيهما أكثر تأييداً لإسرائيل. علماً أن أيا من الاثنين، هيلاري كلينتون وريك لازيو، ليس حتى يهودياً. ما سأناقشه في مقالتي المقبلة هو كيف أن الاستراتيجية السياسية الممكنة الوحيدة تجاه الولايات المتحدة بقدر ما يتعلق الأمر بسياسة العرب والفلسطينيين هي ليست إقامة حلف مع الصهاينة أو مع السياسة الأميركية بل تنظيم حملة تعبئة جماهيرية موجهة إلى السكان الأميركيين لمصلحة حقوق الفلسطينيين الإنسانية والمدنية والسياسية. كل الترتيبات الأخرى، سواء أوسلو أو كامب ديفيد، مصيرها الفشل لان الخطاب الرسمي يخضع كلياً، ببساطة، لهيمنة الصهيونية، وما

عدا استثناءات فردية لا توجد أي بدائل له. لذا فان كل ترتيبات السلام التي تتم على أساس تحالف مع الولايات المتحدة هي تحالفات تعزز النفوذ الصهيوني بدلاً من التصدي له. إن الإذعان بانبطاح السياسة الشرق أوسطية يتحكم بها الصهاينة، كما فعل العرب على مدى ما يقرب من جيل حتى الآن، لن يحقق الاستقرار في بلادهم أو المساواة والعدل في الولايات المتحدة.

ومع ذلك، تكمن المفارقة في انه يوجد داخل الولايات المتحدة كتلة رأي ضخمة مستعدة لاتخاذ موقف نقدي تجاه إسرائيل والسياسة الخارجية للولايات المتحدة على السواء. والمأساة هي أن العرب يعانون الضعف والتشرذم وغياب التنظيم والجهل لدرجة تحول دون إمكان الاستفادة منها. وسأناقش في مقالتي أيضا الأسباب التي تكمن وراء ذلك، لأن طموحي هو أن أسعى للوصول الى جيل جديد ربما يعاني الحيرة والإحباط معاً بسبب الموقع البائس والمزدرى الذي توجد فيه الآن ثقافتنا وشعبنا، والإحساس الدائم بالخسارة المثيرة للسخط ولكن المهينة الذي نعانيه جميعا نتيجة ذلك.

(2)

طرأ حدث صغير ينطوي على إحراج منذ أن كتبت مقالتي الأخيرة عن الموضوع قبل أسبوعين. فقد جرد مارتن انديك سفير الولايات المتحدة (للمرة الثانية خلال إدارة كلينتون) لدى إسرائيل بشكل مفاجئ من الإذن الأمني الديبلوماسي الممنوح له من جانب وزارة الخارجية الأميركية للاطلاع على الوثائق السرية. وحسب الرواية المتداولة فانه استخدم جهاز الكومبيوتـــر النقال العائد له من دون اتباع إجراءات أمنية مناسبة، وبالتالي يحتمل أن يكون أفشى معلومات أو كشفها لأشخاص غير مخولين. ونتيجة لذلك لم يعد بإمكانه أن يدخل وزارة الخارجية أو يغادرها من دون مرافقة، ولا يمكن أن يبقى في إسرائيل، ويجب أن يخضع لتحقيق كامل.

ربما لن نعرف أبدا ما حدث فعلاً، بدليل أن انديك أعيد الى منصبه ثانية من دون أي إيضاحات. لكن الشيء المعروف على نطاق واسع ورغم ذلك لم تتناوله وسائل الإعلام هو فضيحة تعيين انديك. إذ أعلن عشية تقلد كلينتون منصبه رسمياً في كانون الثاني (يناير) 1993 أن مارتن انديك، الذي ولد في لندن وكان مواطناً استرالياً، منح الجنسية الأميركية بناء على رغبة عاجلة للرئيس المنتخب. ولم تتبع الإجراءات الأصولية: كان إجراء يستند الى امتياز رئاسي أتاح تعيين انديك، بعد حصوله على الجنسية الأميركية مباشرة، عضواً في مجلس الأمن القومي ومسؤولاً عن الشرق الأوسط. كان هذا كله، حسب اعتقادي، الفضيحة الحقيقية، وليس الطيش اللاحق لانديك أو حماقته أو حتى ضلوعه في تجاهل قواعد السلوك الرسمية. فقبل أن يصل انديك الى قلب الحكومة الأميركية في منصب رفيع المستوى ومحاط بالكتمان الى حد كبير، كان رئيساً لمعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، وهو مؤسسة أبحاث ذات طابع فكري ظاهرياً تمارس دعاية نشيطة لمصلحة إسرائيل وتنسق عملها مع «ايباك» (لجنة الشؤون العامة الأميركية الإسرائيلية)، اللوبي الأقوى والأعظم نفوذا في واشنطن. وتجدر الإشارة الى أن دنيس روس، مستشار وزارة الخارجية الذي يرأس

الفريق الأميركي في عملية السلام، كان أيضا رئيساً لمعهد واشنطن قبل التحاقه بإدارة بوش. لذا فان قناة الاتصال بين جماعات الضغط الإسرائيلية وسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط منتظمة للغاية، ومنظمة. مارست «ايباك» نفوذاً كبيراً على مدى سنين، ولا يرجع ذلك إلى استنادها على جالية يهودية سنة التنظيم وذات صلات جيدة وحضور بارز وناجحة وثرية فحسب بل أيضا لأنها في اغلب الأحوال لم تلق مقاومة تذكر. وهناك رهبة واحترام كبيران لـ «ايباك» في أرجاء البلاد، لكن بشكل خاص في واشنطن حيث يمكن في غضون ساعات أن يُعبأ مجلس الشيوخ بأكمله لتوقيع رسالة الى الرئيس لمصلحة إسرائيل. فمن سيعارض «ايباك» ويحتفظ بموقعه في الكونغرس، أو يتحداها من اجل، مثلاً، القضية الفلسطينية عندما لا يمكن لهذه القضية أن تقدم شيئاً ملموساً لمن يتحدى «ايباك»؟ في الماضي، تصدى واحد أو اثنان من أعضاء الكونغرس علناً لـ «ايباك» لكن سرعان ما جرى عرقلة إعادة انتخابهما من قبل لجان العمل السياسية الكثيرة التي تخضع لسيطرة «ايباك»، وهكذا انتهى الأمر. وكان السناتور الوحيد الذي تبنى موقفاً يمكن اعتباره معارضاً ولو من بعيد لـ «ايباك» هو جيمس أبو رزق، لكنه لم يكن يرغب في إعادة انتخابه وقرر، لأسباب خاصة به، أن يستقيل عندما انتهت فترة عضويته التي استمرت ست سنوات.

لا يوجد الآن في الولايات المتحدة أي معلق سياسي يتبنى موقفاً واضحاً وصريحاً تماماً في التصدي لإسرائيل في الولايات المتحدة. وبين حين وآخر ينتقد بعض كتاب الأعمدة، مثل انتوني لويس في «نيويورك تايمز»، ممارسات الاحتلال الإسرائيلي، لكن لا يُذكر أبدا أي شيء عن 1948 وقضية تشريد الفلسطينيين التي تكمن في صلب وجود إسرائيل وسلوكها اللاحق. وفي مقالة نشرت أخيرا، لاحظ المسؤول السابق في وزارة الخارجية الأميركية هنري براكت الإجماع المذهل في كل قطاعات الإعلام الأميركي، من السينما الى التلفزيون والراديو والصحف والمطبوعات الأسبوعية والشهرية والفصلية واليومية كل واحدة منها تتبع بشكل أو بآخر الموقف الإسرائيلي الرسمي الذي اصبح أيضا الموقف الأميركي الرسمي. هذا هو التوافق الذي حققته الصهيونية الأميركية في السنوات المنصرمة منذ 1967، والذي استغلته في معظم الخطاب الرسمي حول الشرق الأوسط. هكذا فان السياسة الأميركية تساوي السياسة الإسرائيلية، باستثناء مناسبات نادرة جداً أي (قضية بولارد) عندما تتجاوز إسرائيل الحد وتفترض أن لها الحق في نيل ما تشاء.

هكذا يقتصر انتقاد ممارسات إسرائيل على نحو تام على هجمات عرضية ونادرة حتى أنها تكاد تكون غير منظورة. ويبدو الإجماع العام منيعاً وفعالاً لدرجة انه يطبق في كل مكان في إطار الاتجاه السياسي السائد. ويتألف هذا الإجماع من حقائق لا يرقى إليها شك تتعلق بإسرائيل كديموقراطية، تتمثل فضيلتها الأساسية في عصرية وعقلانية شعبها وقراراتها. ذات مرة قال الحاخام ارثر هرتز برغ، وهو رجل دين ليبرالي أميركي بان الصهيونية هي الدين العلماني للجالية اليهودية الأميركية. ويحظى هذا بدعم واضح من قبل منظمات أميركية متنوعة يتمثل دورها بمراقبة الحيز العام منعاً لأي

خروقات، حتى في الوقت الذي تدير منظمات يهودية أخرى كثيرة مستشفيات ومتاحف ومعاهد أبحاث لمصلحة البلاد كلها. هذه الثنائية أشبه بتناقض ظاهري يستعصي على الحل تتعايش فيه مشاريع عامة نبيلة مع أحقر المشاريع وأكثرها لا إنسانية. فإذا أخذنا مثالاً حديثاً، قامت «المنظمة الصهيونية في أميركا» (ZOA)، وهي جماعة صغيرة ولكن صاخبة جداً من المتعصبين، بدفع كلفة إعلان نشر في صحيفة «نيويورك تايمز» في 10 أيلول (سبتمبر) الماضي يخاطب ايهود باراك كما لو كان مستخدماً لدى اليهود الأميركيين، مذكراً إياه بان ستة ملايين منهم يفوقون عدداً الخمسة ملايين إسرائيلي الذين قرروا التفاوض بشأن القدس. ولم تكن لهجة الإعلان تحذيرية فحسب بل كادت تكون تهديدية، قائلة بان رئيس وزراء إسرائيل قرر بصورة غير ديموقراطية أن يشرع بتنفيذ ما يعد شيئاً محرماً بالنسبة لليهود الأميركيين الذين كانوا مستائين من سلوكه. وليس واضحا إطلاقا من الذي خول هذه المجموعة الصغيرة والمشاكسة من المتعصبين أن توبخ رئيس الوزراء الإسرائيلي بهذه اللهجة، لكن «المنظمة الصهيونية في أميركا» تشعر بان لديها الحق في أن تتدخل في شؤون الجميع. فهي توجه رسائل أو تتصل هاتفياً بشكل روتيني برئيس جامعتي لتطلب منه أن يقيلني أو ينتقدني رسمياً بسبب شيء ما قلته أو كتبته، كما لو كانت الجامعات أشبه برياض أطفال وينبغي معاملة الأساتذة مثل جانحين أحداث. وشنت هذه المنظمة العام الماضي حملة تهدف الى إقالتي من المنصب الذي انتخبت إليه كرئيس لجمعية اللغات الحديثة التي تعرض أعضاؤها البالغ عددهم 30 ألف شخص الى التوبيخ من قبل المنظمة باعتبارهم بلهاء. يمثل هذا أسوأ صنوف «البلطجة» الستالينية، إلا أنه مثال نموذجي على الصهيونية الأميركية المنظمة في أسوأ صورها وأكثرها تعصبا.

وعلى نحو مماثل تبنى كتاب ومحررون يهود يمينيون (نذكر على سبيل المثال، نورمان بود هورتز وتشارلس كروتهامر ووليام كريستول، ضمن الدعاة الأكثر صخباً) موقفاً نقدياً من إسرائيل لأنها أغضبتهم، كما لو أنهم أكثر أحقية بها من أي شخص آخر. وتمتاز مقالاتهم هذه وغيرها بلهجة كريهة، فهي توليفة منفرة من الغطرسة السافرة وادعاء الوعظ الأخلاقي وأقبح أشكال النفاق، وينفذ هذا كله في أجواء من الثقة الكاملة. وهم يفترضون أنهم قادرون بفضل نفوذ المنظمات الصهيونية التي تدعم وتؤيد صخبهم المشين على أن يفلتوا من دون حساب على هذا النوع من الهراء الذي لا يمت بصلة الى الحقائق السياسية الفعلية في الشرق الأوسط. وينظر إليهم معظم الإسرائيليين الواعين بنفور.

لقد بلغت الصهيونية الأميركية في الوقت الحاضر مستوى من الفنتازيا التامة التي يكون فيها ما هو صالح للصهاينة الأميركيين في إقطاعيتهم وخطابهم الخيالي صالحاً في الغالب لأميركا وإسرائيل، وبالتأكيد للعرب والمسلمين والفلسطينيين الذين يبدو انهم ليسوا سوى مجموعة منغصات تافهة. وكل من يتحداهم أو يجرأ على تحديهم (خصوصاً إذا كان عربياً أو يهودياً ناقداً للصهيونية) يكون عرضة لأقذع أنواع السباب والتوبيخ، وهي كلها ذات طابع شخصي وعنصري وإيديولوجي. إنهم قساة، يفتقرون كلياً الى أي سماحة نفس أو تفهم إنساني صادق. والقول

بان نقدهم الساخر العنيف وتحليلاتهم شبيهة بالتوراة في أسلوبها يمثل إهانة للتوراة.
بمعنى آخر، سيكون أي تحالف معهم، على نحو ما حاولت الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية تشكيله منذ حرب الخليج، أغبى نوع من الجهل. فهم يناهضون بثبات كل ما يناضل من اجله العرب والمسلمون وبشكل خاص الفلسطينيون، وسيفجرون الوضع بدلاً من التوصل الى سلام معنا. ومع ذلك، صحيح أيضا أن معظم المواطنين العاديين غالباً ما يشعرون بالحيرة إزاء عنف نبرة هؤلاء، لكنهم لا يدركون حقاً ما يقف وراءها. وكلما تحدث المرء مع أميركيين ليسوا من اليهود أو العرب ولا يملكون أي خبرة حول الشرق الأوسط، ينتابه دائماً إحساس بالحيرة والسخط إزاء موقفهم المتغطرس إذ يتصرفون كما لو أن الشرق الأوسط كله ملكاً مستباحاً لهم. وقد خلصت الى أن الصهيونية في أميركا ليست تخيلات مبنية على أسس متصدعة تماماً فحسب بل أن من المستحيل إقامة تحالف أو توقع حوار عقلاني معها. لكن يمكن الالتفاف حولها ودحرها.
دأبت من منتصف الثمانينات على أن أوضح لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ولكل فلسطيني وعربي التقيته بان سعي المنظمة الى كسب تعاطف الرئيس الأميركي هو وهم كامل لان كل الرؤساء في العقود الأخيرة كانوا صهاينة مخلصين، وان السبيل الوحيد لتغيير السياسة الأميركية وتحقيق تقرير المصير يكمن في تنظيم حملة جماهيرية دفاعاً عن حقوق الإنسان للفلسطينيين، وهو ما سيمكن الالتفاف على الصهاينة والتوجه مباشرة الى الشعب الأميركي. فالأميركيون، الذين يعانون نقصاً في الاطلاع ولكنهم يتفاعلون مع نداءات الاستغاثة طلباً للعدل، كانوا سيتجاوبون كما فعلوا مع حملة المؤتمر الوطني الأفريقي ضد نظام التمييز العنصري، التي غيرت في النهاية توازن القوى داخل جنوب أفريقيا. وإنصافا ينبغي أن أشير هنا الى أن جيمس زغبي، الذي كان في ذلك الحين مدافعاً ناشطاً عن حقوق الإنسان (قبل أن يرمي بثقله الى جانب عرفات والحكومة الأميركية والحزب الديموقراطي)، هو أحد مبتكري هذه الفكرة. وان تخليه عنها كليا يدل على ما طرأ عليه من تغيير، وليس إبطالاً للفكرة ذاتها.
لكن اصبح واضحاً تماماً بالنسبة إلي أن منظمة التحرير لن تفعل ذلك أبدا لأسباب عدة. فهذا يقتضي جهداً وتفانياً. ثانياً، سيعني ذلك اعتناق فلسفة سياسية تستند في الواقع على تنظيم ديموقراطي على مستوى القواعد. ثالثاً، سيتعين أن تكون حركة بدلاً من مبادرة شخصية لمصلحة الزعماء الحاليين. وأخيرا، إنها تتطلب معرفة حقيقية وليست سطحية بالمجتمع الأميركي. بالإضافة الى ذلك، شعرت بان من الصعب جداً تغيير الذهنية التقليدية التي قادتنا من وضع سيئ إلى آخر، وقد اثبت الزمن أنني كنت على صواب. فاتفاقات أوسلو جسدت القبول ضيق الأفق من قبل الفلسطينيين بالتفوق الإسرائيلي - الأميركي بدلاً من كونها محاولة لتغييره.
وفي أي حال، سينتهي مآل أي تحالف أو حل وسط مع إسرائيل في الظروف الحالية، حيث تخضع السياسة الأميركية كليا لهيمنة الصهيونية الأميركية، الى النتائج ذاتها تقريباً بالنسبة للعرب بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص. فإسرائيل يجب أن تسود، ومخاوف إسرائيل هي الأساس، وستجري إطالة أمد

الظلم الإسرائيلي المنظم. هكذا، ما لم يجر التصدي للصهيونية الأميركية وتجبر على التغيير - وهي ليست مهمة بالغة الصعوبة، كما سأحاول أن أبين في مقالتي المقبلة - ستكون النتائج هي ذاتها، كئيبة ومسيئة بالنسبة الى العرب.

(3)

أعطت أحداث الأسابيع الأربعة الأخيرة انتصاراً شبه كامل للصهيونية الأميركية، للمرة الأولى منذ عودة الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة الى البروز في أواخر الستينات. إذ تحولت إسرائيل خلال الصدامات الأخيرة، على صعيد الخطابين السياسي والإعلامي، الى ضحية، الى درجة أنه على رغم مقتل أكثر من 140 فلسطينياً وجرح نحو خمسة آلاف منهم فإن ما يسمى «العنف الفلسطيني» هو ما جاء ليعرقل التقدم الهادئ الذي كانت تحرزه عملية السلام.

وهناك الآن مجموعة من العبارات يكررها المعلقون الصحافيون، إما حرفياً أو بالاعتماد عليها كمسلمات ضمنية، وهي الآن محفورة في كل أذن وعقل وذاكرة، لتعمل بذلك كـ «دليل الحائر»، أو أنها بمثابة لائحة تعليمات جاهزة، أو آلة تضخ تلك العبارات التي ملأت الأجواء لشهر على الأقل. ويمكنني تلاوة غالبيتها عن ظهر قلب: باراك عرض في كامب ديفيد تنازلات لم يعرضها رئيس وزراء إسرائيلي قبله (90 في المائة من الأراضي وسيادة جزئية على القدس الشرقية). عرفات كان جباناً وافتقر الى الشجاعة اللازمة للقبول بعروض إسرائيل لإنهاء الصراع، والعنف الفلسطيني الذي يوجهه عرفات يهدد إسرائيل (هناك تنويعات كثيرة على هذه النغمة، من بينها الرغبة في إزالة إسرائيل، اللاسامية، الغضب الانتحاري ضماناً للوصول الى شاشات التلفزيون، وضع الأطفال في المقدمة لتحويلهم الى شهداء)، وان هذا العنف يبرهن على أن الدافع هو «حقد» الفلسطينيين القديم على اليهود. وأن عرفات زعيم ضعيف يسمح لشعبه بمهاجمة اليهود والتحريض ضدهم عن طريق إطلاق الإرهابيين ونشر كتب مدرسية تنكر وجود إسرائيل.

الأرجح أنني نسيت واحدة أو اثنتين من هذه الوصفات الجاهزة. لكن الصورة العامة تبقى أن إسرائيل محاطة ببرابرة يهاجمونها بالحجارة وأن الصواريخ والدبابات تستعمل لـ «حماية» الإسرائيليين من العنف ودرء تلك القوة المخيفة التي يمثلها الفلسطينيون. كما أن مطالبات بيل كلينتون (التي ترددها وزيرة الخارجية مادلين اولبرايت مثل الببغاء) للفلسطينيين بـ «التراجع» توحي بقوة بأن الفلسطينيين هم الذين يستولون على أرض إسرائيل وليس العكس.

ما يستحق الذكر أيضاً أن النجاح في صهينة وسائل الإعلام الأميركية بلغ درجة أن الصحف وشبكات التلفزيون لم تحمل حتى الآن خريطة واحدة لكي تذكر القارئ أو المشاهد الأميركي - المعروف بجهله بالجغرافيا والتاريخ - بأن المعسكرات والمستوطنات والطرق والحواجز الإسرائيلية تقطع أوصال الأرض الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. إضافة الى ذلك، ومثلما كانت الحال في بيروت في 1982، هناك الآن حصار إسرائيلي حقيقي على الفلسطينيين، حتى على ياسر عرفات ورجاله. وقد نسي الرأي العام الأميركي الآن، إذا كان فهم أصلاً، نظام تقسيم الأراضي إلى مناطق

«أ» و «ب» و «ج»، الذي يستمر بفضله الاحتلال الإسرائيلي لـ40 في المائة من أرض غزة و60 في المائة من الضفة الغربية - ذلك النظام الذي لم يكن اتفاق أوسلو مصمما لإنهائه أو حتى تعديله في شكل كامل.

لهذا الفراغ الذي يتركه إخفاء البعد الجغرافي أهمية أساسية لأنه يزيل عن الصور التلفزيونية للأحداث أو وصفها من جانب المراسلين الصحافيين أي سياق ممكن، انه كما اعتقد إخفاء تعمدته وسائل الإعلام الصهيونية منذ البداية وأصبح تلقائيا الآن. وسمح هذا لمعلقين مزيفين مثل توماس فريدمان بتسويق بضاعته بلا خجل، مواصلا ثغاءه عن «الإنصاف» الأميركي ومرونة إسرائيل وكرمها وحكمته البراغماتية التي ينصح قادة العرب باتباعها - كل هذا ما يقذف الى أحضان النوم بقرائه الضجرين أصلا. النتيجة لم تكن إدامة الانطباع الممسوخ بأن ما يدور هو هجوم الفلسطينيين على إسرائيل فحسب، بل في المزيد من تجريد الفلسطينيين من الإنسانية وتصويرهم وحوشا من دون وعي أو دافع مفهوم. لذلك لا غرابة إذا لم نجد عند تلاوة أعداد الضحايا أي ذكر لانتمائهم، وهو ما يسمح للأميركيين افتراض أن الخسائر متساوية بين «طرفي الحرب»، بل أن التقارير تبالغ في تقدير معاناة اليهود فيما تخفف من معاناة العرب ومشاعرهم أو تحذفها كليا - عدا شعور «الغضب» بالطبع، وبكل أشكاله وأنواعه، الذي يبقى العاطفة الفلسطينية الوحيدة، بل الجوهرية، بالنسبة الى هذا المنظور : انه ما يفسر كل هذا العنف، ويطلقه كظاهرة قائمة بذاتها بما يسمح بتصوير إسرائيل مجتمعا يمثل الصلاح والديمقراطية محاطا دوما بالغضب والعنف، من دون احتمال وجود أي تعليل منطقي للمواجهة بين رماة الحجارة وإسرائيل الصامدة في «الدفاع» ضدهم.

في كل هذا السيل الإعلامي لا نجد ذكرا لنسف المساكن ومصادرة الأراضي والاعتقالات اللاقانونية والتعذيب وما شابه، ولا نجد ذكرا للاحتلال العسكري الأطول عهدا في العصر الحديث (عدا احتلال اليابان لكوريا)، ولا عن قرارات الأمم المتحدة أو انتهاك إسرائيل لمواثيق جنيف - ولا شيء عن عذاب شعب بأكمله وتحجر شعب آخر تجاه ذلك. وغطى النسيان نكبة 1948 والتطهير العرقي والمجازر في دير ياسين وقبية وصبرا وشاتيلا، والسنين الطويلة من الحكم العسكري على مواطني إسرائيل غير اليهود، ناهيك عن اضطهادهم المستمر كأقلية تشكل 20 في المائة من سكان إسرائيل. أما أرييل شارون فهو في أسوأ الأحوال شخصية «استفزازية» وليس مجرم حرب. وباراك «رجل دولة» وليس ذلك المشارك في عمليات الاغتيال في بيروت، كما أن الإرهاب يأتي دوما من الجانب الفلسطيني، أما إسرائيل فتقتصر أعمالها على الدفاع.

ما يغفله فريدمان و «دعاة السلام» الإسرائيليون عند الإشادة بكرم باراك الذي لا سابق له هو جوهر تلك العروض؛ انهم لا يذكرون أن التزامه في «اتفاق واي» قبل 18 شهرا القيام بانسحاب ثالث (من نحو 12 في المائة) لم يتحقق أبدا. ما هي أذن قيمة المزيد من هذا النوع من «التنازلات»؟ ويخبروننا أنه مستعد لإعادة 90 في المائة من الأراضي، لكنهم لا يقولون أنها ليست 90 في المائة من المجموع، بل من المتبقي من أراض لا تنوي إسرائيل أبدا الانسحاب منها. فمساحة القدس

الكبرى تزيد على 30 في المائة من الضفة الغربية، فيما مساحة المستوطنات الكبيرة التي تنوي إسرائيل ضمها تشكل 15 في المائة إضافية، زد إلى ذلك الطرق والمناطق العسكرية التي لم تحدد بعد. إذن، وبعد حذف هذه المساحات، فإن هذه التسعين في المائة من الباقي لا تعني الكثير.

أما بالنسبة الى القدس فقد كان التنازل الرئيسي الإسرائيلي هو الاستعداد في البحث، ومن ثم ربما، ربما فقط، عرض سلطة مشتركة على الحرم الشريف. الغش المذهل هنا أن عرفات تنازل أصلاً عن القدس الغربية بأسرها، العربية في شكل رئيسي في 1948، إضافة الى غالبية القدس الشرقية حسب توسيعها الهائل لاحقاً. ومن التفاصيل المفيدة أن إطلاق النار من بيت جالا من قبل الفلسطينيين على مستوطنة غيلو يصور على انه من قبيل العنف الأعمى. فيما الحقيقة التي لا يذكرها أحد أن غيلو تقبع على أرض صودرت من بيت جالا. إضافة ذلك فقد كان الرد الإسرائيلي مفرطاً في العنف، حيث قصفت طائرات الهليكوبتر بيت جالا بالصواريخ ودمرت فيها عدداً من مساكن المدنيين.

قمت منذ 28 أيلول (سبتمبر) بجردة مفصلة للصحف الأميركية. ووجدت يومياً منذ ذلك التاريخ من واحدة الى ثلاث مقالات تحريرية في كل من «نيويورك تايمز» و «واشنطن بوست» و «وول ستريت جورنال» و «لوس انجليس تايمز» و «بوسطن غلوب». وكانت كل المقالات ربما باستثناء ما لا يزيد على ثلاث منها كتبت من منظور مؤيد للفلسطينيين في «لوس انجليس تايمز»، ومقالتين في «نيويورك تايمز»، واحدة من المحامية الإسرائيلية أليغرا باتشيكو والثانية من الصحافي الليبرالي الأردني المؤيد لأوسلو رامي خوري - مؤيدة لإسرائيل وعملية السلام برعاية الولايات المتحدة، وملقية المسؤولية عن الأحداث على العنف الفلسطيني وعدم تعاون عرفات والأصولية الإسلامية. وكان من بين كتابها معلقون دائمون مثل فريدمان ووليام سافاير وتشارلز كراوتهامر وأمثالهم، وكلهم كانوا سابقاً من المسؤولين العسكريين والمدنيين الأميركيين، ودعاة لإسرائيل ومسؤولين سابقين فيها، ومختصين وخبراء في مراكز أبحاث ومسؤولين في لوبي إسرائيل والتنظيمات المؤيدة لها بكلمة أخرى. هذه التغطية الشاملة في الصحف الرئيسية تفترض أن لا وجود لموقف فلسطيني أو عربي أو مسلم من قضايا مثل تكتيكات الإرهاب الإسرائيلية ضد المدنيين وكولونيالية المستوطنين والاحتلال العسكري، أو أن ذلك الموقف لا يستحق السماع.

إنه في الحقيقة وضع لا سابق له في تاريخ الصحافة الأميركية، وهو انعكاس مباشر لعقلية صهيونية تجعل من إسرائيل المقياس المطلوب للسلوك الإنساني، ومثل هذه النظرة المنصفة تقصي وجود 300 مليون عربي و2/1 بليون مسلم. هذا الموقف الصهيوني بالطبع انتحاري على المدى البعيد. لكن يبدو أن الغرور بالقوة يحجب هذه الحقيقة عن الجميع.

العقلية التي وصفت مذهلة في تهورها، ولو اقتصرت على تشويه الحقائق ربما أمكن اعتبارها نوعاً من الجنون الفرد، لكن خطرها هو ما تجرّه من مستتبعات عملية على الأرض.

فهي تتطابق في شكل دقيق مع سياسة إسرائيل

الرسمية في التعامل مع الفلسطينيين ليس كشعب مسلوب تاريخيا وتتحمل إسرائيل في شكل رئيسي المسؤولية المباشرة عن ذلك، بل كإزعاج عابر بين حين وآخر لا رد ممكنا عليه سوى القوة. ومن المستحيل التفكير في أي أسلوب آخر غيرها، من ضمن ذلك التفهم أو التجاوب. ويفاقم من هذا العمى المذهل في الولايات المتحدة أن ليس فيها من اهتمام يذكر بالعرب أو المسلمين سوى (كما قلت في مقالة سابقة) استهدافها عدائيا من جانب السياسيين الطامحين الى البروز. من ذلك إعلان هيلاري كلينتون قبل أيام، في رياء مقرف، أنها ستعيد الى مجموعة أميركية مسلمة تبرعا لحملتها الانتخابية بمبلغ خمسين ألف دولار، لأن المجموعة، حسب كلينتون، تدعم الإرهاب. وكانت هذه كذبة صارخة، لأن تلك المجموعة لم تزد على إعلان تأييدها مقاومة الفلسطينيين ضد إسرائيل في المواجهة الحالية.

وإذا بدا هذا الموقف عاديا فهو إجرامي في أميركا اليوم، لأن الهيمنة الصهيونية تضمن لأي انتقاد لإسرائيل (أي انتقاد، مهما كانت درجته أو نوعه) الرفض الفوري الكامل له واعتباره أحط صنف من اللاسامية. هذا برغم أن العالم بأسره انتقد سياسة إسرائيل في إدامة الاحتلال والعنف المفرط وحصار الفلسطينيين. أما في أميركا فعليك عدم انتقاد إسرائيل، وإلا ستطارد كواحد من اللاساميين الذين يستحقون أشد الازدراء.

من الصفات الغريبة الأخرى للصهيونية الأميركية، وهي نظام من الفكر المتناقض والتحريف الكلامي الذي وصفه أورويل، هي أن من المستحيل الكلام عن العنف «اليهودي»، أو الأعمال «اليهودية» عندما يتعلق الأمر بإسرائيل، برغم أن إسرائيل تقوم بكل أعمالها باسم الشعب اليهودي باعتبارها دولة يهودية. ولا يذكر أبدا أن هذه التسمية خاطئة لأن عشرين في المائة من السكان ليسوا من اليهود، وهو ما يفسر ذلك التفريق العجيب بين ما يسمونه «عرب إسرائيل» و«الفلسطينيين»، بحيث لا يمكن لمشاهد أو قارئ أن يعلم انهم الشعب نفسه وقد فرقته السياسة الصهيونية، أو أن المجموعتين تمثلان نتيجة للسياسات الإسرائيلية، سياسة الفصل العنصري للمجموعة الإنسانية الأولى، والاحتلال العسكري والتطهير العرقي في ما يخص الثانية.

الخلاصة أن الصهيونية الأميركية جعلت أي مناقشة جدية لوضع إسرائيل ماضيا وحاضرا ومستقبلا أمرا محرما تماما، برغم أن إسرائيل هي المنتفعة الكبرى، وبتفوق هائل على غيرها، من المساعدات الأميركية. وليس من المبالغة القول أنها القضية الوحيدة التي بقيت قيد التحريم، بعدما توسع النقاش العام ليتناول بحرية (ولو ضمن حدود) قضايا مثل الإجهاض والمثلية الجنسية وأحكام الإعدام، بل حتى الموازنة العسكرية التي اعتبرت دوما مقدسة وفوق أي نقاش. إن في الإمكان إحراق العلم الأميركي علنا في الولايات المتحدة، لكن من المستحيل تصور مناقشة سجل إسرائيل تجاه الفلسطينيين منذ ١٩٤٨ الى الآن، فهذه هي القصة التي لا يسمح لها بالظهور.

إن في الإمكان التعايش على مضض، مع وضع كهذا، لولا أن نتيجته هي تصوير الانتهاك المستمر لإنسانية الفلسطينيين على انه فضيلة أخلاقية. إن تقارير التلفزيون عن القتل الذي يتعرض له أي شعب في العالم

تثير أشد الاستنكار من المشاهد الأميركي - عدا عذاب الفلسطينيين، الذي يظهر أن غالبية المشاهدين الأميركيين تعتبره عقوبة مستحقة. ويجري صرف أعمال القتل اليومية هناك على أنها من قبيل «العنف المتبادل»، وكأن رمي الحجارة من قبل شباب نفد صبرهم من الظلم والاضطهاد جريمة كبرى، وليس مقاومة شجاعة لمصير المهانة الذي تحاول إسرائيل المسلحة أميركيا فرضه عليهم - وليس إسرائيل وحدها بل «عملية السلام» تلك المصممة بعناية لوضعهم في معازل و «بانتوستانات» لا تصلح إلا للحيوان.

الجريمة الحقيقية هي المؤامرة المستمرة منذ سبع سنوات من جانب مساندي إسرائيل في أميركا، الذين يحاولون فرض وثيقة هدفها احتجاز شعب بأكمله كما في سجن أو محجر. ولا أستطيع فهم أو تصور محاولة تمرير هذا على انه «السلام» المطلوب إلا على انه أحط نوع من اللا أخلاقية. والأبشع في كل هذا أن هناك حائطا حديديا يحمي الخطاب الأميركي فيما يخص إسرائيل مانعاً أي سؤال يمكن طرحه على تلك العقول التي وضعت صيغة أوسلو ونجحت في تسويقها طيلة السنين السبع هذه على أنها تعني «السلام». ولا نعلم أيهما أكثر شراً: العقلية التي تعتبر أن لا حق للفلسطينيين حتى بالتعبير عن شعورهم بالظلم، لأنهم أحط من أن يتمتعوا بذلك الحق، أم تلك العقليات التي تواصل التخطيط لفرض المزيد من العبودية عليهم؟

لو كان هذا كل ما هنالك لكفى وزاد. لكن ما يفاقم وضعنا المزري إزاء الصهيونية الأميركية هو غياب أي مؤسسة هنا أو في العالم العربي قادرة على إيجاد البديل. كما أخشى أن تظاهرات الحجارة في بيت لحم وغزة ورام الله ونابلس والخليل وغيرها لن تنعكس في شكل فاعل على القيادة الفلسطينية المترددة، التي لا تستطيع الانسحاب أو التقدم. وهذا هو أشد ما يحزن.

---

*الثقافة الجديدة/ العدد 297/ كانون الثاني 2000

نصوص مترجمة

التحول إلى اليمين من الأسفل

لماذا تفوز الأحزاب اليمينية المتطرفة بأصوات الطبقة العاملة في جميع أنحاء أوروبا؟

أنطون جاغر

ترجمة: رشيد غويلب

أصبح صعود اليمين المتطرف، في الأربعين سنة الأخيرة، حقيقة مهيمنة في السياسة الأوروبية. منذ عام 1989، تمكنت الأحزاب اليمينية المتطرفة من زيادة قوتها التصويتية بمعدل بلغ قرابة 20 في المائة من الأصوات؛ وفي العقد الفائت، أصبحت على الأقل مرشحة للحكومة او وصلت إلى السلطة في دول مثل بولندا وفرنسا. بدأ هذا الاتجاه في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين مع الفوز الانتخابي لفيكتور أوربان في هنغاريا وأندريه دودا في بولندا، وسرعان ما وصل إلى النصف الغربي من القارة بنجاحات يمينية مفاجئة في إيطاليا وفرنسا وهولندا وألمانيا وأماكن أخرى. إن تقدم اليمين ليس موحداً بأي حال من الأحوال، ولكن يبدو من الواضح أن الديناميكيات السياسية تعمل لصالحه في الوقت الحالي.

ولعل الأمر الأكثر إثارة للدهشة بشأن القوى اليمينية المتطرفة الجديدة، والتي تشكل ثلاث كتل مختلفة في البرلمان الأوروبي، هو قدرتها على كسب الدعم بين صفوف الطبقة العاملة أكثر بكثير من الأحزاب الفاشية والرجعية السابقة. وهذا يثير أسئلة صعبة ولكنها حاسمة بالنسبة لأي مشروع يساري حالي ومستقبلي في أوروبا. كيف يمكن تفسير التحول البروليتاري الجديد نحو اليمين، وقبل كل شيء: هل يمكن تغيير اتجاهه؟

هذا السؤال ليس جديدا على التحليل الماركسي.

في وقت مبكر من عام 1941، تابع المنظر كارل كورش (1886 – 1960 منظر ماركسي وعضو الحزب الشيوعي في المانيا - المترجم) نجاحات حرب هتلر الخاطفة على جزيرة كريت من منفاه الأمريكي وقام بتفسير نظري طبقي جريء. وكتب كورش في رسالة إلى برتولت بريشت أن ما تم التعبير عنه في الهجوم الألماني هو "تحول طاقة يسارية إلى اليمين" – وهي رغبة ملتوية في السيطرة العمالية. وبعد عقود، لخص ألكسندر كلوغه (فيلسوف وكاتب ومخرج الماني 1932 - المترجم) وأوسكار نيغت (1932 – 2024 ، فيلسوف وعالم اجتماع الماني - المترجم) موقف كورش بخصوص الخلفية التاريخية للقوات الألمانية على النحو التالي:

"خلال تحقيقه، وجد أن الطاقم المدني لأقسام الدبابات الألمانية كان في الغالب ميكانيكي سيارات أو مهندسين، وممارسين ذوي خبرة في الصناعة. وجاء عدد كبير منهم من محافظات ألمانيا التي تعرضت لمجازر دموية على يد السلطات خلال حروب الفلاحين (1524 - 1526). وفقا لكارل كورش، كان لديهم سبب لتجنب العلاقة برؤسائهم. وفي الوقت نفسه، كان جميعهم تقريبًا يفكرون في تجربة حرب الخنادق عام 1916، والتي يدينون بها أيضًا لرؤسائهم، الذين لم يكن لديهم ثقة كبيرة بهم في ذلك الوقت، وبهذه الطريقة، ووفقًا لكورش، أصبح من الممكن للقوات أن تخترع بشكل عفوي ولأسباب تاريخية الحرب الخاطفة بنفسها".

على الرغم من أنه بعيد المنال من الناحية التحليلية، فمن المغري والمريح أن ننظر إلى صعود اليمين المتطرف في أوروبا من منظور مماثل. المناطق التي تمكنت من السيطرة عليها أخيراً أو منذ بعض الوقت مثل: ولاية تورينغن الألمانية، وضاحية بيلانكورت الباريسية، ومحافظة فلاندرز الشرقية في بلجيكا أو ضواحي فيينا كانت جميعها معاقل للحركة العمالية في القرن العشرين. ومن الواضح أن المطلب القديم بالسيطرة العمالية هناك تحول إلى كراهية شديدة للأجانب، وحلّت محل الرغبة في الإطاحة بالنظام البرجوازي محاولة سحق أضعف أعضائه. وسيرغب المرء - ان يعتقد مع كورش - أن خلف قناع الرجعية ما تزال هناك صورة تحررية محتملة، وأنه يمكن بناء مشروع يساري مرة أخرى على أنقاض الحركة العمالية.

هل غيرت الطبقة العاملة اصطفافها؟

منذ أوائل التسعينيات، عندما حقق اليمين المتطرف أول اختراقاته في أوروبا، ظهرت مجموعة كبيرة من أدبيات العلوم الاجتماعية التي يبدو أنها تدعم تفسير كورش. وكما هو حال العديد من الدراسات حول الشعبوية، التي تتبع فرضية "تغيير الاصطفاف": مع الانتقال إلى مجتمع ما بعد صناعي جديد، غادرت الطبقات العاملة الأوروبية تدريجياً بيتها السياسي السابق في الأحزاب الشيوعية والديمقراطية الاجتماعية وهاجرت إلى الطرف المضاد من الطيف السياسي. وبما أن التطرفين (في اليسار واليمين) يلامسان بعضهما البعض، كما فعل الليبراليون بالفعل في القرن العشرين فيما يتعلق بالشمولية في عصرهم، فقد كان بوسع العمال بنفس السهولة أن يجلبوا "طاقة اليسار" التي تحدث عنها كورش للتأثير على اليمين.

شكلت هذه الأطروحة الخطاب السياسي خلال

فترة التسعينيات الطويلة واكتسبت في ما بعد معقولية تتجاوز بكثير المناقشات الأكاديمية حيث اتخذ اليمين المتطرف بشكل متزايد موقفًا اجتماعيًا معاديًا لأوروبا. فقد تم تقديم التشكيلات اليمينية المتطرفة، من حزب الجبهة الوطنية الفرنسي إلى حزب الحرية النمساوي بقيادة يورغ هايدر، باعتبارها أحزابا عمالية أو تم إدراجها تحت عنوان "الشعبوية" - وهو مصطلح كان جديدا، نسبيا، في مفردات العلوم الاجتماعية في أوائل التسعينيات.

ومع ذلك، فإن نقاط الضعف في الأطروحة واضحة. ورغم أنها تلامس بعض سمات خطاب التطرف اليميني الجديد، التي تستحضر خصائص ثقافية بدلا من الهوية "العنصرية"، إلا أنها غالبا ما تحررها من وصمة تقليد ما بعد الفاشية وتصورها كمدافعة عن الطبقة العاملة التي تدافع عن نفسها. وقد تخلى عنها ممثلوها اليساريون. وفي الوقت نفسه، لا شك أن مفهوم الشعبوية يدين بجاذبيته إلى الطابع الجديد لبعض هذه الأحزاب. وبما أنها لا تمتلك جناحا عسكريا ولا يدعمها قدامى المحاربين الذين يشعرون بالمرارة، لهذا فمن الصعب مقارنتها بأسلافها الفاشيين. ومن ناحية أخرى، استمدت شعبيتها من الانحدار البنيوي للأحزاب في أوروبا: فقد ابتعد الناخبون عن أحزابهم التقليدية وأصبحوا جزءاً من نوع جديد من "الشعب" الافتراضي غير المحدد الذي يمكن إغراؤه بسهولة من قِبَل قوى اليمين المتطرف.

ان فرضية "الانتقال الى الجانب الآخر" كانت دائمًا أكثر من مجرد أداة تحليلية. وتحولت تدريجياً إلى برنامج سياسي شامل يدعو الأحزاب اليسارية إلى التكيف مع اليمين المتطرف والتعلم منه أو البحث عن قاعدة أخرى في الطبقة الوسطى الجديدة والبروليتاريا الخدمية متزايدة التنوع. وبما أن ناخبي اليسار السابقين قد غادروه، فسيتعين عليه العثور على ناخبين جدد. ان مصطلحات مثل "يسار لوبان" و"السياسة الحمراء والرمادية"، لم تدعم أدبيات التفسير الشعبوي لليمين المتطرف الجديد فقط بل دعت اليسار أيضًا ليحذو حذو ناخبيه السابقين، ورسائل وسائل الإعلام المثيرة للقلق والتحرك يمينا.

واليوم أصبحت عواقب هذه الأطروحة أكثر وضوحا. بالنسبة للمؤسسة اليمينية المحافظة، فهي بمثابة ذريعة لمزيد من التحول نحو اليمين، في حين تحاول أجزاء من اليسار إما استعادة أصوات الطبقة العاملة من خلال تبني تكتيكات يمينية أو التخلي عن قاعدتها السابقة بالكامل.

منذ أوائل التسعينيات، واجهت هذه الأطروحة معارضة. وأشار المنتقدون إلى أن نسبة إقبال الناخبين انخفضت اكثر من المتوسط في العديد من المناطق التي تعتبر الآن معاقل يمينية. وشددوا على أن الناخبين أحجموا عن أحزاب العمال بسبب خيبة الأمل إزاء إصلاحات السوق الليبرالية في التسعينيات والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، التي لا يجسدها مصطلح "العولمة" بشكل كاف، وليس بسبب كراهية الأجانب التي لا يمكن التغلب عليها.

ما عدا ذلك سلطوا الضوء على أن علاقات هؤلاء الناس باليمين المتطرف أضعف بكثير من علاقتهم السابقة بأحزاب اليسار، التي وفرت لهم عالمًا اجتماعيًا كاملاً. إن مجموعة الدردشة عبر الإنترنت ليست مثل تجربة بيوت الشعب الإيطالية "كاسا ديل بوبولو"، وأساسا، يفتقر البرنامج الاجتماعي لليمين المتطرف إلى أي رغبة في مواجهة السلطة

المتنامية لرأس المال.

وهكذا نشأت مغالطة إحصائية كلاسيكية في أبحاث القرن الحادي والعشرين حول الفاشية: النتيجة هي أن المناطق التي تصوت فيها نسبة عالية من العمال للفاشية قد حجبت حقيقة أن الأصوات المعنية تأتي من الفئات الوسطى، وليس من العمال الذين كانوا دائما مفقودين بشدة في قوام الأحزاب اليمينية المتطرفة. ليس هناك أي تحول نحو اليمين في الطبقة العاملة، بل إن العديد من العمال الحضريين الهابطين من طبقتهم ابتعدوا عن السياسة تمامًا. لقد انتقل البعض بالفعل إلى اليمين مع البرجوازية الصغيرة الجديدة ـ جزئياً بسبب الخوف من المنافسة في سوق العمل، وجزئياً بسبب كراهية الأجانب، ولكن ليس كعنصر جماعي فاعل واع طبقيا.

سيادة النزعات الفاشية بلا تعبئة

لقد أصبحت موضوعة التحول الى الجانب الآخر في السنوات القليلة الماضية، أكثر جاذبية. ويبدو لا يمكن إنكار حقيقة أن العمال في شرق ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وبريطانيا العظمى وهولندا لا يبقون في منازلهم أثناء الانتخابات فقط، بل يصوتون للأحزاب اليمينية المتطرفة بشكل متزايد. وقد أدت إلى حرب تفسيرات مريرة. تصر العديد من الأصوات على أن صعود اليمين المتطرف ليس بأي حال من الأحوال، كما قال كورش ذات مرة:

يمكن أن يُعزى إلى رغبة نفسية يسارية زائفة متصاعدة، بل يُفهم كتعبير عن عفن رأسمالي متأخر، وليس كتمرد يحتاج إلى عكس اتجاهه، بل كدافع لمهاجمته بشكل مباشر.

في الجوهر، هناك الكثير من الاتفاق بشأن هذا التشخيص: التكوين الطبقي لناخبي الأحزاب اليمينية المتطرفة الجدد، ليس متجانسا بروليتاريا؛ وهم لا يتفاعلون، في كثير من الأحيان، مع أي حدث من شأنه أن يشير إلى أي "تهديد" ملموس من الهجرة؛ ويجري خداعهم لاتخاذ القرار، من قبل الطبقة السياسية من ناحية، والجيش المتنامي من رجال الأعمال اليمينيين المتطرفين ووسائل التواصل الاجتماعي من ناحية أخرى، وانحراف أوروبا نحو اليمين يرجع إلى التقارير الإعلامية المثيرة أكثر من المشاكل الفعلية التي تواجهها أوروبا.

ووفقا لهذا النقد، فإن قاعدة اليمين المتطرف الجديد لا تتكون من "مواطنين ينتابهم القلق" بل من قطاعات انتقامية من البروليتاريا الرثة والفئات الوسطى غير القادرة على التعامل مع حقيقة التغير الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين. وقد حاولت بعض الأدبيات بشأن "الفاشية الجديدة" أو "الفاشية المتأخرة"، التي يمثلها مؤلفون مثل ألبرتو توسكانو وإنزو (فيلسوف ومنظر اجتماعي ماركسي إيطالي من مواليد 1977 – المترجم) ترافيرسو (باحث إيطالي في التاريخ الفكري الأوروبي، تولد -1957 المترجم)، وضع الأوهام الانتقامية لليمين المتطرف اليوم في هذا الإطار، وإظهار كيف تستحضر الظروف الجديدة أشباحًا قديمة.

وكما هو الحال مع مفردة "شعبوي" ذات الفائدة المحدودة للغاية عندما يتعلق الأمر بفهم اليمين الجديد، فإن مصطلح "الفاشي" يثبت أيضًا أنه قليل الإضاءة. وفي ضوء الإيديولوجية المفضلة، من "التبديل الكبير" المفترض للسكان إلى الأوهام العرقية القومية الأخرى؛ فمن الصعب نكران استمرارية القرن

العشرين. وكما لاحظ المؤرخ كريستوفر هيل ذات مرة، في السياسة، كما هو الحال في علم الأحياء، غالبًا ما تثبت العوامل البيئية أنها لا تقل أهمية عن النسب. ويواجه الفاشيون اليوم ظروفًا مختلفة تمامًا عن أسلافهم. على سبيل المثال، فقدت النزعة العسكرية قدراً كبيراً من أهميتها، ولم يعد اليسار يشكل تهديدا ثوريا. يكتب ديلان رايلي بدقة (أستاذ علم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا، بيركلي- المترجم)، أن خصوصية اليمين المتطرف المعاصر تصبح واضحة عندما يدرك المرء أن الفاشيين لم يتمكنوا تقليديا قط من الحصول على دعم قوي في صفوف الطبقة العاملة، وشكل هذا مصدر إحباط مستمر لكادرهم القيادي.

وصلت الفاشية الأوروبية إلى السلطة في وقت كانت فيه المواجهة الاجتماعية واسعة النطاق: انتصر هتلر وموسوليني بعد محاولات فاشلة للثورة البروليتارية، واعتبرتها النخب الخيار الواعد لتحقيق استقرار النظام الاجتماعي وضبط العمال مرة أخرى. لا توجد بروليتاريا قوية في أوروبا اليوم؛ وقد أدى تراجع التصنيع والبطالة إلى إضعاف العاملين بأجر بشكل خطير. وعلى النقيض من ثلاثينيات القرن العشرين، عندما كان العنف الفاشي في الشوارع مزدهرا، يعتمد اليمين المتطرف اليوم على إضعاف تعبئة المنافسين، في الانتخابات وبعدها.

على سبيل المثال، فاز حزب "إخوة إيطاليا" بزعامة ميلوني في الانتخابات، التي لم يشارك فيها قرابة أربعة من كل عشرة إيطاليين، وانخفضت نسبة المشاركة في الانتخابات قرابة 10 في المائة. وفي فرنسا، كان أداء حزب التجمع القومي الذي تتزعمه لوبان بأفضل حالاته عندما تكون نسبة إقبال الناخبين على التصويت في أدنى مستوياتها. وفي بولندا، حيث وصل حزب القانون والعدالة التابع للأخوين كاتشينسكي إلى السلطة، فهو لا يضم 1 في المائة من السكان في صفوفه.

من الواضح أن الأمر لا يتعلق بالجماهير، بل يتعلق بتمارين في إطار سلبية منسقة لا تكاد تقارن بالأحزاب الجماهيرية في القرن العشرين. وكما لاحظ ديفيد برودر (محرر مجلة جاكوبين الأوروبية ومؤرخ للشيوعية الفرنسية والإيطالية) في حالة إيطاليا، فإن "الصعود الأخير لحزب يميني متطرف في مهد الفاشية يدفع بالتأكيد إلى تشبيهات قوية"، ولكن "هذا لا يعني أن ورثة موسوليني يكررون، ببساطة الماضي في الحاضر، أو حتى أن العناصر الفاشية في ثقافتهم مستعارة دائمًا من إيطاليا في فترة ما بين الحربين العالميتين.

وتبين البيانات المتاحة الطبيعة المعاصرة العميقة لصعود اليمين المتطرف في أوروبا، فهو يعتمد على أنواع جديدة من الشبكات المتطرفة، وليس على العودة إلى عنف الفيالق الحرة أو النزعة العسكرية البولانغية (نسبة الى الجنرال الفرنسي ارنست بولانغر – المترجم) التي كانت متأخرة تاريخيا، وسعت إلى إنشاء مستعمرات في أوروبا. شرق. لقد وعد هتلر وموسوليني بإمبراطوريات استعمارية مثل تلك التي استحوذ عليها منافسوهم الفرنسيون والبريطانيون منذ فترة طويلة. وكان هدفهم كسر الحدود، وليس تعزيزها. بالضد من ذلك، يريد اليمين المتطرف اليوم عزل العالم القديم عن بقية العالم؛ ويدرك أن أوروبا لن تظل بطلاً قوياً في القرن الحادي والعشرين، ويمكنها في أفضل الأحوال أن تأمل في الحماية من جحافل ما بعد الاستعمار.

ماذا يقول لنا هذا عن تشريح الظاهرة؟ كما ذكرنا سابقًا، فإن الموجودين على اليسار والذين يريدون محاكاة نجاح اليمين المتطرف داخل أجزاء من الطبقة العاملة وأولئك الذين يتخلون ببساطة عن التضاريس الطبقية يواجهون المشكلة نفسها. إن الفرضية القائلة بأن العمال ينتقلون إلى اليمين المتطرف تجد بعض التأكيد التجريبي، ولكنها تنشأ من قرارات معيارية أولية أكثر من التحليل العلمي الرصين. والأمر الأكثر إثارة للدهشة بشأن النجاحات الانتخابية التي حققها حزب البديل من أجل ألمانيا والأحزاب اليمينية المتطرفة في الغرب بشكل عام هو أنها لا تعود إلى إعادة التعبئة، بل إلى تفكيك او إضعاف التعبئة، فمعظم العمال يبتعدون عن السياسة، في حين يتحول عدد قليل منهم إلى اليمين المتطرف، ويتم بعد ذلك تقديم هذا الجزء الصغير كممثل لعمليات تفكيك او إضعاف تعبئة عموم الطبقة العاملة.

وعلى هذا فإن عملية تفكيك التعبئة يُساء فهمها باعتبارها عملية إعادة تعبئة، إذ يقوم بعض الناخبين من الطبقة العاملة بتجربة تشكيل أحزاب جديدة، ولكن رد فعلهم المهيمن يتلخص في مزيج من اللامبالاة والانسحاب، وليس التحول المتمرد الى الجانب الآخر. وحتى الأعداد المحدودة التي تهاجر إلى اليمين، ما يخلق وهمًا بصريًا بانشقاق عام، تميل إلى أن يكون ارتباطها بالأحزاب اليمينية المتطرفة الجديدة أضعف بكثير مما كان عليه الحال سابقًا مع أحزاب اليسار (وهو النمط الذي يحدث في شمال فرنسا، حيث تمكنت لوبان سابقًا من التغلب على معاقل الشيوعية، ويتجلى ذلك بشكل خاص في ألمانيا الشرقية). إن التصويت لليمين المتطرف هو مسألة خاصة، ويحتفظ بها المرء لنفسه، وليس التزاما عاما، وهو سلوك أكثر عدوانية وسلبية منه نشطا، وغير موضوعي او ملزم أكثر منه موضوعي او ملزم.

في مقالته عن سيرته الذاتية وعن والديه الشيوعيين السابقين، وصف ديدييه إريبون (فيلسوف ومؤرخ فرنسي ولد في 10 تموز 1953) كيف كان لا بد من التعبير عن انتقال والده إلى اليمين المتطرف بطريقة مختلفة عن أسلوب حياة الشيوعي الذي التزم به سابقًا: ”على النقيض من التصويت للشيوعيين ”حيث يصوت بثقة ووضوح وعلنية، فإن التصويت لصالح اليمين المتطرف سيكون مخفيا عن الخارج، وحتى يتم إنكاره“. ويلخص إريبون اختلافًا آخر في الثقافة الشيوعية على النحو التالي: ”عند التصويت للجبهة الوطنية، ظل الأفراد كما هم“. الرأي الناتج هو مجموع قرارات تلقائية وردود فعل مسبقة.

مديات رد الفعل

عند النظر الى فرضية تغيير الاصطفاف، من المهم تجنب موقفين متطرفين: مثلما ان التطرف اليميني الجديد ليس تعبيرا حقيقيا عن احتياجات الطبقة العاملة، التي تخلى عنها اليسار التقدمي بشكل مفرط، كذلك هو ليس مشروعًا حصريًا للطبقات الوسطى والنخب، التي تتظاهر بأن لديها قاعدة بروليتارية. ان طريقا وسطا بين الاقتصادي والثقافي يحمينا من تحويلها إلى تمرد بروليتاري أو الادعاء بأن الانحدار الاجتماعي والاقتصادي هو مجرد هلوسة ناخبين يمينيين متطرفين.

إذا لم يكن صعود اليمين المتطرف تعبيراً مشوهاً عن ”المصالح المادية“، فلا ينبغي لنا، على العكس من ذلك، أن ننظر إليه باعتباره

"ظاهرة بناء فوقي" محضة، وبالتالي نحجب الأسباب الاقتصادية الكامنة وراء الأزمة الحالية. ومن الممكن أن يؤدي منظور كورش إلى تبريرات دفاع مريحة، ولكن هناك أيضاً نوع معين من مناهضة الاقتصاد التي تنطوي على خطر حجب التضاريس الاجتماعية، وبالتالي التخلي عن احتمال تغييرها. ولكي نفهم البيئة القابلة ببساطة للاشتعال، التي يقوم المتطرفون اليمينيون المهووسون بإيقادها، لإشعال الحرائق في أوروبا، فإننا في حاجة إلى قدر أقل من علم النفس الجماهيري والمزيد من الاقتصاد السياسي. إذا فهمنا الأمر بهذه الطريقة، فإن اليمين الجديد هو في الجوهر محاولة للسيطرة الخطابية على التناقض المركزي بشأن تمويل أوروبا: اقتصاد لم يعد قادراً على تحقيق أي ارتفاع كبير في الإنتاج، وبالتالي يعتمد على العمالة الرخيصة لتحقيق نموه الهزيل، يواجه شعباً يرغب على نحو متزايد في رؤية تدخل الدولة في إدارة النظام. أحد الجوانب التي غالباً ما يتم إهمالها بشكل خاص هو كيف تدعم العوامل الاقتصادية الوضع المتناقض للهجرة في الحياة الأوروبية العامة. بعد التراجع الجزئي للتصنيع في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، ظل توفير العمالة الرخيصة أمرا لا غنى عنه: كان النمو الديموغرافي مطلوبا لدعم قطاع الخدمات المتوسع وكذلك لدعم القدرة التنافسية للصناعة الأوروبية في سوق عالمية متزايدة التنافس. وعلى الرغم من خطابها المنمق، فإن الأحزاب المحافظة لم تفعل الكثير، في العقود الأخيرة، لتغيير هذا النموذج الهش للنمو. في بريطانيا العظمى، على سبيل المثال، لم يخفض حزب المحافظين عدد المهاجرين في السنوات العشر الماضية، ولم يقم حتى بأدنى محاولة لتشجيع نقل الإنتاج الصناعي إلى أراضي البلاد، كما فعل جو بايدن، بينما تزايد الغضب في قواعدهم.

لقد تزايد السخط بين السكان البريطانيين منذ نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين على الأقل، عندما أصبح الشعور أقوى في المستويات الدنيا من سوق العمل بأن الهجرة قد لا تكون السبب في ضعف الدخل، ولكنها مع ذلك جزء لا غنى عنه من نظام الأجور المنخفضة، الذي التزمت به النخبة السياسية. ما تمكنا من ملاحظته في السنوات الأخيرة، ليس في بريطانيا العظمى فقط، هو انفجار هذا السخط في شكل "سياسي مفرط" سيميز عشرينيات القرن الحادي والعشرين: التحريض دون تنظيم دائم، والعفوية قصيرة المدى دون تعزيز المؤسسات. مثل هذه "نقاط رد الفعل" (زناد البندقية)، كما يسميها ستيفن ماو (الماني وأستاذ علم الاجتماع السياسي - المترجم) وفريقه البحثي، يمكن بسهولة أن يتم شحنها من قبل مجموعة جديدة من اليمينيين المتطرفين المؤثرين.

إن كراهية الأجانب المتزايدة حاليا لها أيضا بعد دولي. فهل من المفاجئ أن الدول التي تعمل بمثابة كلاب لسلسلة الهيمنة الإمبراطورية المتدهورة وتدعم الإبادة الجماعية دون قيد أو شرط في الشرق الأوسط، تصبح شهودا على أن عقلية الحرب هذه تأتي بنتائج عكسية على بلادها؟ لقد قامت كل من بريطانيا وألمانيا بتطبيع جرائم الحرب المستمرة في فلسطين وبررتها مرارا وتكرارا، ما أعطى دفعة كبيرة للقوى الدافعة نحو العنف ضد المسلمين. خلافاً للأشكال السائدة من معاداة السامية، فإن المواقف المعادية للمسلمين نادراً ما تكون مصحوبة بإسقاط قدرة عالمية مطلقة. وبتعبير

أدق يتم تصوير "المسلم" كشخصية متناقضة بشكل خطير. وفي لعبة المحصلة الصفرية للرأسمالية المتأخرة، يُنظر إلى قدرته على الحفاظ على الحد الأدنى من التماسك في مجتمعه على أنها ميزة في المنافسة في سوق العمل. ليس الخوف من الآخر هو الذي يخلق مشاعر معادية للمسلمين، بل الخوف من المماثل: من شخص يعتمد بنفس القدر على السوق، ولكن يفترض أنه أفضل تسليحاً ضد وحشيته. وفي الوقت نفسه، يُنظر إلى "المسلم" على أنه وكيل ثانوي للفكرة المجردة التي فرضها القطاع المالي على العالم المستقر في عقود ما بعد الحرب: فهو في المكان الخطأ، وهو المسؤول عن "تآكل الحدود"، على حد تعبير ريتشارد سيمور (عالم اجتماع ايرلندي يعيش في لندن- المترجم).

اختراقات

في عام 1913، طرح لينين فرضية مثيرة للجدل مفادها أنه وراء "المئة السود"، المنظمات الملكية الرجعية التي يعود إليها مصطلح "المذبحة" - يمكن للمرء أن يحدد "ديمقراطية فلاحية غير واعية" "خشنة للغاية، ولكنها عميقة جدًا" أيضًا. كان ملاك الأراضي الروس "يناشدون الأحكام المسبقة الأشد جمودا لدى الفلاحين الأكثر تخلفًا، مستغلين جهلهم". وأضاف لينين، لكن "مثل هذه اللعبة، لا تخلو من المخاطر. بشكل متكرر يخترق صوت حياة الفلاحين الحقيقية، وديمقراطية الفلاحين، كل رتابة المائة السود وروتينها". إن صعود اليمين المتطرف في أوروبا لا يحمل جوهراً تحررياً مشوهاً؛ فهو لا يتغذى على "طاقة" يمكن إعادة توجيهها. وفي هذا الصدد، يجب التخلي عن الأمل اليائس الذي قرأه كورش في الحرب الخاطفة. ان صعود اليمين المتطرف يرتكز على عالم من البؤس، الذي يشكل الغاؤه مهمة اليسار التاريخية. ومن وقت لآخر، وكما قال لينين، فإن صوت فلاح ما بعد الصناعة يخترق أيضًا كل "رتابة وروتين" الرجعية.

وما يجعل الوضع خطيراً إلى هذا الحد هو الافتقار إلى الاستراتيجيات الواعدة القادرة على تعزيز مثل هذه الاختراقات. لقد كانت حتى الآن، مسكنة اكثر من كونها معارضة حقيقية. ان التظاهرات التي تجري حالياً شهراً تلو الآخر في العديد من المدن الأوروبية قد تكون مفيدة في وضع خط أحمر والدفاع عن الحد الأدنى من متطلبات أي سياسة يمكن أن توقف اليمين المتطرف. ولكنها غير قادرة على ملء الفراغ الاجتماعي الضخم الذي يستغله اليمينيون المتطرفون الجدد في أوروبا.

أنطون جاغر: مؤرخ وأستاذ علوم سياسية بلجيكي، مختص بتاريخ الفكر السياسي، يعمل في جامعة أكسفورد.

الترجمة لنص بحثه المنشور بالألمانية في موقع مؤسسة روزا لوكسمبورغ بتاريخ 16 تشرين الأول 2024.

أدب وفن

ثقافة 2025

حسب الله يحيى

لا نريد أن نستبق الأحداث، خاصة وأنها ساخنة ومتحركة ومفاجئة ومغايرة.. لكننا نتحدث عن خطوط عامة، وآفاق قابلة للتنفيذ، وليس للخطط المكتوبة حسب، والموعودة حسب، والغائبة كلا.. لا جزءا!

وعندما نتحدث عن ثقافة ما بعد 2003، لا نجد أمامنا، ما يدعونا إلى التأمل، ولا إلى الانتباه والإشارة.

نعم.. المحتل الأمريكي وما صاحبه من فوضى، كلها ردود فعل لما كانت عليه السلطة السابقة من جور، لكن هذه الفوضى والتجهيل الممتد على الاصعدة كافة، لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية.

الثقافة بناء.. ولم نجد خلال ربع قرن ما يشير إلى هذا البناء.. فلا القيادات الثقافية التي تسلمت زمام الأمور، تملك المؤهلات التي تجعلها في هذا الموقع، الأمر الذي جعل النتائج غير مثمرة بـــل جرداء!

هذا واقع لا يمكن لأحد نفيه او إنكاره، وليس هناك مؤشرات لأفق جديد.. فالمدارس هي اللبنة الأولى للمعرفة، لا تؤسس لتربية ولا لتعليم.. ولا لمدرسة في الحد الأدنى من القبول، ولا الحد الأدنى من المناهج، ولا في الحد الأدنى من التعليم.. وكذا الكليات، وما تضخّه من رسائل ماجستير أطروحات دكتوراه.. باتت أفقر من الفقر، لأنها لا تدرس واقع المجتمع علميا ولا اجتماعيا، كما لا تحمل أمانة البحث ولا جدية المعرفة الجادة التي تُضيف وتُجدد وتُضيء.

وتتكاسل وزارة الثقافة والسياحة والآثار عن إغناء هذه المهمة الثلاثية، ولا تقوى حتى على إغناء إحداها.. وتكتفي بإصدار دليل منجزات هامشية لا قيمة لها تحت اي مسمى ثقافي او معرفي او إبداعي. في وقت يتقدم فيه اتحاد الأدباء والكتاب في العراق بمسافة شاسعة عن هذه الوزارة الكسلى، مع ان الاتحاد منظمة تعنى بشريحة اجتماعية أدبية.. ورصيدها المالي يعتمد على أعضائها وما تجود به الحكومة من دعم لبعض فعاليات هذا الاتحاد الذي تظل عيون أعضائه مقترنة بالعطاء أكثر من أي شيء آخر.

إزاء هذا الواقع.. لا بد أن نتساءل: هل نجد في الأفق حياة أفضل لثقافتنا ولمثقفينا في عام 2025 نجد خطابا جادا وجديدا على صعيد نشر الكتب النوعية، والمسرح الراقي، والسينما المجتهدة، والتشكيل المتجدد، والأماكن السياحية والآثارية التي نباهي عراقنا بها؟

الأمل معقود بكفاءات ثقافية وطنية فاعلة.. لها حضورها ومنجزها..

المثقف والفعل الثوري
الثورة و(شياطين) دوستويفسكي

د. رهبة أسودي حسين

في سؤال طرح على الشاعر السوفيتي الشهير (تفاردويفسكي) في أثناء رحلاته خارج بلده عن سبب حظر اعمال دوستويفسكي داخل (الاتحاد السوفيتي)، فكان جواب الشاعر؛ ان هذا غير صحيح تماما، لأننا بعد الثورة قمنا بإعادة طبع أعمال دوستويفسكي بأعداد أكبر بكثير من اعداد نسخ كتبه السابقة، وان لدينا ثروة ادبية غنية لا تحصى من مؤلفاته، وان هذا لا يمنعنا بوصفنا حائزين لها من الاقتراب لآراء كتابنا العظماء. ان هذه التصريحات تلخص الموقف الرسمي تجاه دوستويفسكي، فقد يقال ان هذا أمر متناقض في الأساس. لكن في الواقع من الخطأ القول إنه كان خلال العقود الثلاثة بعد الثورة تم اتباع الموقف التقليدي لما قبل الثورة. نعم، لم يتوقف المثقفون والنقاد الاشتراكيون أبدا عن المناقشات في أعمال دوستويفسكي. فهم لم ينكروا عبقريته الفنية ولكنهم ناقشوا أيضا آراءه السياسية والدينية، وقد أدى هذا الرأي الى كل أنواع الصراعات والمناقشات الفكرية لعبقريته الفذة.

يحتل دوستويفسكي مكانة بارزة بين طليعة الادباء الواقعيين الروس في القرن التاسع عشر: بوشكين، وليرمانتوف، وغوغول، وتولستوي. الذين لعبوا دورا كبيرا في تطوير الاتجاه الواقعي الانتقادي ليس في الأدب الروسي فحسب بل في الأدب العالمي ايضاً. وتعد نتاجاته الادبية إحدى الظواهر المعقدة في الحياة الادبية الروسية في

دستويفسكي

النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد كتب مؤلفاته تحت تأثير أفكار بيلينسكي التقدمية التي قادته الى حلقة بتراشيفسكي الاشتراكية. وكان في العشرينيات من عمره عندما انضم إلى دائرة من المثقفين المتطرفين في سان بطرسبرغ الذين انبهروا بالنظريات الاشتراكية الطوباوية الفرنسية مثل سان سيمون وفورييه وغيرهم. لقد كانت له علاقات مع الكثير من الادباء التقدميين، من كل ايديولوجيات أجواء الاربعينيات من القرن التاسع عشر. لم تكن هذه الجماعات ذات اتجاه واحد، فإلى جانب المجموعة الثورية-الديمقراطية يظهر أنصار الاتجاه الليبرالي.

لقد شجعت الثورة البرجوازية في اوربا عام 1848 اتباع بيتراشيفسكي وحفزتهم في أنشاء مجموعة سرية خاصة هدفها القيام بانقلاب في

روسيا. لقد كان دوستويفسكي مشاركا نشيطا في الجماعة ويقترب من الجناح الثوري. أبلغ أحد عملاء الشرطة الذي تسلل إلى المجموعة السلطات في 24 أبريل 1849، وأُلقي القبض على دوستويفسكي وسُجن مع الأعضاء الآخرين، وبعد بضعة أشهر من التحقيق، أُدينوا بالتخطيط لتوزيع دعاية تخريبية وحُكم عليهم بالإعدام رميًا بالرصاص. تم تخفيف العقوبة إلى عقوبة النفي والأشغال الشاقة، ولكن تم تأكيد سلطة القيصر في إصدار حكم بالسجن مدى الحياة أو الموت من خلال إجبار السجناء على الخضوع لمحنة الإعدام الوهمي في تمثيلية تم تنظيمها بعناية، تم نقل دوستويفسكي وبقية المجموعة في صباح يوم 22 ديسمبر 1849 إلى ساحة العرض العسكري، حيث تم نصب السقالات وتزيينها بالكريب الأسود. تمت قراءة جرائمهم والحكم عليهم وطلب منهم كاهن أرثوذكسي التوبة. وتم ربط ثلاثة من المجموعة بالأوتاد استعدادًا للإعدام. وفي اللحظة الأخيرة سُمع قرع الطبول، وأنزلت فرقة الإعدام بنادقها. وبعد إرجاء تنفيذ حكم الإعدام، تم تقييد السجناء وإرسالهم إلى المنفى السيبيري وقضى دوستويفسكي مدة أربع سنوات من الأشغال الشاقة، تلتها الخدمة الإجبارية في الجيش الروسي. في عام 1859، سمح القيصر الجديد لـ(دوستويفسكي) بإنهاء منفاه السيبيري.

لقد ولدت هذه التجربة لدى دوستويفسكي انطباعات فكرية نتعرف عليها مما طرحه عدد من المفكرين والباحثين اجمعوا آراءهم في النقاط الآتية:

1. ان تجربة السجن ولدت لدى دوستويفسكي ان يفهم عبثية مقترحاته السابقة للثورة الاجتماعية وهذا ما عكسه في روايته "ذكريات من بيت الموتى". الرواية التي كتبها عن ذكريات منفاه في سيبيريا حيث نُشرت بين عامي 1860 و1862 فقد مكنته هذه التجربة باختبار حقيقة المشاعر الشعبية التي تعرف عليها. فكان اتصاله واقعيا بإفراد من شعبه وجعله يدرك زيف ثورة أفكاره ومدى بعد هذه الافكار عن الوعي الصادق لدى افراد شعبه ضمن قيم لم يدركها سابقاً.

2. أدرك دوستويفسكي أنه على الرغم من أن هؤلاء الرجال العاديين تم عزلهم عن الآخرين بسبب الحساب على جرائم مختلفة ارتكبوها، ولكنهم لم ينفصلوا عن قومهم (شعبهم الروسي) وعن عقيدتهم وعن وعيهم الديني (النقي). لقد أدّهش دوستويفسكي بشدة من وجود إيمان عميقً وأدرك قوة الوعي الحقيقي لهؤلاء الناس. فكان رفاقه في السجن متحدين في وعي قوي لبؤسهم، فضلا عن الإيمان الكبير بالله وروسيا بوصفها دولتهم. لقد اعاد دوستويفسكي ترتيب افكاره. فقد منحته هذه التجربة منظورًا مختلفًا تمامًا عن مستقبل روسيا وقدرتها في كيفية تحديد وايجاد الوسائل لتغيير الاوضاع الداخلية ضمن منطلقات كبرى، فضلا عن الدور الذي يمكن أن تلعبه في العالم مستقبلا. كان دوستويفسكي من بين أوائل المتمردين على أفكار الاشتراكية الأوروبية ورأى خطرها على شعبه، فكتاباته عن الأفكار الثورية وتداعياتها سيئة ليس لأنها ثورية، بل لأنها ليست ثورية بما فيه الكفاية. فالذين يريدون أن يغيروا شيئًا واحدًا فقط بدلاً من تغيير شكل العالم كله.

3. اتضحت لـدوستويفسكي، بعد إنهاء منفاه السيبيري، بعض الحقائق منها: تصدر بعض الافراد (المثقفين) الذين قد يكونون من بين الأفضل، ولكن ليس لديهم الحق في انتهاك المجتمع باسم تفوقهم الشخصي؛ وفي تنصيب أنفسهم أوصياء على المجتمع. فالحقائق العالمية التي صيغت بنظريات كبرى هي اختراعات

عقول فردية ولكنها تبقى لها جذورها في مشاعر الشعب كله، فهي بطريقة وأخرى كانت راسخة في طبيعة المجتمعات المختلفة ولاسيما مسألة الايمان في الثورات الكبرى فهناك حقيقة لها معنى ديني وترتبط حتماً بالإيمان المسيحي لدى عامة الناس.

4. عند الاقتراب من أعمال دوستويفسكي، يواجه المرء بالضرورة شخصية المسيح ويتولد الشعور بالنزعة الإنسانية المسيحية بعمق. وبالتالي يبحث عن إنسان مؤمنا ليفهم المسيحية بعمق في فكر دوستويفسكي، كما هو مطلوب، وهذا يعني الوصول إلى قلب أعماله والاستخلاص من جذورها الحقيقية ضمن مشاعر نقية (شعبية – فطرية) عاشها دوستويفسكي في السجن والتي ولدت القوة الروحية في تجديده بوصفه المثقف الروسي الشهير في عالم يتم تعريفه غالبًا على أنه عالم ما بعد الإنسان، فإن الثورة الثقافية المتوقعة، هي الطريقة التي يجب فيها إعادة تعلم "أن تكون إنسانًا" ضمن دفاع دميتري كارامازوف (احدى شخصيات رواية الاخوة كارامازوف) إلى القول، في لحظة سخط، يشير بذلك إلى أن النفس البشرية واسعة جدًا، وواسعة جدًا لدرجة أنه لا يمكن حتى التفكير في تقليصها.

كان مؤتمر كلية لندن الجامعية 2017، "دوستويفسكي الثوري: إعادة التفكير في الراديكالية" محاولة في فهم الطرق التي يمكن من خلالها ربط أفكار دوستويفسكي بـ "الثورة". وفي هذا المؤتمر كان بحث البروفيسورة (كارول أبولونيو) الرئيسي يحمل عنوانًا استفزازيًا، "دوستويفسكي البلشفي". لقد اعترفت الكاتبة بحقيقة أن دوستويفسكي كتب عمدًا ضد الكتاب الثوريين في عصره بما في ذلك تشيرنيشيفسكي وبيزاريف. حيث يبدو أن "دوستويفسكي" و"الثورة" زوجان غير متوقعين من الرفقاء.

فهو كاتب سعى بنشاط إلى دحض الأيديولوجيات الثورية في عصره، مع الحفاظ على الدعم القوي للنظام الملكي الروسي.

قد يكون من الأفضل فهم دوستويفسكي على أنه كاتب "مناهض للثورة". ولكن هل هذا كل ما يمكن قوله في هذا الشأن؟

كشفت البروفيسورة أبولونيو النقاط في ثورية دوستويفسكي البلشفي وهي:

1. التيارات الخفية للثورة التي تنبض في أعماله الروائية في شاعريته الثورية، التي أنتجت روايات آسرة تهيمن عليها وجهات النظر المناهضة للبطولة. متمردو دوستويفسكي المشهورون الذين ما زالوا يبدون معاصرين بالنسبة لنا بعد نحو 150 عامًا من نشرهم. فأن روايات دوستويفسكي تتغلغل بشكل أعمق في النفس الثورية أكثر من غيره من الكتاب "المناهضين للعدمية" في عصره.

2. الاحترام العالمي الممنوح لـ(دوستويفسكي) في جنازته، عندما اجتمع الثوار والمحافظون معًا في عرض إعجاب من الحزبين. تشير كل هذه الأمور إلى أن دوستويفسكي والثورة متشابكان بشكل أكثر تعقيدًا مما قد يبدو للوهلة الأولى.

3. يمكن تعديل تعريف "الثورة" بحث لا ينبغي أن يشير "التفكير الثوري" دائمًا إلى الرغبة في التغيير المجتمعي القسري باسم المُثُل البروليتارية في أوروبا الغربية. وبدلا من ذلك، قد يشير، على نطاق أوسع، إلى إمكانية حدوث تحول مجتمعي و/أو شخصي جذري.

4. يمكن الإشارة الى قول لنيكولاي فيدوروف في القرن التاسع عشر، إلى أن (ثورة دوستويفسكي)، لا تحتاج إلى الإشارة فقط أو إلى طفرة سياسية أيديولوجية، ولكنها تحتاج إلى تحول وجودي شامل. فدعوته الثورية تكمن في عدم التغيير المفاجئ والقسري، كما ان دعوته تتضمن تغيير

وجودي جذري للفرد ولكن هذا التغيير الفردي ليس بعيداً عن الظروف الموضوعية للمجتمع بجميع جوانبه (الاجتماعية – الدينية – الثقافية – الاقتصادية).

لا تختلف شخصيات رواية (الشياطين) عن بقية شخصيات روايات دوستويفسكي، وكما يجدها (هرمان هسه) في رواية (الأبله) فمجتمع روايات دوستويفسكي ذو القطبين، تجد أناسا دنيويين أنيقين (الغني، القوي والمحافظ) وفي القطب الآخر تجد الشباب الشرس الذي لا يرحم والذي لا يعرف شيئا عدا التمرد والكراهية للتقاليد بشكل قاس ومتوحش بغباء لا يعقل لكل ثقافة نظرية. ولكن هناك نقاط مهمة تتصف بها هذه الشخصيات وهي:

1. ان ما هو ملحوظ ومهم ومصيري هو أنه كانت هناك، في مكان ما في روسيا في خمسينات والستينات القرن التاسع عشر عبقرية مصروعة لديها أوهام وخلقت شخصيات نتفاعل معها وكأنها جزءا منا. وأصبحت أعماله أعمالا تنبؤية ذات اهمية متزايدة للشباب في اوربا نفسها.

2. ان الشيء الغريب هو أننا ننظر الى وجوه مجرمي وهيستيريي وبلهاء دوستويفسكي نظرة مختلفة تماما عن وجوه المجرمين الآخرين أو الحمقى في روايات مشهورة اخرى، شخصيات دوستويفسكي التي نفهمها ونحبها على نحو غريب لدرجة أننا يجب ان نشعر في أنفسنا بنوع من الارتباط بهؤلاء الناس.

3. يتنبأ دوستويفسكي بعلم نفس متطور للاوعي بنبوءة كمرآة سابقة (للانحلال والفوضى) التي سادت بشكل مفتوح في اوربا خلال السنوات العديدة الماضية. فان جميع مرددي الفوضى (دون هدف) هم عند دوستويفسكي مجرد مرضى ومثيرون للاشمئزاز ومثقلون بالأعباء.

يبقى القارئ في حيرة من أمره، هل يمكن ان تكون ضخامة الاحداث وطبيعة الأوضاع في روسيا يجسدها لاعبون بمستوى شخصيات رواية (الشياطين) على الرغم من هالات الغموض التي تحيط بالشخصيات والحوارات بين شخصيات الرواية أو تصرفاتها؟

هل يمكن لهذه الشخصيات ان تنال تسمية (الشياطين) أو الممسوسون أو بالأبالسة)؟ فمن هم (الشياطين) فعلا؟! في رواية (الشياطين)، يقتبس دوستويفسكي فكرة المجموعة الثورية من قضية نيتشايف التي حدثت عام 1869. فهو يجمع بين قضية نيتشايف ومعتقداته الخاصة من أجل خلق الحبكة المركزية للشياطين. يصور دوستويفسكي مجموعة متطرفة ترغب في الإطاحة بالحكومة وتقويض الكنيسة الروسية وفي هذا انعكاس لاعتقاد دوستويفسكي بأن الثوريين يمتلكون روح روسيا، وأنه ما لم يتم طردهم من خلال الإيمان المتجدد بالمسيحية الأرثوذكسية والقومية الروسية الخالصة، فإنهم سيقودون بلاده إلى الهاوية.

حيث تضم رواية (الشياطين) فئات المثقفين وهم:

1. المثقف الليبرالي: الذي يجد الغرب ايقونة التقدم الحضاري ويتجه نحو المستقبل رافضاً الماضي، ويمثل الغرب، في نظره، أنموذجا رائعاً للحضارة والتقدم. وينظر الى مجتمعه بنوع من الاحتقار فيؤكد على التشبث في مظاهر الحياة الغربية من التقليد والمحاكاة في (التعليم والمآكل والملبس وتعلم الموسيقى الغربية وصيغ التعامل اليومي من خلال الكلمات الفرنسية)، ليصل هذا التقليد والمحاكاة الى ظاهرة الانتحار. اما انتاجه الثقافي فلا يخرج عن اطر وشخصيات الغرب بل تصل درجة التقليد وعلى وفق ما يطلق عليه دوستويفسكي بنوبات الحزن الحضاري وهو نوع من الكآبة الحضارية الاوربية.

2. المثقف الثوري: هو المعارض الذي ينتظم

عضوياًفي جماعة ثقافية-ثورية-تغييرية لتجديد المجتمع والدولة حيث يضم التنظيم الثوري الذي يخطط لأعمال تعد ثورية خليط من الرجال الصالحين (الرجال اللطاف المحبوبين) ومن الرجال الطالحين كانوا الرجال الصالحين أكثر استعصاء على الفهم من الطالحين. كانت أهدافهم تدور في إطار عقد اجتماعات ومناقشات تتضمن الغاء الرقابة وقواعد الاملاء وإحلال الألفباء اللاتينية محل الأحرف الروسية وترحيل فلان من الناس وتقسيم روسيا الى قوميات يضمها اتحاد فدرالي حر والغاء الجيش والبحرية واحلال قوات خاصة محل الجيش والعمل على الاصلاح الزراعي والبيانات الثورية وعلى الغاء حق الإرث والمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء، والحقوق المدنية، وسيادة صراع الاجيال الفكري للمخالفين لهم بوصف أحدهم (عتيقا باليا)، ويعاملونهم معاملة (طاقية عتيقة من القطن). تضم هذه الفئة شخصيات مختلفة تتنوع وفقا لانحدارها الطبقي ومستواها التعليمي، فمنهم الطفيلي الذي يعيش على موائد من يدفع ثمنها ومنهم الذي يمارس (احط) الاعمال. يحملون تناقضا فكريا فهم يعتنقون فكرة تسيطر عليهم سيطرة تامة فينبرون بالدفاع عنها فيكونون تحت وطآة التشنج اخلاصا لهذه الفكرة وعند التخلي عن هذه الفكرة ينتقلون بشكل جذري للدفاع عن فكرة تكون نقيض الفكرة السابقة ولكنهم يتبنون الموقف المتشنج ذاته في الدفاع عن الفكرة الجديدة. وتبرز منهم شخصيات مثل شخصية نيتشايف (ستافروجين) البطل في الرواية والشخصية الأساسية الغامضة. (فهو يجسد العاطفة الشديدة والتأثير الحاقد والعدمية ويفسد الناس من حوله وان لا تترك حجرا على حجر هذا هو الضروري أكثر من أي شيء اخر.... ربما سوف لا نحظى بحياة جيدة أم لا، ولكنها على كل حال سوف تكون أفضل مما هي عليه الآن....) ولكن الامر الرئيسي أنه طوال الرواية لم يتعرف القارئ عن الأسباب التي جاء من أجلها البطل (ستافروجين). اما شخصية (شاتوف) الذي يعلن ضحالة المثقف الثوري امام الوطن والشعب بهذه الكلمات:

كانوا لا يحبون شعبهم؟ هم؟ آه ...لشد ما كانوا يحبون روسيا!

لا، لا الشعب ولا روسيا. ان المرء لا يستطيع أن يحب ما لا يعرف. واولئك كانوا لا يعرفون الشعب الروسي شيئا البتة، ولا يفهمونه أطلاقا.

3. المثقف الرجعي: تضم جنرالات الجيش وشعارهم (أنا خدمت قيصري) لغرض تعزيز وطنيتهم وكأن القيصر كما يذكر دوستويفسكي (قيصرهم ليس قيصرنا، نحن رعاياه البسطاء المخلصين وكأن قيصرهم الخاص خلق لهم وحدهم من دون غيرهم). يجمع هؤلاء الانحدار الطبقي والعمل الوظيفي ونشوة الحكم وقربهم من السلطة.

فنحن امام نقاط نتبع خطواتها منذ الصفحات الأولى للرواية، فلم يكن دوستويفسكي يخشى الأفكار الثورية ضمن مفهوم الإصلاح. فلم نكن نقرأ أعمال دوستويفسكي دون ان يكون هناك تصوير أحوال المجتمع من فقر وفساد أخلاقي، فالثورة نلتمسها في كل كلمة من رواياته ولكنها ثورة إصلاحية ضمن مبادئ وأهداف كبرى وكلية لتصبح ضمن أولويات وغايات المجتمع وضمن أفكار رفض شيوع المحرمات ورفض نسف قدسية الثوابت.

النص بين الواقع والمجتمع

د. شاكر كتاب

تحظى العلاقة بين الأدب والمجتمع باهتمام كبير من لدن الدارسين والمفكرين والنقاد والفلاسفة أيضا. وقد بحثت هذه الموضوعة مرات عديدة للإجابة على سؤال: ما طبيعة هذه العلاقة وكيف نشأت وما مستقبلها وهل فعلا أن النص الأدبي بما فيه من مشاعر وتجارب ذاتية ووجدانية وأفكار ووجهات نظر لا يعدو عن كونه فعالية إنسانية ذات سمات فردية وانعكاسا عن معاناة الكاتب شخصيا وبالتالي لا ينبغي التعويل على إيجاد صلات بين هذه النصوص وبين المجتمعات التي ولدت فيها؟

كما أننا نجد في الطرف الآخر مواقف مغايرة. فهي ترى أن النصوص الأدبية، وكل نشاط فني وفكري، بما في ذلك الفلسفية منها إنما هي وليدة مجتمعاتها وتأثيراتها الثقافية، وبالتالي هي مرايا لواقعها وصورة تحاكي حقيقة المجتمع مهما اختفت تفاصيله واندست بين طيّات عوالمه الخفية.

بل هناك من المدرسة الثانية من يبسّط الأمور ولا يعطي للنصوص الأدبية مكانةً أكثر من كونها تعبيرا عن تطلعات المجتمع وغاياته وأهدافه. هذا التسطيح والمباشرة في النظر إلى النص الأدبي يفقده هويته الفنية والأدبية فيحوله إلى ما يشبه المقال الصحفي المتابع لأحداث يومية جارية، ملغياً تماماً العالم الفني الغني للنصوص، ومتجاوزا للتجارب الشعورية العميقة التي أودعها الكاتب في كتاباته وأفكاره ورؤاه.

نحن حين نكون إزاء النص نكون في مواجهة عالم عميق ومتشعب ومتواصل مع عوالم أخرى من نصوص ومتداخل معها في تناص واسع يضفي على النص آفاقا بعيدة ومساحات شاسعة. ومناهج النقد تتسع لتشمل عدا جانب العلاقات الاجتماعية أبعادا فكرية عديدة أخرى: النفسي والفلسفي مثلاً وغيرها ويبقى أهمها في رأيي البعد الفني.

وفي ظني أن أصحاب نظرية (الفن للمجتمع) هم ومتلقيهم من بعض كتابنا العرب بحاجة ماسة إلى مراجعة فهمهم لنظرية (الفن للمجتمع) التي تحولت النصوص جراءها إلى وليد سلبي ومشوه للواقع القائم قبل أية قيمة أدبية وفنية حقيقية أخرى. كما أن نظرية محاكاة المجتمع هذه هي الأخرى فهم مبسط لنظرية المحاكاة الاغريقية. لذلك بنا حاجة هنا

إلى بسط هذه النظرية هذه بقدر تعلقها بالأدب والفن لنستخلص منها ما هو مفيد بشأن العلاقة أخيرا بين الأدب والمجتمع.

المحاكاة:

إن أرسطوطاليس هو الأقرب الى الواقع وحتى المنطق من سابقيه سقراط وأفلاطون فيما يتعلق بالنظر إلى الشعر والفن. ففي رأي سقراط وأفلاطون نجد أن الفن والشعر تقليد، وهنا يكمن جوهر فلسفتيهما المثالي أو الميتافيزيقي. والتقليد في الحقيقة هو أساس النظام الفلسفي لهما ومجمل هذا الأساس أن الوجود ينقسم في ثلاث دوائر: الأولى، المثل، والثانية، عالم الحس، وهو صورة للأول، والثالثة، عالم الظلال والصور والأعمال الفنية. بمعنى أن الفنان سيكون بعيدا عن الحقيقة بثلاث خطوات أو كما قال أفلاطون: "الشاعر التراجيدي محاكٍ وهو كغيره من المقلدين يبتعد ثلاث مرات عن الملك وعن الحقيقة". (احسان عباس- فن الشعر17-.). وأرسطو نفسه يستعمل مصطلح المحاكاة أيضا لكنه يبتعد تماما عن عالم المثل حين يتحدث عن الشعر والفن قائلا إنه "يعد نوعا من أنواع المحاكاة". والقصيدة عنده محاكاة إذا كانت كلا محسوسا إذا استطاعت ان تثير العواطف.

ومن الواضح أن أرسطو حين يستبعد عالم المثل ويبقي على مبدأ المحاكاة أنه يقصد محاكاة الحالة الشعورية لدى الشاعر نفسه. وفي الحقيقة فإن أرسطو يضع أفكارا هنا كبذور ستتسع وتنمو في المستقبل لتغدو على يد: ت س أليوت نظريةً لما سمّي بـ (المعادل الموضوعي) حين يشترط قدرة الشاعر على رسم الصورة التي تحمل مشاعره ومن تتمكن هذه الصورة من إيصال هذه المشاعر أو لنقل التجربة الشعورية إلى القارئ. والمحاكاة عند أرسطو تنقسم على قسمين إما مثالية بمعنى أنها تصوير الشيء كما ينبغي أن يكون، أو واقعية بمعنى أن تقوم بتصوير الشيء كما هو قائم. لكننا من هذين النوعين نستطيع أن نفهم ماذا يقصد أرسطو بـ (المحاكاة) إذن؟ والصياغة الأصح للسؤال هي ماذا يحاكي الشاعر؟ وفي أي عالم يقع هذا الشيء الذي يحاول الشاعر محاكاته؟ إنه يحاكي الواقع، إما المحيط به أو الكامن في داخله، لأن ما في داخله هو جزءٌ من الواقع وامتدادٌ له. ومهما يكن من شيء فإنه سيلجأ الى التصوير، والتصوير نفسه فن جميل وراقٍ في الوقت نفسه. قال الجاحظ "أن الشعر صياغة وضرب من التصوير" وفي نظرية هوراس عن الشعر نقرأ أن الشعر كالرسم، وهناك من يقول: الرسم شعر صامت والشعر صورة ناطقة. إذن الشعر فن يعتمد على ملكة الفنان وقدرته على أن ينقل الواقع بواسطة الكلمات إلى مبنى القصيدة وبواسطة التصوير تنتقل إلينا تجربة الشاعر وأحاسيسه وأفكاره فتؤثر فينا. وبهذا يكون الشاعر قد نجح في تحقيق ما أراد. ويضيف يونج نوعا آخر دون أن يعلنه رسميا لكنه في معرض كلامه يقول إن المحاكاة نوعان؛ محاكاة الطبيعة ومحاكاة للمؤلفين الآخرين. ثم يقول إن الأولين هم الأصلاء. لكنه لا يقول إن الثانين هم المقلدون وهم يبتعدون في هذا عن الأصالة ويتقربون من موقع الببغاوات.

محاكاة الطبيعة بكل عوالمها الخارجية والداخلية، محيط الإنسان وما يكمن في داخله، في داخل الإنسان نفسه، هكذا ينبغي أن نفهم الطبيعة. فالإنسان بتمامه وكماله جزء

من الطبيعة ولا يمكن فصله عنها.
صحيح أن أرسطو حين تحدث عن المحاكاة كان يقصد الطبيعة لكنه لم يذكر، ولا من جاء بعده، هل التعبير عن الانفعالات الداخلية للشاعر نفسه وعن كيانه الداخلي هو أيضا محاكاة أم ماذا؟
ويبدو لي أن السبب في ذلك يعود إلى أن الشعر المعروف في محيط أرسطو آنذاك لم يتعد الأنواع الاتية: التراجيديا والكوميديا والملحمة والاستعراضات المسرحية الدينية الغنائية الباخوسية. لكن مع تطور استخدام هذه النظرية عند النقاد وعلى مر العصور ظهرت مواقف متنوعة منها. في الغرب نجد أنها أسهمت بدور فاعل في "تحديد النظرية الشعرية". (عباس 19).
لكننا لا نعدم أن نجد من أراد للنظرية أن تشمل الشعر الغنائي الأمر الذي تحفظ حوله إحسان عباس في حين نجد إن الغنائية هي وليدة الوجدان المتكون من المشاعر والعواطف وتلك تأتي عن فعاليات غدد يتكون منها جسم الإنسان الذي هو جزء من الطبيعة، لذلك فإن القصيدة تحاكي الإنسان ودواخله كما تحاكي الطبيعة وهي خارجه. ويمكننا هنا توظيف قول (باتو) الذي استخدمه عباس لدعم رأيه.
إن المحاكاة ليست محاكاة للحقائق اليومية وإنما هي محاكاة للطبيعة الجميلة أي بجمع خصائص المفردات وتكوين نموذج يحتوي على كل ما في الأجزاء من كمال. ولا أظن أن (باتو) كان يفصل بين الإنسان والطبيعة لاسيما إن الإنسان ليس هو الشاعر فقط وإنما الإنسان كله كنوع بشري.
في حين يفترض أن يكون لذاتية الشاعر أو الفنان أثر في العمل الفني.
إن كل انفعالات الإنسان هي وليدة تظافر عوامل عدة لعل أهمها أو ما يشكل جزءاً فاعلا منها هو الواقع المحيط بالإنسان وعلاقاته، بكلمة واحدة البيئة الشاملة للطبيعة والمجتمع في آن.
ولقد ماتت فكرة تقسيم فرضيات العمل الفني إلى أربعة اعتبارات: "العمل الفني نفسه والفنان والجمهور والطبيعة أو الكون الذي يستمد منه الفنان". هذه الفرضية تفصل قسرا بين الإنسان الفنان والطبيعة والجمهور. وكأن الفنان والجمهور ليسا من الطبيعة. والفرضية هذه كان يراد لها أن تكون ردّاً على رأي أرسطو الذي اكتفى بثلاث فرضيات منها فقط (ولم يعر الفنان اهتماماً واضحاً). اننا ننظر إلى الفنان بوصفه جزءاً من الكون ولعله العنصر الأهم في كل هذه المعادلة.
والنص الأدبي، ومثله العمل الفني، وكل نص آخر بما في ذلك النصوص الرسمية والقانونية والفلسفية والمقدسة، إنما هو يضم في طياته مؤشرات وقائع وثقافة المحيط الذي يولد فيه. لذلك سميت هذه الحقيقة في الفكر الإغريقي بالمرآة. وكان افلاطون أول من ربط بين الشعر والمرآة بمعنى أن النص (الشعري هنا) هو مرآة ينعكس فيها الواقع المحيط وليس كما فسرها إحسان عباس من أنها (فكرة المرآة) التي كانت تخدم غرض افلاطون في تصور الشعر نوعا من الظل أو الانعكاس. ان مفكري عصر النهضة فهموها كما ينبغي. يقول ليوناردو: " أن عقل الفنان لا بد أن يكون كالمرآة، التي تعكس وتمتلئ بالصور بمقدار ما يكون أمامها من أجسام".
وعن شكسبير يقول د. جونسون: "إنه يحمل لقرائه مرآةً صادقة للحياة والطبيعة".
في الفهم الماركسي نجد أن الواقع الاقتصادي للمجتمع يتكون من كل العلاقات الإنتاجية

لكن هذه العلاقات ستفرز وليدها الأوضح على السطح متمثلا بالثقافة العامة بما في ذلك الأدب والفن والسياسة وشتى أنواع النشاط الفكري. والتغيير الذي يجري في الواقع الاقتصادي (التحتي)، وسينعكس مباشرة على (الواقع الفوقي) من ثقافة وأدب وفن وعموم الأشكال الإبداعية ألأخرى. وهذا يعني أن الأدب لا ينفصل عن "العلاقات المحسوسة الملموسة أبدا".

وفي موقف ماركس نجد أن الفن قد يتطور في بعض العهود والفترات بمعزل عن القاعدة المادية فيسبق تطور المجتمع وقد يتجاوز القاعدة المادية فيه. ومثال ذلك أدب اليونان إذا ما قارناه بأدب الشعوب المعاصرة. وفي البحث عن سر عبقرية الفنون والآداب الخالدة والتي لا تزال تهيئ لنا اليوم متعة جمالية. فما سر بقاء قيمة الأثر الفني فيها واستمرارها؟

يجيب ماركس:

1 - أن هذا الفن قائم على الميثولوجيا وفي صياغة هذه الميثولوجيا وإعدادها تدخلت حياة جماهير الفلاحين وتدخل نضالهم الطبقي ضد طبقات الملاك والأمراء والملوك،

2 - من هنا نشأت مفاهيم العدالة والقصاص والقدر والبطولة وكلها ماثلة بصورة حية في أساطير هرقل وبروميثيوس وغيرهما،

3 - وهذه الأساطير قد انتحلت معنى كونيا شاملا،

4 - الإنسان يبتهج بسذاجة الطفولة، فلماذا لا يبتهج بسذاجة الطفولة الإنسانية" (عباس 105).

لذلك فإن انفصال الآثار الفنية -أحياناً- عن إطارها التاريخي لا يعد في نظر ماركس منافيا للمفهوم المادي والتاريخي.

ويطرح إحسان عباس سؤالاً محيراً فيقول كيف ولماذا تفرد الإغريق عن غيرهم من الشعوب في هذه الناحية؟

1 - أولا أن الإغريق لم ينفردوا عن غيرهم من الشعوب في إبداع نصوص خالدة مثل الإلياذة والأوديسة التي ينسبها المؤرخون إلى هوميروس، فلقد أبدعت الشعوب الشرقية نصوصا مماثلة لا تقل عنها جودة وما زالت خالدة للأسباب ذاتها.

2 - من ناحية ثانية كانت اليونان آنذاك مركزا حضاريا عالمياً مشعاً شكل قبلة للدارسين والباحثين لاسيما في ميدان الفلسفة والفنون والعلوم الأخرى ناهيك عن المستوى الحضاري المتقدم والذي نلمس انعكاسه في فلسفة افلاطون وأرسطو وقبلهما طاليس وسقراط وليست مصر القديمة وفراعنتها وفكرها الديني ومعابدها وأناشيدها ببعيدة عن اليونان.

لكن تفسير ماركس حول سبب خلود نصوص الإغريق واستمرارية تأثيرها فينا إلى اليوم يمكننا أن نسحبه على نصوصنا العربية القديمة وعلى النصوص الدينية المقدسة كذلك للأسباب نفسها والتي رآها ماركس وراء خلود النص اليوناني. فالمعلقات وأدب الصعاليك في عصر ما قبل الإسلام ما زالت تحتفظ بقيمتها الفنية المتقدمة وبقدرتها على إثارة المتعة والشعور بجمالها.

إن اغتراب الشعراء العرب القدامى وعنصر الرحيل والصراع متنوع الأسباب والأشكال والأساليب وكيان المرأة وجمال الطبيعة والتعبير بالصورة وبالمشهد والفروسية والبطولة وشهامة البطل فضلاً عن كثير من التصورات الذهنية، كلها عوامل دفعت بهذه النصوص إلى أن تكون في صدارة الذاكرة الجمعية العربية محتفظةً في الوقت نفسه

بمكانتها الفنية وبقدرتها على إثارة المتعة واللذة الفنية.
ولو أخذنا النصوص المقدسة التي جاءت بها الأديان السماوية والوضعية لوجدنا أن خلودها واحتفاظها بقيمتها الفكرية والروحية والأخلاقية يأتي نتيجة لشموليتها الإنسانية وكونيتها وصلاح كثير من مكوناتها لأزماننا هذه التي نحن فيها. كما ان الخلود في الأدب يتأتى من عظمة النص الرؤيوي، فمن هذه النصوص ما هو خارق أو عابر للأمكنة والأجيال ومنها النصوص المقدسة ومنها أيضا النصوص الأدبية العملاقة كالإلياذة ومسرح هوميروس والمعلقات وأدب المتنبي وأبي تمام وأبي العلاء وشكسبير وغيرهم كثير.
لكن هناك إشكالية خطيرة في هذا الشأن هي إن هذه النصوص الخالدة استمرت وبقيت على قيمتها الفنية والفكرية، لأنها استطاعت أيضا أن تحتوي العنصر الإنساني الخالد والمتكرر في كل الظروف والمجتمعات أو في أغلبها على الأقل. فالحب والعدالة والجمال والحرية والإنسانية ورفض الظلم والموسيقى والثورة على القيود والفروسية والشجاعة والتطلع نحو آفاق أرحب وغيرها كثير من قيم تتكرر في كل مراحل تطور المجتمعات والإنسان بل تكاد تكون جوهرية في صلب الهم الإنساني. هذه القيم الكبرى دعت مفكرا معاصرا كبيرا (جان بول سارتر) إلى تبني قضية الإلتزام في الأدب والاصطفاف إلى جانبها بغض النظر عن مكان مولد النص وزمانه. من هنا كان الانتشار الواسع لفلسفة سارتر الوجودية في مختلف بلدان العالم حيث التقت بتطلعات الشباب والأدباء النازعين نحو هذه المبادئ والقيم. لكن السارترية أخلت المكان لمذهب أدبي كان أكثر ملاصقة لهموم الناس اليومية وتطلعاتهم وأحلامهم وحتى مشاعرهم وهناك الواقعية وبعدها الواقعية الاشتراكية التي هي الأخرى اضطرت للعودة إلى تفاصيل الواقعية دونما التزام أيديولوجي إنما اكتفت بالتمسك بعوالم الواقع وحيثياته بصورة فنية وراقية.
وكذلك الحال بالنسبة للأساطير والرموز التي استخدمت في الأدب القديم اليوناني والصيني والشرقي كله ولدى شعراء العرب القدامى نلمس عودتها لتجد لها مكانا في يومنا هذا لدى شعراء الغرب والعرب على حد سواء: انظر مثلا فيكتور هوجو جون ريد وبريشت ونجيب محفوظ في رواياته ... وصورة البطل في أدب غسان كنفاني ومطولات السياب واغتراب البياتي والبحث عن المرأة لدى حسب الشيخ جعفر. وما احتفاظ هذه الأساطير بقيمتها الفنية والرمزية إلا لأنها تماثلت آنذاك، ومازالت، مع نفسية الشاعر ومع حاجته الفنية للتعبير عنها ومع الواقع الاجتماعي مهما اختفت في ثناياه عناصر الشبه بين تشكيلات هذا الواقع وما يماثلها من صور وتعابير في أحضان النص ألشعري أو العمل الفني.
والخيال سمة إنسانية ترافق البشر في حلِّهم وترحالهم وفيها يجدون حلّاً لحاجات نفسية وقد تكون فكرية. ولا أدري إن كان افلاطون هو فعلا أول من بدأ في استخدام الأساطير لإيصال أفكاره ونظرياته أم سبقه أحد من قبل لكننا نجده قد استعان بها وقد تلاءمت مع غاياته التي أراد إيصالها أنظر مثلا أساطيره الثلاث. لكن انظر اسطورة كلكامش وصديقه أنكيدو. واستمر استخدام الأسطورة حتى في الشرح الفلسفي وفي بناء القصيدة إلى يومنا هذا. ومما ينتمي لعالم الخيال أيضا الأحلام

والرؤى عند النوم. وكم من فيلسوف ومفكر انطلقت منظوماتهم الفكرية من الأحلام. وما تشكلت على أثره مصائر أمم وشعوب وأديان وتحولت مضامينها إلى مقدسات، راجع مثلا حلم النبي إبراهيم الذي رأى فيه أنه يذبح ابنه إسماعيل ففداه الله بخروف، فتحول هذا الى عنصر طقسي مقدس لدى المسلمين. ومنذ لك الحين يلتزم المسلمون بتقديم أضحية في كل سنة في مطلع عيد سميٍ بالأضحى تمسكا بالتقليد الديني وصار جزءاً من الثقافة الإسلامية عامة والعربية خاصة. ومثله حلم يوسف الذي بنيت عليه سورة يوسف القرآنية كلها وقبلها قصته في التوراة. ومن ذلك حلم المأمون الذي بسببه قرر ترجمة كل المكتبة الفلسفية من اللاتينية إلى العربية فانتعش هذا المجال الفكري الهائل في ثقافتنا العربية والإسلامية ونهض من خلالها فلاسفة ومفكرون ومفسرون عرب ومسلمون ومنهم انتقلت الى الاندلس (أعمال أرسطو وشروح ابن رشد وترجمته لها وتعليقاته) ومنها إلى أوروبا التي استعادت عن هذا الطريق بضاعتها وتكونت من هناك حتى غدت مناهج ومفاهيم ومنظومات عملاقة.

ولا تفوتنا أحلام ديكارت الثلاثة التي بسببها كما يدعي قرر المضي في التفكير الفلسفي وبناء أضخم برنامج فلسفي في الشك والمنهج والتأملات. والحقيقة منذ مطلع تاريخ البشرية نجد أن الرؤى في المنام قد شغلت حيزا كبيرا في الثقافات الإنسانية.

ومهما كان من أمر الأساطير والرموز والأحلام وهي وليدة الخيال كلها فأنها لا تقلل من حقيقة أن النص هو ابن مجتمعه وأنها لا تعدو أن تكون عناصر محفزة من جهة ومفيدة في البناء الفني من جهة أخرى. لأنها كلها هي الأخرى من بنات الحالة الاجتماعية التي ولدت فيها.

ففي محيط كل هؤلاء أصحاب الرؤى والأحلام عوامل وأسباب عديدة دفعت بأفكار حادة وعميقة إلى أذهانهم ودواخلهم فتمثلت لهم بما احتوت عليه احلامهم ورؤاهم، ولأهمية مكاناتهم التاريخية والاجتماعية احتلت هذه الأحلام هذه المكانة. هذا إذا افترضنا أنهم كلهم كانوا صادقين فيما تحدثوا عنه من شأن أحلامهم إذ في الحقيقة يراودني كثير من الشك في مصداقية ديكارت حول رؤاه الثلاث!

إن المتتبع لتاريخ الفن والأدب سيجد أن الفن والنص الأدبي كانا ملازمين للطقوس الدينية في الثقافات الأولية للمجتمعات البدائية وحتى لفترات طويلة لاحقة تصل إلى أيامنا هذه. فالرقص والغناء وقراءة الأناشيد كانت من مكونات الطقوس العبادية. في تاريخ الفكر الديني عن العرب حيث نجد القبائل العربية التي تأتي مع موسم الحج لزيارة الكعبة وتأدية الفروض تقوم بترديد أناشيد التعظيم والتقديس. وكان لكل قبيلة نصوصها التي قد تختلف بهذا القدر أو ذاك عن غيرها، ولها منشدوها وتقدم هذه الطقوس في أداء فنيّ جميل. وما زالت هذه الممارسات الدينية تُزاول أثناء مواسم الحج ومثلها تقريبا أثناء عبادات أخرى من بينها الأذان.

الحال نفسه يمكن ملاحظته لدى المسيحيين أثناء تواجدهم في الكنائس. وفي اليونان القديمة كانت هناك الأناشيد الدينية التي كانت تردد أثناء احتفالات تمجيد باخوس إله الكرم والخمر في دياناتهم آنذاك أثناء موسم جني العنب وتقديم الشكر والامتنان إليه. وحين يأتي موسم الشتاء وذبول الأشجار تكون

الأناشيد حزينة. وكذلك نجد الأناشيد الدينية مصحوبة بالموسيقى في ديانة مصر القديمة حيث كهنة الآلهة وفي صدارتهم آمون يقومون باستعراضات سنوية أو أثناء الأعياد يرددون أشعارا مغناة تمدح جبروت آمون وقدراته غير المحدودة.

وفي بلاد الرافدين كانت تتكرر مشاهد كهنة الآلهة الكبار ولاسيما إنليل التي تعظم مكانته ودوره في خلق الكون والإنسان وتسيير أمور الطبيعة والمجتمع.

وكلها كانت مؤشرات لبداية المسرح الشعري والغنائي الذي تطور تدريجيا حتى وصلنا القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فتحولت النصوص إلى نثرية وراحت تعالج مواضيع متنوعة أخرى إلى جانب الدينية. وعلى الرغم من هذا لم ينقطع نهائيا المسرح الشعري عن التواجد في ثقافات مختلف الشعوب.

وفي طروحاتنا هذه نبتعد عن التقديم البسيط الذي يعتمده بعض النقاد والمؤرخين من أن الفنان والشاعر والأديب لا يكتب إلا ليوصل آراءه ومشاعره إلى الجماعة حتى ترى ما يراه على طريقة لا أريكم إلا ما أرى. وهو لا يحس بالراحة والطمأنينة إلا إذا وجد أن المجتمع قد تقبل واستساغ أدبه. وهكذا نرى أن الأديب لا يكتب لنفسه.

ومن الطبيعي أن الفنان أو الأديب لا يعيش بمفرده في هذا الكون بل هو في الأساس نتيجة علاقاته الاجتماعية سواء من الناحية البيولوجية أو النفسية أو الثقافية لكن من غير المعقول أن الانسان يكتب ويبدع كي ينال رضا المجتمع.

نحن نذهب إلى ان النص والعمل الفني تتسرب إليه ثقافة المجتمع وتقاليده ومشاكله بعد أن تكون قد استقرت في العقل الباطن للمبدع، فردا كان أو جماعة، وتراكمت هناك وغدت جزءاً من وعيه العميق ومن عناصر شخصيته الفكرية والنفسية والثقافية بحيث عندما يكتب أو يرسم تروح هي الأخرى تتسرب من أعماقه نحو النص أو العمل الفني.

ومهمة الناقد الحصيف الكشف عنها بدءاً من النص وصولا إلى ما يعادلها في الواقع الاجتماعي. فالمسار في النقد هنا يبدأ من النص ليصل، ولا ينتهي، عند المجتمع، إذ أن هناك رحلة أخرى معاكسة من الواقع إلى النص للكشف عن كيفية انعكاس هذه العناصر في النص، وهل تمكن المبدع بقدراته الفنية إيصال تجربته الشعورية المتولدة أصلا من تفاعله الذاتي مع الموضوع وهل تمكن من رسم ما يعادلها فنيّاً، كي تتمكن هي الأخرى من الولوج إلى نفس وعقل المتلقي. صحيح إن المبدع ملتزم لكنه ليس مصلحا اجتماعياً. وهذا لا ينفي إمكانية أداء دوره في الإصلاح الاجتماعي بشكل عام، إلا انه في اللحظة التي يتبنى النص مشكلة اجتماعية معينة يكون قد تخلى عن، أو جازف على الأقل بمستواه الفني وشروطه الأدبية. وهنا نعود إلى فكرة المحاكاة ونقول إن المحاكاة لا تعني أبدا تقليد الواقع إنما احتواؤه وتمثله ذاتيا ثم تروح التجارب وحدها تبحث عن منافذ لها على أن يتمكن المبدع من إيجاد الأدوات والآليات المناسبة فنيا والمعادلة للتجربة الشعورية. وفي هذا المضمار لا يمكننا ان نعد ما اصطلح على تسميته (الشعر التعليمي) شعرا لأنه يخلو تماما من المشاعر والتجارب الروحية إنما نجد العكس تماما إذ ما المادة التعليمية وظفت بعض مستلزمات القصيدة مثل الوزن لإيصال فكرتها ومضامينها إلى المتلقي. من ذلك مثلا ألفية ابن مالك النحوية

وبعض دروس النحو الأخرى والبلاغة وغيرها. لكننا نجد أن الجانب الجمالي متوفر في الملاحم الشعرية الطويلة التي وظفت الأسطورة وكثيراً من الخيال وإسقاطهما على الحدث التاريخي الحقيقي وعلى البطل الذي تحول إلى ما يشبه الأسطوري، الأمر الذي حافظ إلى جانب الحدث التاريخي على حيوية القصيدة وبقائها في عالم الذاكرة الإنسانية. وملحمة الإلياذة ومثلها الأوديسة اللتان تنسبان إلى الشاعر هوميروس، تحويان الحدث التاريخي والواقع الاجتماعي، محاطان بكثير من المبالغة والتغليف الأسطوري.

والنقد قد رافق النص الأدبي منذ ولادته. قد يكون النص سابقا على النقد. لكن ما أن صار النص كيانا يتلقاه الناس حتى أطل النقد بملاحظاته الأولية. ولدينا في تاريخ الأدب العربي شواهد كثيرة تحققت على يد الشعراء أنفسهم ومن ثم على أيدي عارفي الأدب المعترف لهم بالمكانة المتميزة. (سوق عكاظ – تاريخ النقد – اليونان). كما يجب الاعتراف أن الشعر سبق النقد في التبلور والتشكل وقدم النماذج التي في ضوئها تم تمييز الشعر الجيد عن غيره. مع الزمن تداخل النقد الأدبي مع علوم عديدة وإن كان أولها الفلسفة على يد طلائع الفلاسفة اليونان سقراط وافلاطون وأرسطو ثم راح ينفصل عنها تدريجيا ليغدو علما قائما بذاته. لكنه في الوقت نفسه تداخل مع العلوم الأخرى مستفيدا من كشوفاتها حتى صارت لدينا مناهج نقدية متميزة تستخدم أدوات ومنجزات علومها مثل المنهج الاجتماعي والنفسي والأيديولوجي والفني وغيرها.

ومما لا شك فيه أن العلوم الاجتماعية وعلوم التاريخ أيضا كانت هي الأقرب إلى النقد الأدبي. لقد نهضت دراسات كثيرة استفادت من شعر أبي تمام للكشف عن احداث تاريخية وقعت أثناء حياته وكان شعره أحد مصادر هذه الدراسات وكذلك الحال مع شعر المتنبي، وهنا يتردد صدى الواقع القائم الذي في ظله جاءت القصائد. ومن يقف عند الملاحم الطوال الغربية أو العربية يجد فيها الواقع الاجتماعي والحدث التاريخي معاً وإن كانت بعضها قد اختلطت فيها مع الحدث التاريخي عناصر اسطورية، لكنها جاءت مكونات بنائية داعمة للنص ورافعة له وأسهمت في خلوده للأسباب المذكورة في الصفحات السابقة. وقد حاول بعض الباحثين اختزال المنهج التاريخي في النقد بالبحث عن الأحداث التاريخية المذكورة في النص، في حين ينبغي أن يشمل هذا المنهج، ولكي يكون فعلا نقديا أدبيا، تتبع تطور النص الأدبي من داخله لدى الشاعر المعين مثل كيف تطورت نصوص حسب الشيخ جعفر من قصيدة العبارات الشعرية إلى قصيدة المشاهد ومنها إلى القصيدة المدورة، وكذلك ينبغي أن يشمل هذا المنهج تطور الشاعر نفسه فنيا وفكريا ومدى انعكاس ذلك كله على بناء قصيدته وفي هذا نختلف عن المنهج التاريخي الذي اتبعه كبار نقاد النصف الأول من القرن العشرين أمثال أنيس المقدسي ولويس شيخو وطه حسين ومحمد النويهي.

ونحن عندما نشير إلى الترابط بين النص والمجتمع فنحن نقصد العلاقة بين النص والواقع القائم بكل مكوناته. لكننا نسلط الضوء هنا مركّزاً على هذه العلاقة بين النص ومكونات الواقع الاجتماعي المعين كلها، وأولها الثقافة السائدة أو المهيمنة وبكل معانيها وتفاصيلها من لغة وعادات وأفكار وعقيدة وسلوك وأوهام وعلاقات وغيرها.

مجتمع نجيب محفوظ الروائي

داود سلمان الشويلي

شكلت أعمال الكاتب العربي نجيب محفوظ ملحمة الزمن الروائي الذي ينتقد، ويتخطى، هموم، ومشاغل، المجتمع المصري خلال فترة ربع قرن، فرصدت عدسته الروائية المجتمع المصري في صيرورته، وتطوراته، وبكل عمق وشجاعة، وأزالت الثوب الذي كان يرتديه ذلك المجتمع (كثياب الإمبراطور) غير المرئية، وكشفت كل سلبياته، وأزماته، وانهياراته، هذا المجتمع الذي كتب عنه أدب سردي ،وافد على الثقافة العربية، إلا انه غير جديد عليها لانقطاعه أكثر من خمسمائة سنة عن تاريخنا السردي الشفاهي، والمكتوب، بصيغته السردية الجديدة التي تختلف عن حكايات ألف ليلة وليلة، والقصص الشعبي.

والفن السردي ينهض على عناصر كثيرة أهمها الشخصية، أو الجماعية، وكذلك الشخصيات غير الحية، وهذه الشخصية تقوم بأمر ما، أو حدث ما، أو فعل ما، ويتناولها بعين الراوي بصيغه العديدة، وليس بعين المؤرخ المختص. والشخصية تعد عنصرا أساسيا من عناصر السرد.

الشخصية عند نجيب محفوظ، ودون الدخول في متاهات تعريفها، وأنواعها، ومقوماتها، لأن هذه معروفة للمتخصصين خاصة. ويمكن أن تقسم من حيث قيامها بدور أساسي في السرد الى ثلاثة أنواع، شخصيات الفعل الجماعي، شخصيات الفعل الفردي، وشخصيات غير حية. والنهاية المأساوية موجودة في أغلب نصوصه السردية، وهي ظاهرة واضحة في هذه النصوص، وربما كانت هذه المأساوية، عندما تكون في النهاية، هي من إدراك الكاتب للدور الكبير، والفاعل، في تلك النصوص.

ما قدمه من واقع مر ممزوجا بخيال خصب هو هذا المتن، والنوع، الهائل من فنّه السردي الذي قرأت عنه في السبعينيات من يصفه بصخرة الرواية العربية التي لم يجتزها الغير. وقد أكد محمد عبيدالله في كتابه الجديد (الرواية العربية واللغة: تأملات في لغة السرد عند نجيب محفوظ، الصادر عن دار أزمنة بالأردن) ذاكرا: ((ولكننا لا نخشى من القول إن القمّة التي بلغتها أعماله لم تتجاوزها أو تقترب منها الأعمال المعاصرة له أو اللاحقة لتجربته، وهو في ذلك يمثل تحدّياً محفّزاً

للرواية العربية الجديدة)).
فيما يذكر الناقد إبراهيم فتحي في كتابه (العالم الروائي عند نجيب محفوظ - الهيئة المصرية العامة للكتاب2012): ((هل تشكل المرحلة الأخيرة من إنتاج محفوظ، التي سميت بالمرحلة الفلسفية أو الفكرية، انقطاعا في استمرار عالمه الروائي القديم؟، هل يمكن اعتبارها تطورا جديدا يقدم رموزا لمأساة الإنسان في العصر الحديث، هل كان عالمه القديم تعبيرا عن علاقات راسخة مستقرة مرصوفة الشوارع، تزرعه شخصيات ترتدي أخلاقيات قاطعة التحدد، وتدون معالم حياتها النفسية في بطاقاتها الشخصية، بينما أصبح عالمه الجديد تعبيرا عن وضع انتقالي يملؤه التطفل للنائمين يتثاءبون أسئلتهم عن معنى الحياة؟)).

***

الصفة الرئيسية التي يتصف بها محفوظ هي صفة الإبداع، أما مواقفه السياسية فهي صفة ثانوية لا ترقى للصفة الأولى، ولا تنافسها بل تنسى في حومة الاشتغال بالصفة الأولى، وان ما تبقى منه هو إبداعه الروائي.

***

أنواع الشخصيات عند محفوظ:
فيما نقدمه في هذه السطور هو بعض ما قدمه محفوظ من شخصيات ظلت علامة فارقة في الأدب العالمي، والعربي خاصة. ويمكن تقسيم هذه الشخصيات التي ستتناولها هذه السطور إلى:
1 – شخصيات حية:
وتقسم إلى نوعين:
أ – شخصيات الفعل الجماعي:
عندما نقول بطولة جماعية فهذا لا يعني ان مجموعة من الشخصيات تقدم بطولة جماعية

في حدث ما، وإنما نعني ان هذه الشخصيات هي الرئيسية في هذه القصة، أو الرواية، لها القول الفصل فيما تقدمه تلك القصة، أو الرواية، من أحداث، وحوادث.
فعندما تنشأ الرواية على مجموعة من الشخصيات المحلية، أبناء البلد، فإنها تقوم بتقديم حكاية محلية الطابع لا تعيش في أبراج عاجية، أي أنها تقدم حكاية مستلة من الواقع، غير مفارقة له، واقع معاش، وملموس، ومحسوس، وليس واقعا خياليا مفارقا للواقع الحقيقي بأية درجة كانت. هذه الرواية تقدم حكايتها اعتمادا على شخصيات هي الأخرى تتسم بالواقعية، شخصيات من دم، ولحم، وأعصاب، ولا تعيش في الخيال الذي يفارق هذا الواقع إلا أنها مرسومة بالقلم على الورق، وتحمل نبض المؤلف من دون أن تتوافق معه في الأفكار.

فاعلية النص:

* أولا: في رواية "ميرامار"، مثلا، نجد مجموعة من الأشخاص الذين يتناولون في نقاشهم حكاية الثورة الاشتراكية في مصر جمال عبد الناصر. من خلالهم نعرف رد فعل الطبقة العليا من الشعب المصري تجاهها، تلك

الطبقة التي استفادت من سياسة النظام السابق للثورة.
أمامنا مجموعة رموز، وقد استلت من هذه الطبقة المستفادة من النظام السابق للثورة، ويمكن أن نضع كل رمز في خانة واحدة، وهو يمثل النوع الذي يرمز إليه، إذ أنها رواية أصوات متعددة، من دون أن يترك محفوظ صوته يطغى على الأصوات كافة. فالأحداث نفسها تروى من عدة شخصيات لها خلفيات سياسية، واجتماعية، مختلفة، وبالتالي تنظر للثورة بوجهات نظر مختلفة، لقد تحطمت مسيرة نظام ما قبل الثورة في نفوسهم، وضاعت آمالهم. هذه الشخصيات هي:
عامر وجدي: في الثمانين من عمره، صحفي، متقاعد، وكان شاهدا على الكثير من الأحداث، ليس له عائلة.
ـ طلبة مرزوق: من الأعيان، ووكيل لوزارة الأوقاف سابقا، تحت الحراسة القانونية، وجرّد من أملاكه.
ـ حسني علام: وهو شاب من مدينة طنطا، لم يحصل على التعليم المطلوب، جاء للبحث عن فرصة استثمارية.
ـ منصور باهي: شاب من شباب الثورة، يعمل مذيعا في إذاعة الإسكندرية، يحب زميلة الدراسة درية، التي كانت تبادله ذات الشعور ولكنها تقرر الزواج بأستاذها الدكتور فوزي، وهو أستاذ العمل السياسي لمنصور الأمر الذي يدعوه إلى كتمان حبه، يسكن في البنسيون للهروب من ظروفه الاجتماعية.
ـ سرحان البحيري: شخص انتهازي، نجده مرة يعمل في تنظيمات ثورة يوليو، ومرة عضو في مجلس إدارة شركة الغزل في الإسكندرية، يشترك مع اللصوص لسرقة الشركة التي يعمل فيها. انتهى نهاية مأساوية بموته.
ـ زهرة: شابة من الريف المصري، هربت من أسرتها بعد أن أرغمت على الزواج برجل كبير السن، من أجل المال، فتسوقها الأقدار للعمل في البنسيون. تقابل سرحان البحيري وتقع في حبه، وتقرر إكمال تعليمها، ولكنها تتعرض إلى الطرد بعد حصول بعض الأحداث، وكان مصيرها غير معلوم.
هذه الشخصية تشكل في الرواية، وكذلك عند أي دارس لتلك الرواية المحور التي تبنى عليه دراسة الشخصية الرامزة لابن المجتمع المصري، وهو يخوض تقلبات السياسة بعيدا عن ذلك المجتمع.
ـ ماريانا اليونانية: سيدة تبلغ من العمر ما يقارب 65 عاماً، يونانية الأصل، تمتلك بنسيون ميرامار، وتعمل في أدارته منذ زمن ليس بالقليل. وترى هذه الدراسة أنها ترمز للأجنبي الذي يدير دفة البلد.
هذه الشخصيات/ الرموز تلتقي في بنسيون "ميرامار" صدفة لتجتمع على رفض النظام الجديد كل حسب قناعاته الذاتية.
تنظر هذه الشخصيات لمجريات الأمور من زوايا متعددة، ولكن مختلفة، ومتباينة.

***

* ثانيا: جسدت رواية "ثرثرة فوق النيل" برؤى فلسفية، ما كانت تكنه شخصياتها المخدرة حد الثمالة بكل عبث، وهروب عن الواقع، هذا الواقع المزيف، والخادع، الذي يصل حد الاغتراب. هذه الشخصيات المعزولة عن العالم في العوامة، وهي مكان قلق لا يستقر، انه فوق سطح الماء المتموج، وهي تقدم رؤية مستقبلية لواقع المجتمع المصري الضائع، هذه الشخصيات تنظر بعين فلسفية، ان نقاشها نقاشا فلسفيا ببعد وجودي، في حين أنها فاقدة العقل، والوعي، لا تدرك الأشياء،

منطلقين من واقع مأساوي، مر. تربط بينهم رابطة واحدة هي العربدة، وإدمان تعاطي الحشيشة؟

الشخصيات هي:

- أنيس: موظف حكومي، مثقف، ساخط على الواقع.
- أحمد نصر: وهو موظف، محافظ.
- مصطفى راشد: محامي، متذمر.
- علي السيد: حياته غير محافظة.
- خالد عزوز: روائي ورث عمارة فهو عالة على المجتمع.
- رجب القاضي: زير نساء.
- سمارة: صحفية تسللت للعوامة لتكتب مسرحية عما يجري في العوامة.
- حارس العوامة، مؤذن، وفي الوقت نفسه يعمل قوادا لأصحاب العوامة.

ترمز هذه الشخصية الى المجتمع الذي فيه الدين، والجنس، هما المعبران عنه.

ان المفارقة الكبيرة التي يقدمها محفوظ في هذه الرواية هي انها سبقت هزيمة عام 67، وكان السبّاق في كشف الهزيمة، وما انتهت إليه.

لقد استشف محفوظ رؤيته المستقبلية، وقال كلمته الحاسمة، كالرائي العظيم الذي يرى ما لم يره الغير.

((فقد طحننا اللاشيء. لم يعد للقلب من هم يحمله منذ دفن في التراب أعز ما كان يملكه. لم يبدع الإنسان ما هو أصدق من المهزلة)).

المهزلة هي التي جاءت بالهزيمة، أو ان الهزيمة قد جاءت بالمهزلة، لا فرق بين الاثنين. لا فرق بين العوامة، وبين ميرامار الفندق، الاثنان يحدث فيهما حكي عن النظام الجديد، الاثنان ينتقدانه، الاثنان يبشران بالهزيمة التي تؤدي بالمهزلة، أو ان المهزلة هي التي جاءت بالهزيمة؟

***

* ثالثا: قال نجيب محفوظ في حوار معه:

((اليوم طرأ عليّ تطوّر جديد يمكن تلخيصه في كلمتين هما: الاشمئزاز من الأسلوب الغربي الذي التزمت به طوال حياتي، اشمئزاز وجداني ليس إلّا، أي من دون اقتناع عقلي به. فليس لي اعتراض عقلي على هذه الأساليب وما تؤدّيه من خدمة للعمل الفنّي. ولكنني ضقت بها وجدانيّاً. فبعد أن انتهيت من روايتين هما «قلب الليل» و«حضرة المحترم»... كتبت «حكايات حارتنا» - نُشرت قبلها لأسباب اضطرارية - وهي رجوع إلى الحكاية الشرقية. ولم يكن من المستطاع أن أستمرّ في الكتابة من دون هذه المغامرة. و«حكايات حارتنا» ليست قصصاً قصيرة وليست رواية ولكنها بين بين. فيها حكايات ولكنها مستخدَمة لهدف روائي، وبها وجدت نفسي في آخر أطوارها في أحضان وطني القديم))(«حكايات حارتنا» لنجيب محفوظ ... رجوع إلى الحكاية الشرقية- ريتا عوض – مجلة العربي - العدد (679) - إصدار (12 - 2016).

في رواية (أولاد حارتنا) نجد محفوظ قد غادر أسلوب الرواية القديمة من تسلسل زمني متتالية الأحداث، وألغى حبكة النص، وبصورة عامة كتب على منوال الحكاية الشعبية في ألف ليلة وليلة، وفي الحكايات الشعبية.

الشخصية فيها هي رمز لأمر ما. فالجبلاوي، وأدهم، وإدريس، وغيرهم، شخصيات رامزة لما هو أبعد من المجتمع المصري، وفي الوقت نفسه تصب في ذلك المجتمع.

فقد اختار محفوظ هذه الشخصيات ليجسد من خلالها واقع الأرض، أي يقدم واقع السماء ليرمز لواقع الأرض، واقع مصر، واقع

المجتمع المصري، لتعكس، بذهنية فلسفية متمكنة، رحلة الكائن البشري في الحياة، هذه الرحلة الوجودية التي تركت الإنسان لوحده يصارع الحياة، إنها وجودية مأساوية.

***

ب– شخصية الفعل الفردي:

يهتم محفوظ كثيرا بشخصية الفرد، وهمومه، ومشاكله، مما يدفعه الى النظر الى شخصياته هذه نظرة فلسفية انطلاقا من الفلسفة الوجودية المأساوية التي تضع الإنسان الفرد في مركز اهتمامها من حيث قيمته، ووجوده الإنساني، دون أن تنسى ان المجتمع الذي تربى، ونما فيه، يؤثر عليه، وفيه.

عندما تقوم الشخصية في النص السردي لوحدها من دون أن يشاركها شخص آخر نقول ان فعلها، أو ما يمكن أن نسميه بطولتها، هو فعل شخصي نابع من ذاتها، أو من اختيار المجتمع (المؤلف) لها.

وإذا كان محفوظ قد قدم روايات، وقصص، قد أوصلته الى نوبل، فإن ما قدمه من شخصية "سي السيد"، وكذلك شخصية أمينة، في الثلاثية، ستوصله إلى نوبل بدون إنتاجه السردي كله. لقد قدم محفوظ أغرب الشخصيات الروائية، ومن أكثرها إتقانًا، وإقناعًا فنيًا، في الثلاثية، أحمد عبد الجواد، وأمينة زوجته، وظلا في ذاكرة قارئ الثلاثية، أو شاهدها مجسدة على الشاشة الكبيرة. وكذلك شخصية "كامل رؤبة لاظ" في رواية "السراب".

* أولا: كان أحمد عبد الجواد "سي السيد" هو الشخصية المركزية التي حملت على عاتقها أحداث، وشخصيات، وما تحمل من موضوع مهم هو ما كان يحدث في المجتمع المصري وقت وجود الانكليز، أجزاء الثلاثية التي قدمها محفوظ، وقد أجاد.

كانت شخصية "سي السيد" تعيش حياتين متباينتين، شخصية بوجهين، وجه داخل البيت، ووجه خارجه. شخصية الرجل الشرقي باستبداده. العربي بتقاليده، وعاداته، البدوية، الصحراوية. المسلم بما ورث من الأفكار الاسلامية ذات المنشأ الرجالي. كان خليطا من كل ذلك. وأيضا كان أحمد عبد الجواد خارج البيت بانفتاحه على الغير، وبمغامراته الجنسية، وحفلاته الصاخبة، الحمراء، في الليل، وكان نجيب محفوظ هو الروائي الذي يستطيع بناء مثل هذه الشخصية لما امتلكه من قدرة عالية في بناء الشخصيات.

***

* ثانيا: تأتي شخصية "كامل رؤبة لاظ" الشخصية الثانية التي بمقدور روائي مثل محفوظ أن يبنيها بناء ابداعيا، ويقدمها كشخصية عاجزة عن فعل ما هو ضروري، كالتردد عند اتخاذ الموقف النهائي، وعدم توافقه مع محيطه الاجتماعي، ورفضه الاندماج مع الآخرين. هذه الشخصية بالمنظور النفسي هي شخصية تتماهى، وشخصية "أوديب" كما حللها فرويد. كل هذا سبب عجزه الجنسي مع زوجته، فكان شخصية تقف أمام زوجته ليلة عرسه موقف الرجل الذي لا يستطيع القيام بواجباته الزوجية لأنها تشبه أمه، أما أمام المرأة المومس، والقبيحة، خارج البيت فهو الرجل القادر على عمل كل شيء. وأيضا يكون قاتلا لزوجته، وأمه، في الوقت نفسه، وبهذا انحلت عقده الجنسية، أي فقد الأم، والزوجة، عند انحلال تلك العقد، وذهبت عنه حالة العجز كما ذهبت حالة العجز عن الضياد جودر عن قتل شبح الأم في أسطورة جودر الألف ليلة.

***

* ثالثا: في نص ''اللص والكلاب''، وهو النص الذي يحمل تصادم محفوظ مع أفكار ثورة 1952 قدم سعيد مهران بخلفية وجودية باهرة، بكل ما كان يحمله الفرد الذي يحاول أن يقف أمام المجتمع الفاسد، ويتحداهم سياسيا فيعود عليه هذا التحدي بإختلاق أزمات نفسية، واجتماعية، وكانت نهايته المأساوية هي ما كان يبحث عنه من الانتقام من نبوية، وعليش، أو من الصحفي رؤوف علوان، وهي الموت، إذ تلقي الشرطة القبض عليه، ويكون مصيره السجن، أو الاعدام، أي الموت.

يقول سعيد مهران: ((ولكني واثق من أنني على حق)) هذه وجهة نظره هو. إذن نتساءل: الحق مع مَن، مع سعيد، أو كان مع الآخرين الذين ناصبوه العداء؟

كانت أزمة سعيد مهران أزمة البطل الفرد أمام المجتمع الكلي الذي واجهه.

***

* رابعا: بين وجود الله، وعدم وجوده، كانت رواية ''الطريق'' رحلة صابر للبحث عن أبيه سيد رحيمي الذي اسمه يتماهى مع الله، وقد أنكرت أمه وجوده حيا عندما كانت على قيد الحياة، أما، وهي تنازع سكرات الموت فقد أوصت ابنها صابر بالبحث عنه، لأنه على قيد الحياة. انها رحلة وجودية للعودة من الالحاد الى الايمان، إلا انها لا تتم، فقد مات قبل أن يلتقي بوالده رحيمي بسبب أمر حدث عرضيا له، هو قتل زوج حبيبته ''كريمة'' صاحب الفندق الذي يسكنه. إذن رحلة الايمان لصابر لم تتم.

ان صابر، والاسم له دلالاته الخاصة الرامزة، كأغلب شخوص محفوظ رامزة لشيء ما، فطريقه يرمز للايمان المفضي الى السلام، والاستقرار. لقد كان صابر ضحية لواقعه المرتبك، والغائم، والمضطرب، إذ يصل في نهاية بحثه الى سراب ليس إلا.

انه منقسم بين طهر ''إلهام''، وتعهر ''كريمة''، وفي النهاية يختار ''كريمة'' فيؤدي طريقها الى الموت.

والطريف ان ''كريمة'' تشبه أم صابر في الأخلاق، والسلوك، وفي رواية ''السراب'' نجد الأمر نفسه، فأم ''كامل'' تشبه زوجته في الجمال، فلا ينجذب إليها، فيما في الطريق ينجذب الى الشبيه لأنه عاش في أجواء ملوثة فيبحث عن السلام، والأمان، والايمان بهم، فيما كامل عاش في أجواء نظيفة يبحث عن أجواء مغايرة لها.

الروايتان تقفان على ضفتين مختلفتين. هذا الانقسام بين المرأتين عناه ''كريم الناصري'' في رواية ''الوشم'' للروائي العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي بين ''مريم عبد الله'' التي تمثل العهر، وبين ''يسرى'' التي تمثل النقاء، والطهر.

***

* خامسا: في مجموعة (تحت المظلة) قصة ''الحاوي خطف الطبق'' يقدم محفوظ، قصة طفل صغير، وفي يوم واحد، انتقاله بين اتباع الأوامر التي يتبعها الطفل إلى التعلم من الأخطاء التي تمر به، ثم الأسطورة، بعدها يأتي الحب البريء، فالشهوة، لينهي محفوظ اكتشاف الطفل للجريمة، وهذا الانتقال يمثل التطور البشري عبر التاريخ.

كان محفوظ مدركا لما مر به تطور البشرية، وفي الوقت نفسه استطاع أن يختار الشخصية التي تمثل تطور البشرية من خلال طفل غير مدرك لما مرّ به.

ان اختيار الطفل جاء ليرمز الى حياة الكائن البشري في أوّل مراحل حياته في الكون، ثم

تتوالى التطورات عليه من داخل ذاته.

***

2 - شخصيات غير حية:

في السرديات الحديثة يأخذ المكان حيزا كبيرا في ذهن كاتب النص، وقارئه. فدور المكان هام في النصوص السردية لمحفوظ، فهي تلعب أدورا كبيرة في نصه السردي، ان كان نصا روائيا، أو نصاً قصصياً، ويمكن أن نقف على ثلاثة أمكنة لعبت دورا كبيرا في النص، وهي أماكن معزولة عن الشارع، والبيت، وفيها مجتمع مصغر قد اختير بعناية ليمثل المجتمع المصري الكبير. هذه الأماكن التي نصفها بالشخصيات هي:

أ - البنسيون ميرامار: وهو الفندق الصغير، أو ما يشبهه، إذ يجتمع فيه بعض الناس من مشارب عدة، أو من مشرب واحد، فقد اجتمع فيه كل من: - عامر وجدي، طلبة مرزوق، حسني علام، منصور باهي، سرحان البحيري، زهرة، ماريانا اليونانية، فكان دوره فاعلا في جمع هذه النماذج لطرح آرائهم عن منجزات ثورة يونيو.

***

ج – عوامة الثرثرة: استمدت بطولتها عن طريق ضمها لحديث الناس الذين منهم: أنيس، أحمد نصر، مصطفى راشد، علي السيد، خالد عزوز، رجب القاضي، سمارة، حارس العوامة، إذ انها لعبت دورا كبيرا في النص، فلولاها لما وصلنا النص كاملا، ولما تعرفنا على أحداثه، وشخوصه، وأفكارهم.

***

د – المقهى "الكرنك": إضافة لهذه الأماكن التي تعد أماكن مغلقة، فان المقهى مكان مفتوح على الأصعدة كافة لتغير رواده بين فينة، وأخرى. لعبت دورا كبيرا في النص حيث جمعت هذه الأصوات الأربعة تحت كنفها، وقد تمت أحداث الرواية فيها.

قال الكاتب المصري جمال الغيطاني في كتابه "تجيب محفوظ يتذكر" الصادر عن دار المسيرة اللبنانية في العام 1980، وهو ينقل قول محفوظ إن ((المقهى يلعب دوراً كبيراً فى رواياتي، وقبل ذلك فى حياتنا كلنا، لم تكن هناك نواد، المقهى هو محور الصداقة، البيوت لا تسمح بالزيطة، في البداية اتسع لنا الشارع، حتى تجرأنا على المقهى، عرفت المقهى فى سن مبكرة، منذ أوائل الثانوية بفضل أحد الأصدقاء، المقاهي بالنسبة لي ذكريات لا تنتهي)). قدم محفوظ أبطال "شخصيات" هذه الرواية وكأنها رواية بوليفونية، إذ ان كل شخصية من شخصياتها الأربعة تقدم رؤيتها لما يجري، والشخصيات هذه أخذت كل واحدة منها فصلا من الرواية، وهي:

- قرنفلة، صاحبة المقهى.
- إسماعيل الشيخ، وهو طالب جامعي تم اعتقاله.
- زينب دياب، طالبة جامعية اعتقلت، وتم اغتصابها من قبل رجال الأمن.
- خالد صفوان، رجل أمن فاسد، يعبر عن فساد عهد جمال عبد الناصر.

وهناك عدة مقاهي قدمها محفوظ في رواياته، مثل: مقهى أحمد عبده فى (الثلاثية)، ومقهى البوديجا فى رواية (السمان والخريف)، ومقهى الزهرة فى رواية (خان الخليلي)، ومقهى قشتمر في الرواية التي تحمل الاسم ذاته، حيث تتفاعل فيها كل الأفكار السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والمذاهب الفكرية.

هجرة العماريين الى بغداد

كامل داود

تمهيد

شهدت مدينة بغداد بعد الحرب العالمية الأولى، ظاهرة توافد المهاجرين من فقراء ريف جنوب العراق، وقد لجأ هؤلاء المهاجرون الى بناء مساكن لهم في الأراضي الفارغة والقريبة من المناطق البغدادية المأهولة، كانت معظم هذه المساكن أكواخا وصرائف من الحصران والقصب، وتصاعدت اعداد العوائل المهاجرة بشكل يومي، لتزداد معها اعداد الصرائف، مكونة تجمعات سكانية يحيطها البؤس والشقاء، في ظروف حياتية تخلو من ابسط مقومات العيش الكريم.

يرى المختصون ان ظاهرة تزايد الهجرة من الريف الى المدن تعود الى تزايد عوامل الدفع الاقتصادي خارج الريف من جهة، وتعاظم عوامل الجذب الاقتصادي داخل المدن من جهة أخرى[1]، وفي الوقت عينه، شكل المهاجرون تحدياً انسانياً للحكومة الملكية، التي ورثت بلدا مخربا من الدولة العثمانية. فقد رزح العراق تحت نير الحكم العثماني قرابة الأربعة قرون، وكانت المدن العراقية تحت سيطرة الولاة والقادة العثمانيين، يتلخص واجبهم بجمع المال للسلطان، وتهيئة الرجال لحروبه.

اما في الريف، فقد كان الشيوخ يديرون شؤون عشائرهم، وتربطهم بالحكومة العثمانية علاقتان، علاقة الجابي بالمدين، وعلاقة الجندرمة بالممتنعين عن تسديد ديونهم.

لقد تمسكت الدولة العثمانية بملكية الأراضي الزراعية، تحت مسمى الأراضي الاميرية، وتوزعت العشائر على تلك الأراضي، لكل عشيرة منطقة تسمى (الديرة) يشترك فيها أبناء العشيرة بنشاطات اقتصادية بدائية، كالرعي والصيد، وقد كيفوا حياتهم للعيش بخيراتها، تسودهم صلة الرحم والقرابة، يديرهم شيوخهم بعلاقة بطريركية (ابوّية)، كان افراد العشيرة هم المحاربون الذين يعززون سلطة الشيخ امام الحكومة والعشائر الأخرى. ولم تعد هناك ملامح للاستغلال الطبقي سوى اخراج حصة من المنتوج للشيخ تسمى (حصة المضيف) الذي شغل وظيفة مقر إدارة العشيرة.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى 1914، كان قسم كبير من الأراضي العراقية ميدانا لتلك الحرب التي خسرتها الدولة العثمانية، وبانتهائها خضع العراق للحكم البريطاني، الذي قامت سياسته على ترسيخ النظام العشائري، وقد وضع السير داوسن خطة لهذا الغرض، وعليه أصدرت الحكومة قانون تسوية حقوق الأراضي رقم 50 لسنة 1932 ثم استبدلته بقانون رقم 29 لسنة 1938 وهذه التشريعات افرزت قانون اللزمة (حق التصرف ويسجل في الطابو ويورث) ونتيجته تسجيل الأراضي

بأسماء الشيوخ، وفيها تحولت العلاقة بين الشيخ وافراد عشيرته من علاقة ابوية الى اقتصادية، وتحول الفلاح من قيمة حربية الى أجير مستغل. ان هذه الإنتقالة الكبرى التي داهمت جوهر هيكلية المؤسسة العشائرية، غيرت النمط الاقتصادي والاجتماعي في الريف العراقي، وخلقت علاقات إنتاجية جديدة، القت بجموع الفلاحين في لجة من الفقر والحرمان لم يتمكنوا من التكيف للعيش في كنفها او مقاومة ما ترتب عليها من تحديات[2].

لذا نستطيع القول ان هجرة الفلاحين الى بغداد كانت ظاهرة اجتماعية واقتصادية ونفسية معقدة، اشتركت فيها مجموعة من عوامل الجأت الفلاحين الى ترك أراضيهم وقطع صلتهم بها، منها عوامل، تتعلق بالزيادة الطبيعية للسكان، وقلة الموارد الاقتصادية والتحولات التي داهمت بنى المؤسسة العشائرية والتخلف الثقافي وغيرها. في الوقت نفسه، قدمت المدن مغريات العيش للفلاحين، بتوفر فرص عمل أوسع وسوق للأنشطة الاقتصادية غير الماهرة، وخدمات بلدية وثقافية وصحية ووسائط نقل[3]. فكانت هجرة اهل الريف الى بغداد، تندرج ضمن الهجرات الداخلية، التي ليس فيها مانع قانوني، اذ ليس هناك ما يحول دون تنقل المواطنين داخل حدود دولتهم، وان التشريعات تبيح لهم حق السكن في اية منطقة من البلاد.

كانت العمارة والمنتفك (الناصرية) هما الأكثر ضخاً للمهاجرين، وكان قصب السبق للواء العمارة في ذلك، اذ شكل المهاجرون العماريون أكثر من ثلاثة ارباع المهاجرين من سكان الصرائف في بغداد، فيما قصد اغلب مهاجري المنتفك مدينة البصرة، ومردَّ ذلك يعود الى قوانين المُلكية وحقوق التصرف في الناصرية والعمارة. وستتناول هذه الورقة المهاجرين العماريين الى بغداد، لذا لا بد من سبر التاريخ الاجتماعي ولاقتصادي والبحث عن المسببات التي أحدثت ظاهرة بهذا المستوى الكبير.

لماذا الهجرة الى بغداد؟

كانت العمارة مسرحا للاقتتال بين العشائر والحروب ضد الحكومة خلال العهد العثماني حتى عام 1861، وهو تاريخ تأسيس مدينة العمارة، فبعد ان تمكن العثمانيون من اخماد تمرد العشائر والسيطرة على زمام الحكم، عينت (عبد القادر أفندي الكولمندي) بوظيفة كاتب عشائر العمارة. وقد التزم هذا الرجل أراضي العمارة من الحكومة العثمانية مقابل مبلغ من المال يدفعه سنويا للحكومة، وظلت على طبيعتها الحيازية كأراض سنية ثم تحولت الى اميرية، واخذ هذا الرجل، يؤجر الأراضي لشيوخ العشائر بطريقة المزايدة للضمان السنوي، وهو أسلوب تفردت به ارياف العمارة، عن قوانين حقوق التصرف بالأرض في الالوية العراقية الأخرى، وجرت السياقات بهذه الصورة التي أسست لطريقة يكون التصرف بها على وفق عقد بين المالية والزراع، يؤجرها الشيخ ايجارا سنويا من الملتزم الأول، ويؤجرها على رؤساء الافخاذ، بعملية تسمى "التسكام"؛ تبدأ بدعوة المستأجرين الى وليمة، ثم يفتح باب الإيجار السنوي والاتفاق على المبلغ بطريقة المزايدة، ويبرم العقد بين الطرفين ويثبت الكاتب (المُلّة) الاتفاق على مبلغ الايجار. هذه القاعدة وُرثت من الدولة

العثمانية وخلقت ضعف الإحساس بالانتماء للأرض ولا حتى رغبة الاعتناء فيها، ومن مساوئ هذه الطريقة انها تورث الابن الأكبر دون اخوته، حق الضمان السنوي، وهذا ما يفسر هجرة الكثير من أبناء الشيوخ مع الفلاحين المعدمين[4].

عمرنة بغداد

تشير بيانات الهجرة الى بغداد، الى ان نسبة العماريين، هي 70% من مجموع المهاجرين، مما حدا بالباحث حنا بطاطو ان يطلق تسمية (عَمْرَنَة بغداد) على تلك الظاهرة المعقدة[5]. وهذه الظاهرة التي تعود الى حزمة من المسببات:

1. طبيعة المُلكية الزراعية التي بُنيت على الضمان والإيجار السنوي، في حين نجد ان نظام اللزمة هو السائد في اغلب الالوية العراقية، والأراضي تستغل بشكل يكاد ان يكون دائم ومتفق عليه بين المالكين (شيوخ العشائر) وبين الفلاحين على نسبة محددة من المنتوج.

2. المعارك والمنازعات العشائرية. على سبيل المثال: المعارك بين عشيرتي البو محمد و بني لام، التي أدت الى تردي الوضع الاقتصادي لبني لام، حتى شاع المثل القائل "بني لام العمر على الله والعيشة على الإسلام".

3. احتضن الإنكليز رؤساء العشائر المؤيدين لهم وتبنوا الاعتماد عليهم في إدارة الريف، لذلك أصدروا نظام دعاوى العشائر الذي سن عام 1916 وبه مُنح شيوخ العشائر سلطات قضائية وتنفيذية واسعة.

4. استطاع ملاكو الأراضي الكبار، التحكم بطبيعة القوانين والتشريعات التي تنظم العلاقات الإنتاجية في الريف العراقي، وتسخيرها لمصالحهم، فقد كانت نسبة هؤلاء في التشكيلات الوزارية 52% وهي نسبة ممكن ان تحدد اتجاه البوصلة التشريعية[6].

5. انشاء سدة الكوت سنة 1939 الذي أدى الى انخفاض كبير بكميات المياه المتدفقة في نهر دجلة، مما حرم الكثير من الأراضي الزراعية ما تحتاجه من مياه، بعد ان كانت تعتمد طريقة الري السيحي في اروائها.

6. ظلم واستبداد الاقطاع في ريف العمارة، فلقد ساءت علاقتهم بأبناء عشائرهم، وشكلوا مجموعات من (الحوشية). وهم اشبه بالحرس الخاص، تعود اصولهم الى عشائر أخرى. وكان على سبيل المثال لا الحصر، في عام 1944 عدد افراد حوشية محمد العريبي شيخ البو محمد، 552 رجلا، و كان تعداد عشيرته حوالي 5000 رجلا[7].

7. استعمال المضخات للسقي وما أضافه ذلك من ضرائب أخرى على الفلاحين.

8. تأخر اصدار التشريعات الإصلاحية في العمارة، فقد قامت الحكومة متأخرة بإصدار قانون المنح باللزمة في لواء العمارة رقم 42 لسنة 1952 وقانون رقم 53 لسنة 1955.

وربما تداخلت مسوغات أخرى في ذلك، مثل قانون خدمة العلم الذي صدر في العهد الملكي 1935، الذي وفر للمجندين من أبناء الريف، فرصة العيش في الثكنات داخل المدن والاطلاع على مغريات العيش فيها، مقارنة مع حياتهم القاسية تحت نير الاقطاع، وأصبح الأقارب السابقون في الهجرة نموذج لأفراد عشيرتهم في النجاح والعيش الارغد. وكان لتدفق النفط في كركوك وتأسيس مجلس الاعمار 1950 لإدارة 70% من عائدات نفط كركوك لتصميم وإقامة مشاريع تنموية، أثر

كبير في زيادة الطلب على الايدي العاملة. وقدّم المهاجرون (قوة العمل) بأجر منخفض، ما خلق عدم ارتياح العمال في بغداد للوافدين الجدد، وقد تكون هذه العلاقة غير المتوازنة هي التي اجترحت لقب (الشروكية)، فقد فعل الفقر المدقع بكبرياء فلاحي العمارة المهاجرين، من خلال تنمية الاستعداد للأعمال التي كانوا يأنفون منها ويرونها اعمالا وضيعة[8].

لعل هذه اهم الأسباب التي القت بجموع الفلاحين خارج ديارهم وحقولهم، وأوقدت فيهم حمّى الهجرة الى بغداد، بسيول بشرية لم تنقطع، وصفها ضابط بريطاني كان يراقب من ثكنته على طريق الهجرة عام 1955قائلا: "قدرت الهجرة من العمارة الى بغداد حمولة عشر سيارات من نوع اللوري يوميا"[9].

وفي هذين البيتين الشعريين، الكثير مما يميط اللثام عن تلك الظاهرة:

ارد اشرد لبغداد من هل العشيرة
لا تجبر المكسور لا عدها غيرة
ارد اشرد لبغداد من هل الفلاحة
لا تشبع الجوعان لا بيها راحة [10]

مراحل الهجرة

أولى موجات الهجرة بدأت مع الاحتلال البريطاني 1918، وازداد عدد المهاجرين بعد بناء سدة الكوت 1939 واندلاع الحرب العالمية الثانية، ثم تأسيس مجلس الإعمار 1950 واستمر الوافدون ببناء الصرائف في الأراضي الفارغة بين البيوت في الاحياء السكنية، ثم تحولوا الى انشاء مجمعات سكنية من الصرائف، توزعت على جهتي الكرخ والرصافة. لقد كان متنزه الزوراء الحالي ثكنة عسكرية (معسكر الوشاش) يحيطه تجمع للصرائف يعرف بـ"المعيدية". كذلك ظهرت منطقة "العاصمة" قرب طريق محمد القاسم حاليا، وشمالها "الميزرة" القريبة من كراج النهضة.

لقد شكلت هذه التجمعات عشوائيات مزدحمة بالمعدمين، يقطنون صرائف رثة، وصلت عددها الى 12594 صريفة عام 1947، بنسبة 25% من الوحدات السكنية في بغداد، وتصاعد العدد ليصل الى 164150 بنسبة 50% من الوحدات السكنية عام 1956، حوالي 300000 مهاجر[11].

كان المهاجرون قد اختاروا منطقة شرق السدة مكانا لبناء صرائفهم، لأنها أراض مهملة لا يمارس عليها أي نشاط اقتصادي. وذلك لكونها منطقة منخفضة، ومعرضة لخطر الفيضانات السنوية لنهر دجلة، لذا تركها مالكوها، الأمر الذي يعفي ساكنيها من الإيجار، وكانت هذه الأراضي تتمتع بمميزات تغري المهاجرين بالإقامة فيها، فهي قريبة من المناطق المأهولة والكراجات ومعامل الطابوق وأسواق الجملة الخاصة بالفواكه والخضر، ما يوفر فرص عمل مناسبة، لا تتطلب مهارات فنية تذكر[12].

اللجان التي شكلت لدراسة الهجرة في العهد الملكي

لم تضع الحكومة في العهد الملكي حلا لهذه المشكلة التي اقل ما يقال عنها، أنها مشكلة اجتماعية إنسانية كبيرة، وكان اول رد فعل رسمي في عام 1932 عندما امر نوري السعيد بتشكيل لجنة مختصة للنظر في مشكلة اهل الصرائف، وفي 1939 طرحت امانة العاصمة فكرة تفكيك الصرائف، وتجميع

ساكنيها في منطقة محددة بعد توسيع مدينة بغداد، لكن تدفق المهاجرين من المتطوعين في الجيش العراقي، بشكل كبير، وسكنهم قرب معسكرات الجيش، وظهور تجمعات جديدة ومستمرة للصرائف، كتب الفشل لتلك الخطة، فأمرت الحكومة عام 1941 بتشكيل لجنة برئاسة سندرسن باشا، ولم تخرج بحلول حقيقية، فقط انها اوصت بتحسين ظروف الفلاحين والعمال، الأمر الذي جعل أمانة العاصمة، تعرض مقترحا غريبا عن واقع المشكلة، يكون عن طريق ارجاع اهل الصرائف الى أراضيهم!

وتوالت الحلول والمقترحات الترقيعية، ففي 1946 يقترح توفيق السويدي بناء 200 دار في تل محمد، وفي عام 1947 وزارة صالح جبر تؤلف لجنة الصرائف العليا وخصصت لهم 150 دونما في الوزيرية، وكل هذه المشاريع لم تلاق سوى الفشل، حتى عندما عُيّن مفتش اداري لمتابعة التنفيذ، لكن سوء تلك الإدارة، محالة، سيقود الى فشل المشروع، ولم تفلح حكومة حسين الصدر في سعيها ومحاولاتها تنفيذ الخطة السابقة 1948، في السنة نفسها حاولت الحكومة اخلاء منطقة الشاكرية (المنطقة الخضراء حاليا) من اهل الصرائف بالقوة، ولكن الشرطة جوبهت بالطرد وقد ردد السكان (كمب احنين عيب انشيل انجب يمفوض)[13].

وفي1950 حاول صالح جبر إسكان اهل الصرائف، اختار لمشروعه مساحة اكثر من 400 دونم، مرتفعة عن الفيضانات في منطقة الشماعية، وحدد 120 مترا لكل اسرة، لقد كان هذا المشروع اقرب الى معالجة المشكلة بشكل جدي وواقعي، لكنه أُلغيَ من قبل نوري السعيد، الذي تسلم رئاسة الوزراء في نفس العام، ولم تستجب حكومته الا بشكل محدود لمقترح البنك الدولي، ببناء مساكن واطئة الكلفة، على الرغم من أهمية ذلك، ما حدا بالملك فيصل الثاني، ان يعلن في خطاب العرش 1953، انه سيبني الفي دار سكن لسكان الصرائف في بغداد، وبالفعل أعدت حكومة جميل المدفعي، مشروعا الا انه فشل بفعل فيضان 1954، الذي تحول على اثره الآلاف من سكان الصرائف الى منكوبين، فأعلنت وزارة فاضل الجمالي عن عزمها بناء مجمعات سكنية لهم. لكن لم يترجم المشروع للواقع، وظلت المشكلة في تفاقم مضطرد، حتى عندما كلف مجلس الاعمار، (مؤسسة دوكسيارس) الإيطالية بدراسة مشروع إسكان اهل الصرائف، لكن هذه المؤسسة لم تحصل على تخصيص ارض من الدولة، واكتفى بتقريره الذي صدر في 23 شباط 1958 موصيا، بإيقاف الهجرة الى بغداد وعدم تأجير الاراضي للمهاجرين الجدد، ومنعهم من بناء صرائف جديدة او ترميم القديم منها، قبل ان تحصل موافقته في 1يار 1958 على إقامة مشروعين في شرق بغداد والدورة[14].

الخاتمة

باتت هذه المشكلة الإنسانية الكبيرة بلا حلول حقيقية، فأغلب تلك المساكن أقيمت على ارض كانت مكبا للنفايات، ومناطق تجمع مياه الصرف الصحي لبغداد، ولم تكن هناك مياه صالحة للشرب، ووجد ان معدل وفيات الأطفال بلغ 34% وان كل لقمة يأكلونها ملوثة بالمسببات المرضية[15]. ولم تتخذ في العهد الملكي اية إجراءات لتخفيف معاناة المهاجرين ساكني الصرائف، بل نلاحظ

اللامبالاة والتجاهل هما الطاغيان على سلوك المسؤولين فقد شكل المنكوبون إثر فيضان 1954، وفدا لمقابلة وزير الشؤون الاجتماعية "أركان العبادي" الذي طردهم قائلا: "شسويلكم اطلعوا!!". وان هذا الوزير المذكور قد اقترح حلا، كان هذا الحل يتلخص بالإبقاء على رجال الشرطة والجيش من المهاجرين.

اما الباقون فيرحلون خارج بغداد[16].

ظلت هذه المأساة الإنسانية بلا حلول رسمية تستحق الذكر، واغلب ما طرح في العهد الملكي لا يعدو ان يكون طروحات ارتجالية وترقيعية، ووعود يطلقها السياسيون دون ان ترى لها أثرا في الواقع او تخفف من معاناة مئات الآلاف من المواطنين حتى قيام العهد الجمهوري 1958.

الهوامش

(1) محمد سلمان حسن، التطور الاقتصادي في العراق، بيروت 1965، ص 77. (توثيق دار النشر)
(2) حنا بطاطو، العراق-الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الكتاب الأول، ترجمة عفيف الرزاز، دار الحياة، 2011، ص 111. (توثيق مكان النشر)
(3) عبد الرزاق الهلالي، الهجرة من الريف الى المدن في العراق، ط1، مطبعة النجاح، بغداد 1958، ص40-39
(4) المصدر نفسه، ص 17
(5) بطاطو، ص 162.
(6) المصدر نفسه، ص 221
(7) المصدر نفسه، ص 111
(8) المصدر نفسه، ص 165
(9) محمد سلمان حسن، ص، 74
(10) بطاطو، ص، 171
(11) حيدر عطية كاظم، الصرائف في بغداد، 1932 ـــ 1963، دراسة في التاريخ الاجتماعي، ط1، دار الشؤون الثقافية بغداد، 2018، ص:35-32
(12) الهلالي ص 60
(13) حيدر عطية كاظم ص -60 63
(14) المصدر نفسه، ص 60 63-
(15) بطاطو ص 163
(16) حيدر عطية كاظم، ص -60 63

الشاعر الذي رأى
الشاعر الشهيد أحمد آدم في (دواخل *)

ليث الصندوق

أنْ يستشهد شاعر في أول طريق الشعر يعني بالتأكيد أنه لم يصل لنهاية حلمه لا في الحياة ولا في الشعر. لكن أن يُكتب عن شاعر استشهد قبل أن يدرك أحلامه يعني أن ما كتبه قد وصل إلى القارئ. وعلى الرغم من أن الشاعر لن تتسنى له العودة مجدداً للحياة كي يقرأ ما سيُكتب في أثره إلا أن نصوصه الباقية ستتسنى لها فرصة حياة أخرى ما دامت لها القدرة على الانفتاح، وتمكين القراءة من النفاذ نسبياً على الأقل إلى مناطقها المطوية. هذا ما أحسست به عند الشاعر الشهيد أحمد آدم وما أراد قوله من خلال مجموعته الشعرية (دواخل) التي صدرت بعد استشهاده.

وعلى ذات المستوى من الإحساس تبقى قضية تأرجح الكتابة النقدية ما بين الإمكانية والاحتمالية، إذ مهما توسعت وتشعبت وتغلغلت في الطبقات الدفينة للنص عاجزة عن الإلمام بكل خفاياه والوقوف على كل سُننه، ذلك أن الصعوبة تكمن في التعامل مع مكوّن أميبي مراوغ عصيّ على الضبط والتحديد، وأن ما تُعلنه قشرته الخارجية أقلّ بكثير مما يُخفيه في طيّات طبقاته الداخلية، وأن أقصى ما يمكن الوصول إليه هو ما يراه القارئ منها، أو ما يظن أنه يراه. وفي الحالين لا يمثل ذلك في النهاية حدود إمكانيات النص، ولكنه يمثل حدود إمكانيات القارئ التنقيبية التي تتباين مع حدود إمكانيات أي قارئ آخر على الرغم من أن الطرفين يستعينان بذات أدوات التنقيب. من هنا تأتي أرجحية الاحتمال على الإمكانية في القراءة، ومن هنا أيضاً تأتي القراءات والتأويلات التي لا حدود لها للنص الواحد، وتأتي معها مشروعيتها أيضاً على الرغم من تفاوتها واختلافها.

أما القارئ وهو في موقع الراصد فلا تهمه من الناحية الإبداعية الميتة الثانية الوجودية للشاعر، فهي قدره، لكنها بالتأكيد تهمه وتؤلمه إنسانياً إلى حد الانسحاق، ولكن هذا ليس مجالها فليس القارئ هنا في موقع التأبين، بل هو في موقع القراءة، ولذلك فإن ما يهمه هو تتبع انزياحات الميتة الأولى النظرية (موت المؤلف) التي ستورث النص للقارئ بعد أن

ترك له صاحب النص حق التبني، يعني أن يُقرأ النص ليس بحسب ما تمليه عليه هندسة الباني، بل بحسب ما تتمخض عنه احتمالات التقويض. ربما لم يخطر في بال الشاعر الشهيد أحمد آدم أن مجموعته الشعرية (دواخل) ستكون المثال التطبيقي الحقيقي غير المجازي لمقولة (موت المؤلف) وهي ستكون في الوقت ذاته خاتمة حياته الإبداعية والوجودية معاً، والميتتان تقدمان للقارئ فرصة القراءة الحرّة من دون تدخل خارجي مقوّم أو معترض أو مُفسّر. ومفهوم القراءة الحرّة هنا هو انعكاس لفكرة عزل المؤلف عن نصه باعتبار أن المُتبنّي/ القارئ في الميتتين سيكون الوريث الشرعي، وسيّد ما يقرأ.

لكنّ لقاء القدر مع القراءة في إنتاج ميتتين افتراضية ووجودية خلّف للموت أثراً في نصوص الشاعر، وقد تجلى هذا الأثر بأكثر من صيغة، ولكننا هنا آثرنا الوقوف على اثنتين منها، الأولى وهي الصيغة النمطية المفارقة للحياة. والثانية هي الصيغة الرمزية متمثلاً بموت الأمل، أو الحلم جراء فشل التجربة ومفارقة النجاح. وهذا الثاني هو ما ستبدأ بفرزه وإضاءته هذه القراءة من خلال تجربة الآخر في قصيدة (قمم سفلى)، ولعل أول ما يلفت النظر في هذه القصيدة هو المفارقة في العنونة، حيث تشير مفردتاها إلى محطتين متضادتين؛ المفردة الأولى تشير إلى الحلم في أعلى مراحل تحققه. والمفردة الثانية تشير إلى إخفاقه وتهاويه. والشاعر يتحرى كلتا المحطتين من خلال تجربة (الطامح بالفوز)، وهو توصيف لشخصية هلامية غمرها الشاعر بطبقة كثيفة من التمويهات، وزادها ضمير الغائب غموضاً، إنه يرنو إلى القمّة التي لم يكن قد أعدّ لها عدتها، بل لم يكن ليؤمن بمشروعية تلك العدّة، فهو صاحب حلم، لكنه (حلم من دون قاعدة)، إذ لم تكن طموحاته الواسعة لتتوافق مع أهدافه الضيّقة. وبذلك فالقمة التي بناها ستتهاوى (مثل حجر صغير)، وكما ابتدأت القصيدة متوافقة مع المفردة الأولى من العنونة توافقاً نسبياً على الأقل سواءً في بنائه (بنى قمّة)، أو في عزفه (كان يعزف)، انتهت متوافقة مع المفردة الثانية منها، ليشهد ذلك (الطامح بالفوز) الموت الروحي في أقسى صوره، أنه موت الحلم:

بنى قمّة
كان يعزف
ولأن حلمه بلا قاعدة تهاوى
مثل حجر صغير

وبشيء من الوضوح ممزوجاً بشيء من التلميح يتناول الشاعر سبب ذلك التقاطع والتصادم ما بين الطموح العريض من جهة، وما بين نظرته الضيقة إلى أهدافه من جهة

أخرى، والذي سيؤدي في النهاية إلى تبديد الحلم تبديداً يتبدّى استعارياً على هيئة سيّالة كنهر طافح (لكنه بلا ساحل):

الطامح بالفوز
طافح بالكراهية
لا يُحلّق بنجمة
يدخل الأمل قلبه
من شدّة الخوف
لكنه ...
طافح بلا ساحل

ومن الواضح أنّ عبارة (الطامح بالفوز) تنطوي على إدانة خفية، فهي تضمر في مفردتيها إيحاءً بالاستحواذ غير المقبول على ما هو ليس من حق الطامح، وبذلك فالشاعر عبر ما يُشبه التلويح بالإدانة يُميّز نفسه عنه، لأن قداسة الشعر لا تسمح له بالاستحواذ على ما هو ليس له. إذن فالفوز ليس فوز الشاعر، وكذلك الحُلم ليس حلمه، وبالتالي فـ (الأمل الطافح بلا ساحل) ليس أمله. أما آماله وأحلامه هو فلم تتحقق بعد، وأن تحققها مرهون بعودته حياً كما يقول لأصدقائه في قصيدته (عندما أعود حيّاً) من دون أن يحدد بوضوح لا لبس فيه عودته من أين؟ لكنه يُلمّح أنها ستتم (حين أكون ناضجاً في الرحيل)، ومن دون أن يوضح لماذا قيّد بُعدَه باحتمال الموت، لكننا سرعان ما نؤوّل ذلك ونحن نقرأ جداول وعوده وأحلامه الكثيرة. أما أحلامه لمرحلة ما بعد العودة فهي ليست مرهونة بعودته حياً فحسب، بل بتغيّر الظروف التي كانت تمنعه من حرية الكلام، والتي كانت قد أوقفت حركة الزمن، من أجل أن يبني، بل ومن أجل أن يحقق أحلامه التي يمكن رصدها عبرَ:

- أفتح أبواب كلمتي المخبّأة على وسعها
- أغيّر الروزنامة بكل آثامها
- أعمّر مدناً تُسوّرها ذاكرتي حنيناً
- أنتشل ينابيعاً تواصل نحيبها
- أضع وروداً للمارين كجنود مجهولين
راسماً حلماً يسعى صوب معناي
- أعاند لساناً أعرج شتم روحي

وبعد سيل متدفق من أحلام العودة يتجلى الحلم المفتاح، أو الذي يتراءى لنا أنه كذلك، والذي به ربما تنفتح مغاليق القصيدة، حيث يتبين سبب البعاد، وسبب احتمالية ارتباطه بالموت، وسبب الاحتفالية الجمعية بالعودة حياً (سنحتفل معاً). إنها العودة من الحرب أو من الحروب. فكيف ستكون ذروة احتفالات الشاعر بالعودة حياً من الحروب:

أحاول نسيان ... وجه الحروب
أيدي الحروب
اغماضة الحروب
جثّة الحروب

ولكن العودة التي يُفترض أن تكون سعيدة من الحروب هي لا تقلّ تعاسة وبؤساً من الذهاب إليها، إنها العودة التي لا تُخفي وجه الكوارث المميتة، بل تكشفه على حقيقته الصادمة:

عندما أعود حياً
تستقبلني الثكلات
حتى أعيد الرجال إليهنّ بلا همهمات

وإن كانت القمم الوهمية (السفلى) قد اقتادت إلى هاويتها من لم يُعدّ عدة كافية للصعود، إلا أنه لم يهوِ إليها بمفرده، بل سيجرف معه الآخرين، ومنهم الشاعر الذي تتراءى له الهاوية المعتمة، بالرغم من أن افتتاحية المجموعة تنبئ بشيء من الإضاءة (إلى الداخل المضيء أبداً وهو يمضي لروعته) إلا أنها ليست سوى ومضة خافتة سرعان ما تُطفئها القصيدة التي تعقبها مباشرة، بل أن الشاعر شاء لتلك الافتتاحية أن تُكتب متقطّعة ومتدرّجة على شكل سُلّم متّجه

نحو الأسفل:
إلى
الداخل
المضيء
أبداً
وهو يمضي
لروعته

فكأنه أراد بهذه الومضة الخافتة أن يُعدّ القارئ لتقبّل حالة انطفاء مفاجئ، وهذا سرعان ما حققته القصيدة الأولى في المجموعة (رأيتُ أيضاً) المهداة (إلى الذي رأى كلّ شيء/ كلكامش)، بيد أن هناك ثمة تقاطعاً ما بين رؤية كلكامش الذي رأى رؤية المستيقظ بعينيه أو رؤية الواعي بعقله، وما بين رؤيا الشاعر، وهي رؤيا الحالم، بدلالة الفعل الافتتاحي (فسّر) الذي يبدأ به السطر الأول من القصيدة بعبارة (فسّر لي) والذي يُستخدم محلياً في العراق لتعبير الرؤيا.

والأحلام التي يطلب الشاعر تعبيرها من ضمير الغائب (وهو الضمير المهيمن على قصائد المجموعة) هي ليست أحلاماً بل كوابيسٌ:

- الأرحام: عزفت نحيباً
- الطين: منثور على أيامنا
- الساحات: ضحكات ملائكة متآكلة
- المدينة: سالت
- الغيوم: ارتدت رمادها
- الخرائط: أسيجة
- كل دخول: موت
- كل خروج: منفى
- الحدود: أفاع حمر
- الأيام: تُلقي عليّ ستائر شيبها
- الشمس: تنشر الوقت الذي ينسحق

وبعض تلك الأحلام/ الكوابيس تفارق يقينيتها الفلسفية من خلال مبارحة الصيغة الخبرية القابلة للحصر ما بين حدّي التصديق والتكذيب، ومن ثم التشكّل في صيغة إنشائية من خلال صيغ الاستفهام أو الأمر أو النهي:

- هل نعود من نفق الكون؟
- من يدفع عجلات العيون
أن تشاهد؟
- من أتوجه إليه كاشفاً؟
- أمسكْ لو أردت
قلب حجر
- لا تُفاجئني اللحظة
قلبك أجعله لا يدق مؤقتاً
حتى يجيء في وهج نواحك

أو من خلال صيغة إنشائية مزدوجة تجمع ما بين النهي والتساؤل:

- لا تقلْ ...
ذلك ليل كيف أشطبه؟

وهكذا لا يظل شيء من الكليات أو الجزئيات الكونية في موقع استقراره واطمئنانه، ما دام المنطق قد أسلم قياده لكوابيس الانهيار. ومع ذلك فالقصيدة الطويلة نسبياً تستدرك في سطورها الأخيرة هذا الخلل المنطقي الذي يُمهّد لانهيارات وجودية في حال تحققه واقعاً معوّلة على ضمير الغائب إصلاح ما أفسدته، ولتُعيد لذلك الضمير تألقه الضائع من دون أن يغادر ذلك الغائب حدود كوابيسه بدليل أن ازدياد شدوه كان تحت تأثير النعاس، فكأنّ الشاعر كان يأمل أن يضيء تألق ذلك الغائب بمفرده عتمة الكوابيس الكونية. ولكن ذلك الأمل لم يكن سوى وهم، لأن تألق ضمير الغائب لم يُفارقه الانكسار:

ازداد في شدوه نعاساً
ازداد نوراً
في تكسّره

وعلى إيقاع الانهيار ذاته تأتي قصيدة (بانوراما الدم) مستبقة دهشة القارئ بعنوانها الصادم فكأنها لا ترى إلى أفق الوطن فحسب مصبوغاً بالدم، بل إلى أفق العالم أجمعه ما دام الشاعر لا يتوانى أن يصدم توقعات القارئ بإلقاء وزر هذا الدم أولاً على عناصر الطبيعة التي أخرجها من حياديتها ووضعها في موضع الاتهام:

فالأفق = وحشٌ
والرمل = يمرق في جرحي فأكتبه
والسماء = فاتها وقت المطر
والأرض = التهبت
والسماوات = أحالت كلّ شيء إلى ظلمة
والفصول = أجزائي انكسرت / تجرفها قيامة الفصول

أما الإنسان/القاتل الحقيقي فلم يحضر في تلك البانوراما الدموية بذاته، بل بواحدة من أسوأ مواصفاته ألا وهي (الأنانية) من دون أن يربطها الشاعر ربطاً صريحاً به، ولكن القارئ هو بالتأكيد سيتكفل بهذا الربط، فليس من المنطقي أن ننسب الأنانية أيضاً إلى الطبيعة، بعد أن نسب إليها الشاعر ما هي بريئة منه، ومع تفعيل هذه الخصلة الإنسانية المجرّدة، وقبل إدراج القرينة النصّية التي تؤكدها، من الضروري التذكير بإن إحدى مواصفات قصيدة أحمد آدم هي التعلق بالمجرّدات، والاستعاضة بها عن الملموسات، مع نسب خصائص ووظائف الثانية إلى الأولى :

ألأنانية أتلفت روعة الأفق
هبطت ناثرة يباسها خيانة
وقبوراً

وبعد هذه الاتهامات للقتلة الأبرياء/عناصر الطبيعة، وبعد التمويه للقاتل بمواصفة مجرّدة واحدة من مواصفاته، يحضر القاتل فجأة من خلال عين الشاعر التي رأته، ورصدت تنقلاته. لكن حضوره هو ككل حضور للآخر في أغلب القصائد عبر (ضمير الغائب)، بدون هوية، وبدون ملامح، بل وبدون إدانة، فتلك ليست مهمة الشاعر القديس، لأن توجيه الإدانات ربما قد يُدنّس قداسة الشعر. كل المتاح ضمن فسحة البوح هو رصد حركة القاتل وتنقلاته، ونقلها للقارئ على شكل خارطة شعرية تبدأ بالقوافل ثمّ القباب ثمّ الأبواب، مع تحديد الفعل الذي يؤديه في كلّ محطة، وعلى القارئ أن يستحضر قدرته لتأويل تلك الأفعال وكشف أسرار بعض تلك المحطات لتحديد هوية القاتل الذي (بصمت دامس يلقن القباب):

ورأيته
يُسيّر القوافل
بصمت دامي يُلقن القباب
يفتح الأبواب عن رعدة الخوف
يبعثر السقوط
ورأيت شرّاً شديداً تحت الشمس يتبعه

وأخيراً يستفيق الشاعر من كابوس الحقيقة ليجد نفسه بين أكوام من الجثث وهي تستفزّ حيرته:

أفقتُ والجثث استحضرت أسئلتي
غطّت مساحة حيرتي
أو: انتشرت الجثث هابطة وصاعدة
وارتمت في لحظة
استعادة الجرح ذاكرة الظمأ

ومن اللافت أن إفاقة الشاعر ما بين الجثث ليست إفاقة من النوم، بل هي إفاقة من النسيان، إنها فرصة لاستعادة الذاكرة المدفونة تحت ركام الكوارث والأزمات، واستحضار آلام وجراحات الماضي متمثلة بمعاناة الحصار الذي أوشك الشاعر نسيان كوارثه لولا أن بانوراما الدم قد أعاده إلى

ذاكرته (تقافزت في ذاكرتي اشتباكات الحصار).
أما إذا ما تلاشت الأحلام/ الكوابيس، وتوارت نبوءات الإخفاق والموت، فالأسى والضياع حاضران:
ذات اليمين
عرائس وحروف وطرق
تُخلّد صدره بالأسى
وهو باسط نظره ملياً
فلا يجد غير رصيف
يطلّ على الصحراء
وحتى في قصائده الغزلية التي يحاول فيها جاهداً التطلع لأفق أكثر إشراقاً وانفتاحاً يمارس فيه غريزة الإنسان السوي في الحب، فأن هاجس الفراق أو القطيعة سواء بالموت أو بسواه لا يفارقه أبداً، وإن كان هو نفسه لا يبوح به فستبوح به حبيبته، ولا فرق في من يبوح، فهي إحدى ألاعيب الشعراء أن يجعلوا حبيباتهم ينطقن بما في نفوسهم. ولنستمع للحبيبة تبوح له بما في صدره هو من الهواجس التي هي هواجسها أيضاً:
الكلّ عادوا
من أمام الضياع
من هروب الحقيقة
من أرض وراء النار
من مقابر لا تشبههم
من وراء القضبان
من ... من
لا أهتم كيف
إلا أنت يا حبيبي
هل أنتظر؟
هل؟

أحمد آدم: ولد في قضاء الهندية، محافظة كربلاء عام 1967، حاصل على البكالوريوس من كلية التربية من جامعة كربلاء، متزوج وله ولدان وخمس بنات، مارس العمل الصحفي ونشر مقالاته وتقاريره في جريدة (المدى) التي كان مراسلها في كربلاء.
صدر له المجاميع الآتية: (تكوينات نصوص) 1997، استدراك 1999، كون في داخلي 2000، دواخل 2005 (صدرت بعد استشهاده). قتل ذبحاً، هو وزميله الصحفي نجم عبد خضر، في منطقة اليوسفية، من قبل عصابات الإرهاب الظلامية خلال عودتهما من بغداد إلى كربلاء في 15 مايس 2005.
(*) دواخل – شعر أحمد آدم – الناشران ديوان المسار والدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولى – 2006

"سفرة سياحية": خرافة حكام

إسماعيل إبراهيم عبد

تمهيد

بودي أن أبين متجهين فكريين لفلسفة ما بعد الحداثة؛ الأول، ان جميع العاملين في حقول (المعرفة والادب والفن) يبطنون أعمالهم بغرضين هما ردم الفجوة بين (الواقعي والمتخيل)، والتوفيق بين (التقني والثقافي). اما الثاني، فملخصه ان حدثي رواية طه حامد الشبيب "سفرة سياحية" هما الكابوس والانهيار. الكابوس خصص لتقليل الفجوة بين الواقعي والمتخيل، بينما تخصص الانهيار بالتوفيق بين التقني والثقافي.

إن الشبيب؛ برواية "سفرة سياحية"(1)، وباللغة الوسيطة ما بين اللفظ وتجريد المعنى، يؤالف بين الصورة في المتخيل مع المُجسَّد للواقع المتحول.. وبهما؛ (الواقع واللغة) تنساب بلاغة الحدث عبر الراوي الأوحد، البطل، المفرد.. وهو نموذج معوض عن المجتمع والإنسانية، وهو الكون الأرضي والسماوي، والتاريخ والوجود الكلي. هذه النتيجة الأولية تحتاج الى آليات واجراءات عملية لإثبات أن الرواية ليست عبثاً ولا لعباً باللغة، والشبيب قد حصل على قدر مهم من التفرد، لسببين هما: تجربة الكاتب الثقافية واسعة المصادر، وموهبة التصرف بالتدوين في تماهيه مع السلوك المجتمعي، ثمة منظومة فكرية مخبأة تقود الروي كله؛ هي: ان الروائي يهدي الى نوعين من النتائج؛ التوفيق بين الجمالي والثقافي، ثم ردم فجوة التباعد بين الواقعي والخيالي.

لنتابع تجربة (سفرة سياحية) على النحو الآتي:

أولاً: أسطح التعبير المحاذي

وهي طرائق التوصيل التي جعلت من الرواية بؤراً خارجية/ داخلية، مكتفية بذاتها، تتجه لغتها نحو بطائن تمثل (تجريد الأشياء)، لتترجم النقلات السردية الكبيرة بصياغة متسلسلة عبر ذاكرة نائب السارد. وعند مرحلة تحديد المبثوث اللغوي بكيفياته الجمالية والثقافية يمكن التصرف بأطر الفهم على أساس أنها مستويات لعلائق متبادلة لما يمكننا تسميته (أسطح التعبير)، موزعة على هيئة نص محاذٍ؛ تكون الجملة فيه ناقلة لما يحاذي (معناها) الى جملة أخرى تديم علاقات

تماسك المشاهد وفضاءاتها ببعضها، ثم تنتقل بالمضمرات الإشارية الى أفق مفتوح من حيث الإزاحة ومرجعية السياق.

أ ـ سطح التعبير المزدوج

وهو يُعنى بلغة البؤر التركيبية (داخلية/ خارجية) التي تحقق جمالها الخاص ببطانتي التجريد الشيئي والاكتفاء النصي. وهذا السطح يحيد عن منظومة السرد الخارجي نحو منظومة السرد الداخلي بحرية منضبطة، مثال ذلك: [الصوت يقول بالحرف الواحد: في كل عام ننتقي، بعد تمحيص وتمحيص، ذكراً من الإنس نزوجه من احدى نسائنا. القطيعة التامة بيننا وبين الإنس غير مرغوبة.. القائل رجل قصير القامة أشيب اللحية والشارب والحاجبين، حسب وصف زوجها] ـ الرواية /ص29. لنلاحظ الآتي:

1ـ ثمة توضيح أولي هو: ان القول للجن الذي عيّنَ رئيساً للبلاد بعد استدعائه مع صديقه بسفرة؛ تبدو بظاهرها سياحية وفي باطنها مهمة سياسية خطيرة. هذا المقطع يعطي للقارئ فرضيتين في الفهم؛ هما/ ان القول هو لقوى عرفانية غير منطقية، لذا سيستحضر القارئ تراث المعتزلة والصوفيين والارجائيين. اما فرصة القراءة الثانية فهي تتعلق بالغرائبية الجديدة بحسب الأفكار الفلسفية المتعلقة بما بعد الحداثة، التي تفهم الغرائبية بكونها طريقة خيالية لتدجين المستحيل.

2ـ الملاحظة الأخرى؛ ان للقارئ حرية في فهم القول بكونه يأتي من قوى خارجية تخص فضاء الرواية الخارجي، ويمكن للقارئ ان يصيّر فهمه بوحاً لتخيل فردي، وبذلك يشارك الكاتب والراوي رؤاهما في تبني طاقة التعبير هذه بكونها لمحة فنية مطلقة التذوق، لكنها لا تمثل سوى تعبير لمحاذات هامشية لما يحدث

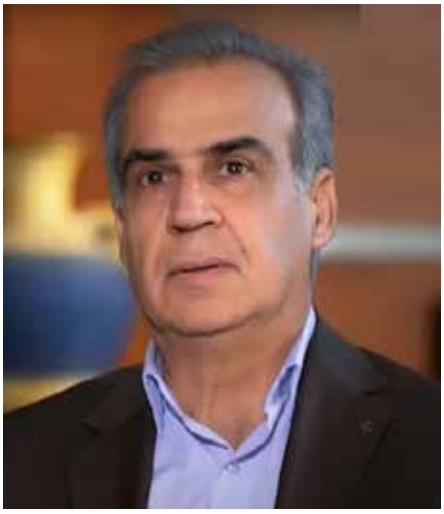

طه حامد الشبيب

حقاً في المجتمع والسياسة.

3ـ الملاحظة الأخرى ان الراوي مازج بين واقعية وجود زوج المرأة ـ صديقة الراوي الأصيل ـ وبين مروية الرجل الجني؛ الأشيب ذي الصوت.

4ـ يمكننا ان نجرد النص لغة وشخوصاً بقولنا "هو رسالة بين امرأة وصديقها وزوجها وقوى شخص جني خارق القدرات".

5 ـ يمكننا القول ان النص اكتفى بذاته من حيث البناء الفني؛ إذ يوجد أربعة شخوص، وحدث يمثله حضور الجني، وقضية؛ هي تزويج بنت جنية الى رجل إنسي، وثمة زمن مفتوح ونص مفتوح واحتمالات لا تحصى، لما نسميه مخمنات التأويل.

ب ـ سطح الذاكرة

يهتم بما يستذكره المدون من لغتي الإخبار السردي، به ينقل السلوك الفردي كونه ممثلاً للسلوك الجمعي، على المستوى المحلي، لا يضع حلولاً بقدر ما يعري وجوداً كابوسياً، مثال ذلك/ [أطلبها ... أطلبها. أحاول أولاً أن

أستنهض ذاكرتها ببعض مما رأيتُهُ وسمعتُهُ فيما أحسبُهُ منامي الكابوس. وطبعاً جُلُّ ما طاف بي أو، بكلام أدق، جُلُّ ما أتصور أنه طاف بي، يتعلق بزوجها وصاحبهم. ثم أسألها هل تتذكرين أنكِ أخبرتني عن هذه المواضيع قبل أن ننام؟ .... ما متأكدة.. إي.. إي.. ما متأكدة] ـ الرواية، ص58

لعل أهم وظائف هذا المقطع تكمن في:

1- انه تعبير يلحق بمتن الرواية، يريد له الكاتب رسم حياة طبيعية بين رجل وأنثى عبر الجسد، وحوار لما هو خارج الجسد، يتعلق بقضايا مصيرية.

2- ان الكابوس الحلم قد ضلل الوجود الواقعي بالشك ونكران الوقائع العادية بين جنسي البشر؛ في بلد تعرض لتغيير كارثي.

3- المزاوجة بين الحلم والواقع يعطي فكرة ان المروية قد تصل في رؤاها الى مرحلة تعطيل الفهم العام لصالح الفهم الهامشي، ما يجعل التعبير سطحاً ثانياً محاذياً لبطانة المتن.

لنتساءل: ماذا سنؤول المقطع الآتي لو لم يكن حلماً؟ هل سنعدُّهُ مجرد تقنية في الفعل الروائي؛ أم سنراه قطعة من ثقافة (ما)؛ أم كليهما؟ لنقرأ: [زوج الجالسة جنبي يخبرها أن صاحبهم كان يطلعه على رواية أبا نوخ وعلائم الصدمة العميقة بائنة على وجهه. يمحضه الحق في أن يصدم بعمق من صنيع زوجته اللا يصدق. أبا نوخ حين يبلغ في روايته مبلغا تتبدى فيه الصدمة، يسمي ابنتهم (الموتورة). يقول... بغتة، في منتصف الطريق، تهبط محفة (الموتورة) قليلاً عن مستوى التحليق الذي تتخذه باقي محفات الموكب. وعلى الفور تنحرف شرقاً؛ بمثل لمح البصر، مفلتة من قبضة شيوخ الموكب] ـ الرواية، ص106.

هذا المقطع يحيل إلى/

* تقنيات روائية معروفة، منها:

1- ان الراوي الأول أبا نوخ؛ راوي أسرار الظلام وأقوى ملوك الجن على الأرض هو الراوي المظهري الأصيل، وهو شخصية متخيلة للجن، يتحكم بالروي الأصيل لقدر كبير من المتن، والمقطع السابق جزء من ذلك الكثير.

2- الراوي الثاني التابع؛ الحاكم الرسمي للبلد، رتبته الثانية. هي أقل رفعة وأثراً من السارد الفرعي (الهامشي).

3- الراوي الثالث (الفرعي الهامشي)، المباشر، زوج المرأة. يقع برتبة النائب عن جميع الرواة، ورتبته هي الأخطر والأكثر بوحاً وتصريحاً.

4- المتن والشخوص والروي يتممون التشكل الفني الطبيعي للسرد فناً وثقافة.

5- من بين القيم الثقافية هي المعلوماتية، وتتمثل في حث الروائي للقارئ ان يتزود بمعرفة عن طبيعة الخرافة التي تتحكم في البلاد وتسبب الفوضى والخراب من عام 1958الى 2023.

* أما من الجنبة الثقافية فيمكن ملاحظة الآتي:

ـ المعلومات في هذا المقطع لها علاقة بمعلومات كثيرة جداً في الرواية تؤكد الرؤية الآتية: (ان القوى السياسية كلها منتمية لطابور التجسس لصالح أعداء الوطن، ومهمتها الجديدة التظاهر بالإصلاح والعمل بالجريمة والتخريب بذات الوسائل القديمة).

ـ المرأة حتى وهي جنية، فهي مهمشة، لن تنال رضا أهلها أو زوجها أو عشيرتها، وعليها ان تفارق من تحب لإرضاء عِلية القوم. بمعنى أنها قيمة تعبير أنثوية محاذية لقيمة التعبير الذكوري.

ـ ان مروية المقطع كلها مروية فرعية محاذية للمتن الروائي العام.

- وكون الرواية فناً فهي (تقنيات فنية، معلوماتية، جمالية) لها أغراض أبعد من الجمال الفني، فهي مروية ذوقية (بتقانة وثقافة)؛ لها أهداف أبعد من المظهر اللغوي والكتابي.

ثانياً: البكارة الكونية

إنها بكارة حضور وشروق لوجوه الوجود النسوي المستزرع لوجود مطلق الفطرة والمتعة الكونيتين. وعندما نجمع (دلالة التماس مع لحظة التخيل) سيتولد لدينا مضمر نصي مخمّن يوضّع هيئة المرأة كتخمين باطني يوازي الأصل الكوني للكائن الأوحد (آدام - حواء)، ليكون العشق بدائياً وقسمة بين الكون والمدينة. لنقرأ: [انها المرة الأولى التي تخرج فيها الى شوارع العاصمة، وتقضي هناك كل تلك الساعات... لا يمكن عدَّ خروجها بعد منتصف ليلة أمس معي، وأنا أهرّبُها من شقتي، خروجاً بالمعنى الذي أقصده.

الخروج الذي أعنيه هو أن يكون في وضح النهار.. ضوء النهار يغمرُها ويغمرُ أمامها كل ما يُرى وما لا يُرى] - الرواية، ص 195

يمكننا التمعن بالمشد الكتابي السابق، والتمتع بقراءته على ضوء فلسفة الآتي:

(ضوء النهار يغمرُها ويغمرُ أمامها كلَّ ما يُرى وما لا يُرى).

وبعد قراءة المقطع سنلاحظ /

- لن تتم أية حظوة جمالية أو دلالية ما لم تتكامل ثنائية / الروح = الجسد، المرأة = ذوباناً بالرجل، وبالعكس.

- البدئيات جُلها كونية ومطلقة المعنى لذا هي متن وهامش بذات الوقت.

- مطلق الخروج ومطلق الضوء ومطلق الانغمار ومطلق التبصر؛ كلها تتعبّأ بسلة البكارة الكونية.

- نواة الكون خلية واهم خلية في الخلق هي ماهية الروح في الإنسان لذا فهو كائن دائم التبكير بكونية المطلق المقدسة، تحرراً أو خضوعاً.

ثالثاً: شيئية خاصة

دلائل الشيء في رواية "سفرة سياحية" مدمجة عن كائنين، مادي وغير مادي، تختص بالاعتزاز بالشيء لدوام التعبير عبر لغة الوجود الحق، التي بها تكتمل لذة القول باللمس، والحصول على نشوة التقابل والاندماج. لنقرأ: [في واحدة من نوبات سهومي، وأنا أمشي بتؤدة وراءها على المبعدة المتفق عليها، أسمعها تخبرني بما يخبرها به زوجها، انها لا تهمس.. تتكلم بصوت خفيض وتتلافت؛ ثم كل بضع دقائق تؤكد علي أرجوك رجاء ماكو أسماء.. أقول لها أوكي؛ وأواصل إذلال سمعي لصوتها الخفيض. حسب زوجها، فإن طيكل بنفسه ينتقل بمكان عمله الى قصر الولاية حين ابتدأ صهرهم الأول حملته فعلاً] - الرواية، ص237

* ان الشيئية تأخذ خصوصيتها بحسب مشد المقطع السابق، من:

1- ان الكائنات الشيئية موجودات متحركة؛ أولها الحكي وثانيها الشخوص وثالثها ملحقات الكلام.

2- ان ظرف السرد يخلط الوجود البشري مع وجود الجن!

3 - ان الموجودات المساعدة هلامية تخص الصوت والسماع واللا أسماء.

* هذه المبررات الثلاثة تجعلنا ان نسلسل قراءتنا لهذا المقطع على وفق الآتي:

1- تجمع هذه القطعة الروائية بين (المادي

وغير المادي = الجن والبشر وملحقات الكلام).
2- تلجأ طاقة الروي هذه الى خلق وجود ثلاثي متماثل، إذ الجن له ذات الأهمية السردية التي عليها شخوص المروية، وذات الحال ينطبق على (ماكو أسماء، والسمع، والصوت، وقصر الولاية).
3- الوجود المستحيل قيمة شيئية تخص الشيء كتعبير عن اللا شيء بتعويم قيمتين؛ هما لغة اللازمة السردية ولغة الحكي، وكل منهما شيء غير ملموس، ولن يكونا أفعالاً للفهم والتواصل، لانهما لغتان وليستا شيئين جيء يهما لغرض وجداني تنويري لا حدثي، كما عبرت عنه عبارات المقطع الفائت.
4- الرسالة غير المعلن عنها تقيم شرخاً في الروح، والبوح يجعل كل غير المعقول مقبولاً مثلما هو حال الراوي الواقعي الذي نقل جمل المقطع كله؛ عن لسان الآخرين.
5- قد يبلغ العرفان لذته القصوى واعتزازه الأوفى بما ينجزه الروي عندما يفصح الروائي برسالته (ابتدأ صهرهم الأول حملته فعلاً). اذ ان الحملة التي أوجدت نظامين في آن واحد من حيث الولاء، ها هي ذاتها، تحرك قدرتها في التكنلوجيا والعرفان على هيئة حملة عسكرية محتلة للبلد المجاور.
6- اللذة الأخرى الأقرب إلينا هي شعرية ما نثره لسان الراوي في اعلاه. سنلاحق هذه الشعرية في المحور الجديد.

رابعاً: الشعرية الموازية

القول السردي يحمل شعريته بإدائه شعرية لغوية تخص الروي، تأخذ - بحسب ما نرى - الحالة الانفعالية في الانحياز لقيم الخير، وإبلاغ رسالة التظلم على وفق صياغة فنية لها تقنية الشعر وإداء القص، والتعبير مزدوج اللغة، وهذا لن يحصل الا لرواية ذات كفاءة سردية ولغوية. لنتابع:[أقضي ليلتي هناك مع سكنة شقق عمارات شارعنا السكنية. وحين تستيقظ الشمس أستيقظ... أطرق بابها خمس طرقات بطيئة وأتبعها بثلاث طرفات سريعة. ينفتح الباب. تطل على من فرجته. أقبل وجهها أنملةً.. أنملة، وتلثم خدي عبر فرجة الباب]
- الرواية، ص90 . أود ان أوضح شيئاً هو: (ان الشخصين هما حبيبان يسكنان في عمارة وقد انهارت بلا سبب معروف فخرج الناس كلهم الى الشارع وابتنوا خياماً، عدا المرأة الحبيبة التي بقيت بشقة عشيقها كون الشقة لم تتضرر كثيراً، وعشيقها غادر الشقة لئلا يجلب انتباه الآخرين نحو ظرفها وعلاقته بها).
وبظني ان من سيقرأ هذه الومضة السردية، سيلاحظ الآتي:
1- إنها لحظة انسانية خالصة تقارب قصيدة نثر عاطفية.
2- ان طبيعة تركيب الجمل لم تهدف لتكون شعراً لذا تَغَلِّبَ حال السرد على حال الشعر بدلالة الحركة الروائية التي لم تحتج الى أي ازاحة لتطوير الفهم او لتعدد طبقات التأويل.
3- شعرية القص توازي شعرية المشاعر بسبب فني وجيه هو (احتساب اللغة شعرية موازية لطاقة السرد)، التي بدورها تعاضد بين إداء الروي وإداء لغة الدلالة.
4 - بقليل من التصرف بالقطعة النصية من جنبة سوء قصد التأويل سنرى بأن قطعة المروية هذه تتبنى (أُسلوب التكثيف في التعبير ليعطي فائض معنى لا يفرط بالحدث).

خامساً: المعرفية

ان طبيعة توجيه (المكتوب المدون لقرّاء مفترضين) هي طبيعة مضمون محتمل

بطرافة المخبوء من القيم الإنسانية والأدبية. ان ربط العلامات بالإشارات بالشيفرات يقيم تكاملاً خطابياً يجعل القارئ منساقاً مع العمل ـ بدراية أو بدونها ـ فيزداد متعة، وثقافة، وذوقاً، تطهّراً، تغيّر أُسلوب، معرفة، تطلعاً لحياة أفضل. تحقق الرواية ذلك عبر فضيلتي التقنية والاشارية اللتين تتضافران في تسبب الاشتغال الروائي بحسب التنوع الآتي:

أ ـ اللازمات

هي لقطات متكررة تأخذ بنظام التوالي المطرد كأنها متواليات رياضية عددية. يصعب حصرها انما نشير لبعضها التي اتممنا تحديدها، وهي:

1ـ لازمة الاستبداد (آني مقهور عليكم)، وقد تكررت أربع مرات؛ كأن كل تكرار يعادل سلطة فاشية جديدة.

2ـ لازمة استقبال الضيوف بمائدة أكل عامرة، وما يلحق بها من حيف للنساء الطباخات، وهن جميع نساء البلدان المتخلفة. تكررت في الرواية سبع مرات.

3ـ لازمة ماكو اسماء. وهي بوح بين الحبيبين، تكررت سبع مرات.

4ـ لازمة الكابوس. وقد لازم هذا الكابوسُ المظهرَ الكتابي متدخلا بالروي ليقرر مصير الحبيبين وأحيان اخرى يكون حكاية مفردة تخص الحبيب البطل فقط.

ب ـ قوى السرد

يركز الكاتب على أربعة خطوط او مستويات للسرد؛ هي:

1ـ قوى السرد الأُسطوري، يمثله مقول الجن بملوكه الأربعة وتوابعهم الخمسة، ومؤسسات عملائهم.

2ـ قوى السرد الواقعي متمثلاً بما يسرده الحبيبان وما ينقلانه عن الاضطهاد والخراب للمدن الفاسد حكامها، المنهارة مساكنها.

3ـ السرد الخليط قد كان من أعقد تقنيات السرد وأكثرها قرباً والتصاقاً بما نعنيه من (تكنو ـ ثقافي).

4ـ الميتا سرد، وهو الآخر ممارسة ثقافية تقنية تهتم بالدلالة الفائضة عن تدخل السارد الرئيس. وقد مورست بشكل ضيق لا يتعدى كلمات بين العاشقين؛ تخص رغبة العاشق بكتابة قصة فجيعتهما وفجيعة البلاد، ورغبة العشيقة العاشقة بعدم ذكر الأسماء.

ج ـ الفرز والتصنيف

سنكتفي بفرز مقام المقطع الأدبي أدناه، نصنف نوعه وهدفه النهائي.

1ـ الصنف السردي جاء على أعقاب فرزه كـ (رواية)، وأدى وظيفة روي ديناميكي متناسق تصاعدي متسق، يبدأ بكابوس وينتهي بمكان غائب، وفقدان أثر الحبيبة لكأن الروائي قرر ضياع البلاد الى الأبد الذي نخمنه لأعمارنا.

2ـ بعد توضح طبيعة المروية معرفياً يصير واجباً ان نقول الآتي:(مدونة الشبيب من بدئها حتى الصفحة الأخيرة هي حوار ثقافي بين البطل الكاتب، والبطلة الملتاعة، ومجموعات القتل والتجهيل بقواها الظاهرة والخفية، وهي كشف حساب مفتوح على سنين لا حصر لها تستقرئ مستقبل بلد يُراد له ان يندثر جغرافيا وتاريخا)..

---

(1) طه حامد الشبيب، رواية: سفرة سياحية، دار الصحيفة العربية، بغداد، دار العراب، دمشق، 2024.

مبررات القسوة

طه الزرباطي

حينَ تغضبُ الرياحُ؛
تَصُبُّ نارها على أجنحةِ الغيمِ،
وهي تطيرُ بأحلامِها،
تَتَفتَتُ كأوراقِ الوردِ في السماءِ،
تَتَوزَّعُ في كُلِّ مكانٍ،
لكِنَها حينَ تُبصِرُ العطشَ؛
تُلَمْلِمُ نِثارَها،
تتعانَقُ عِناقَ عاشِقِينَ في مطارٍ غريبٍ،
وتبكي،
تبكي،
تبكي،
في هذا النظامِ العَظيمِ؛
ثمةَ قسوةٌ غيرُ مُبررةٍ،
غضبٌ ....
حينَ تبكي الغيومُ بِشدةٍ؛
تنسى سيولَها،
وحين تصحو من نوبةِ البكاءِ؛
تتوجعُ لِبُكاء الأرَضيين ،
وتُرددُ ثمةَ قسوةٌ لا مُبررَ لها،
فَتعتَذرُ الريحُ وتَصْرُخُ؛
عند الغضبِ أنسى ما أنا فاعِلٌ،
حينَ أضربُ الجبلَ؛
تجرحُني أسنتُها،
فأنزِفُ غضباً ،
حين أعاتبُها تضمني اليها فننسى؛
جرائمنَا الصغيرةَ،
ننسى كُلَّ (ما) من جَرّاءِ (ما) ...
وما تحفره الأسئلة (المبهمة) في يقيننا المبهم...
النسيانُ حِكمةُ الله؛
وسِرُّهُ الصامِتُ ...
حينَ يحلو مِزاجي ،
أحمِلُ الغيومَ في راحَتَيَّ ؛
وهي حُبلى بمائها العذبِ،
وأُرشِدُها الى الصحارى التي تفتحُ أفواهَها،
وتُغني،
كأننا نكتُبُ قصيدةَ عِشقٍ،
على صفحةِ الأرضِ،
(فنمت وربت) وأينعَ صِلصالُها،

ثم حملتُ الموجَ فداعبتُ أثداءَ الرملِ،
موجاتٍ من الموسيقى تَناغَمَتْ،
مع ازدهارِ شوقي اليك أغنيةً،
كم نهدا من الرملِ،
أرضعتْ الأمواجَ خمرَ عشقِها؟
كمْ ساريةً تحطمتْ بِصفعةِ الريحِ؟
وغضبِ الموجِ،
بسهامِ الماءِ وهي تُفتِتُ الخشبَ،
ثم يعودُ البحرُ بريئاً،
موسيقى هادئةً؛
وعِناقَ عاشقين؛
ثمةَ قسوةٌ لا مُبررَ لها؛
أ لها ما يُبَرِرُها على الرُغم من الشُعراءِ،
وثمةَ ظهورٌ في المكانِ الخَطأ،
في الزمانِ الخَطأ ...
تملأ الريحُ غليونَها،
تنفثُ دخانَ حُزنِها القديم؛
وحروبِ (ابناءِ) الله الأغبياءِ،
وتنشغِلُ بالأشجارِ؛
تَشعُرُ برغبَةٍ في الاستمتاعِ بألسنةِ النارِ،
وهي تلتَهِمُ كُلَّ حيّ ،
فترمي بقايا غليونَها ،
وتنفخُ ،

تنفخُ ،
تنفخُ ،
حتى يغضبَ الماءُ ،
ويصفعُ هدوءَنا المؤقتِ ،
ثمةَ غضبٌ لا مُبررَ لهُ ،
لُعبةٌ ...
مِزاجٌ مُتقلِبٌ ،
مُداعبةٌ صاخِبةٌ ،
تنتهي بجريمةٍ ،
صرخةٍ ،
عتبُ عينين ،
ابتسامةٍ لا يُمكِنُ أنْ تفهمَها ،
ذاكرةٍ مُترعةٍ بِغضبِ شاعِرٍ ؛
يكتُبُ قصيدتَهُ ؛
كأنهُ أودعَ سِرَّهُ العظيمَ ،
وأنزَلَ حِجارةً عنْ كاهِلِهِ ...
تقيأ كلماتِهِ ،
وارتاحَ من خمرَةِ الشِعرِ ،
ومن شياطينِهِ ،
وملائكتِهِ ،
وكؤوسِ طلاهُ ...
أقرئيني جيدا يا صخورُ ،
أنا الريحُ

**زاوية نقدم فيها أحدث نص الى جانب أحدث كتاب أصدره المؤلف..
وذلك بهدف تشكيل صورة عن الكاتب ومنجزه.**

قصة قصيرة
سلالم الهاوية

سلام حربه

دائما ما كنت أسأل نفسي من الذي يحدد سلوك الإنسان هل هو العقل أم العواطف والمشاعر والأعراف التي يتربى عليها، وهي من تحدد وجهته والطريق الذي يسلكه في حياته واللغة التي يتفاهم بها مع الناس..؟ أنا في حيرة من أمري، لكن ما توصلت اليه وأنا في الشوط الأخير من عمري إذ قاربت السبعين عاما وحين يوغل بي العمر يتكدر البصر لدي كالصورة ويظلم. كانت الصورة في السابق تبدو مضيئة متوهجة وكل ما يقع تحت عين الكاميرا تلتقطه منيرا مشعا.

ما أن تمر عليها السنون حتى تفقد بريقها ويتسخم الإطار وتتداخل الأجساد وتُحشر في البقية من بقعة الضوء وما كان متوهجا، الأرواح، تقاطيع الوجوه، الإبتسامات العريضة، شعور الرؤوس السود، الملابس البيض الضيقة على الأجساد الممتلئة بالصحة والعافية، الطبيعة بأرضها الخضراء وأشجارها المورقة وورودها الضاحكة، يفقد رونقه ويسْود. هذه الحياة تذكرني بالصورة التي تلتقطها كاميرا الكوداك الفورية، في الوهلة الأولى ما أن تخرج الصورة من جوف الكاميرا حتى تبهرك بألوانها المثيرة وبمرور الوقت يهرب الضوء والألوان منها حتى تصبح في النهاية لوحة سوداء وكأن شيئا لم ينبت فيها في لحظة مسكها للزمن. في بداية السبعينيات كنا طلابا في الكلية، كانت الحياة بالنسبة لنا سباقا وحركة لا نعرف التوقف، ركض ولهاث من أجل اللحاق بالآخرين الذين يسبقوننا علما ومعرفة، ننصت للكبار في المقاهي والحانات، حين يتحدثون نتعلم منهم أي الكتب الثقافية علينا قراءتها كي تمنحنا مفاتيح أبواب الحياة. كان زميلي أحمد الأقرب الى نفسي وقد تربينا سوية في محلة ومدينة واحدة، همّنا الوطني لا يُعلى عليه همّ آخر ونتقاسم خبز الفكر، من التأمل والقراءة

وحضور الاجتماعات، الذي يخرج الينا من تنور الواقع حارا شهيا أشبعنا التزاما اجتماعيا وزرع لدينا قيما مدنية وعصامية أخلاقية وشعورا بالمواطنة والعدالة والترفع عن كل الصغائر ومسح كل الشوائب والأشنات الضارة التي تلتصق بعقولنا وأفكارنا. كنا نلاحق الولائم الثقافية التي تقدمها معارض الكتب، دور السينما والمسارح والمراكز الاجتماعية والحلقات الحزبية التي يلتقي بها كبار المبدعين من شعراء وروائيين وأصحاب فكر وسياسيين مخضرمين. ما نأمله أن نمتلك لسانا باشطا كالسيف نستطيع أن نرطن به، حين تجمعنا المجالس، يميزنا عن الآخرين. تجدنا مع القوم أنّى يكونوا لكن خطواتنا وحيدة ومتفردة. نؤمن أن الثقافة وسيلة لامتلاك العالم ولا شيء أثمن منها ولا كل كنوز الدنيا من خلالها نبني الوطن كي يكون الأبهى والأكثر إشراقا بين كل بلدان العالم. كنا ثلاثة أنا وصديقي أحمد وزميلتنا ناهدة التي كانت تعد من أجمل طالبات الكلية، بالنسبة لي لم أر في حياتي أجمل منها، غزالة برية شاردة بشعر أصفر وعينين شهلاوين بلون شعرها وجسدا مكتنزا إنوثة يتمايل كالريشة مع أية هبة ريح. تنورة ناهدة في الزي الموحد، اللباس الشائع في الكليات في تلك الفترة، تكشف عن ساقين بلورين عمودين من رخام ينهضان بعجيزة ووسط مخصّر وصدر ينفر منه نهدان يناطحان بجمالهما كل المرتفعات الساحرة في تضاريس العالم. ثلاثتنا بعمر واحد وفي المرحلة الدراسية في الكلية نفسها، أنا واحمد كنا نسكن القسم الداخلي لأننا من أبناء المحافظات، زميلتنا ناهدة من سكنة بغداد. ما أن ينتهي يومنا الدراسي في الكلية حتى نسيح بشوارع بغداد، أزقتها، دروبها الخلفية، نكتفي بالقليل من الطعام، كنا نلاحق ما تعرضه دور السينما من أفلام ذي طابع ثوري مثل زت وساكو وفانزيتي والهروب وكل الأفلام التي تحمل رسائل إنسانية وتبث قيما معرفيا كنا نحرض زملاءنا وندعوهم لمشاهدتها ونلاحق المسرحيات التي كانت تقدمها الفرق الملتزمة كفرقة الفن الحديث. في المسرح والسينما كانت ناهدة تجلس بيني وبين أحمد، رائحة إنوثتها تدوخ حتى الذي لديه عطب في أعضائه التنفسية، كنت أنشغل طوال العرض وأنا أتعقب رائحتها في روحي حتى لم يعد مهما ما يعرض أمامي، رغم هذا كنت أضع مسافة بيني وبينها وأحاول أن أحشر نفسي في زاوية الكرسي خوف أن يلتصق فخذانا، يدانا، جسدانا في لحظة اندماجنا في ملاحقة ما يعرض أمامنا على شاشة السينما أو المسرح من أداء مبهر. ما أن ينتهي العرض حتى كنا نتناول عشاءا في أفقر المطاعم الشعبية، لا ننتبه الى ما تحويه الصمونة من غذاء لأننا منشغلون بمناقشة الفيلم أو العرض المسرحي. قبل أن يقترب نصف الليل وتهدأ شوارع العاصمة نركب آخر باص حكومي متجه الى حي البنوك حيث تسكن عائلة ناهدة وقد امتلأت أرواحنا سعادة وبشرْ وبهجة. نطرق الباب، وقد أصبحت عادة يومية، يفتحه أخوها كريم يسلم علينا بحرارة، يستلم ناهدة عزيزة مصانة ، يشكرنا على اهتمامنا الأخوي بها، نودعه ونحن بكامل الرضا بأننا سلّمنا الأمانة الى أهلها. رغم أن نظرتي اليها كانت أكثر من الأخت لكنها لم تغب عن بالي يوما ما. في أحلامي كانت تظهر لي كل ليلة بمفاتنها الباهرة وضحكتها الساحرة وما أن أمد يدي إليها حتى تركض مبتعدة وتختفي

في الأثير، أفز من نومي وقلبي ممتلئ لوعة وحسرة، أقضي بقية الليل متنهدا غاضبا، أستقبل الصباح بملامح مكفهرة حانقة أدور في ممرات القسم الداخلي وغرفه الفارغة والألم يقرص روحي إذ كيف سولت لي نفسي حتى في الحلم أن أفكر مجرد تفكير بالاقتراب منها ومحاولة لمس جسدها..؟ صباحا نلتقي في الكلية وقد نفضت عن خيالي كل ما علق به من نزق صبياني زارني في الليل شجعني على أن أرتكب حماقة تافهة ولكن الحمد لله انقلب السحر على الساحر وعاد الصفاء الى نفسي لنقضي أنا وناهدة وأحمد باقي اليوم بين فصول الدراسة والفسح بين الدروس ونحن نتناول الشاي في نادي الكلية نتحاور في أمور السياسة وحال البلد، يمتد هذا النقاش في جولاتنا المسائية بين المقاهي والمسارح ودور السينما طيلة السنين الدراسية، مراقبة سلوك زملائنا وزميلاتنا الأعضاء معنا في اتحاد الطلبة وإنضاج أحلامهم الفتية وحثهم على تطوير ملاكاتهم الثقافية حيث هذا ما كان يشغلنا نحن الثلاثة إضافة لتفوقنا في دراستنا الجامعية لنبدو نماذج راقية تستحق أن يفتخر بها الآخرون. كنا متطرفين في التزامنا الأخلاقي، كان زميل وزميلة لنا في المرحلة الثالثة في الكلية وعضوان في اتحادنا وهم على علاقة حب معروفة للجميع وعلى وشك أن يعلنا الخطوبة ضبطناهما متلبسين في نادي الكلية الذي كان مدرّجا حيث يجلسان في أسفل درج وكان خاليا من الطلبة وهما يقبلان بعض، ثارت ثائرتي، كنت وقتها رئيسا لاتحاد الطلبة، عقدنا اجتماعا عصر ذلك اليوم، وقفت على رأس المجتمعين وأنا أكاد أشتعل من الغيظ قائلا..

_ أنا أطالب بفصلهما من الاتحاد ومقاطعتهما نهائيا ..

نهضت ناهدة وهي تنظر الي بعين الإجلال والاحترام قائلة..

_ أنا أضم صوتي إلى صوت زميلي عدي..

رفع أحمد يده وقال..

_ أنا أؤيد الزميلين ويجب معاقبتهما..

قررنا فصلهما وتحريم مخالطتهما من الجميع وهذا ما دفعهما على التقوقع على نفسيهما وأعلنا خطوبتهما بعد أقل من شهر ليدفعا عنهما هذه الجريمة الأخلاقية النكراء في نظر زملائهما وعلى الرغم من كل الحب والتودد والاعتذار للآخرين إلا أنها لم تجد نفعا وبقيا وحيدين يعاقران خيبتهما حتى التخرج. الألوان في الصورة الفورية التي نقف فيها، نحن الثلاثة، ما زالت بهية. افترقنا بعد التخرج، كان جميع الزملاء يعتقدون بأني سأتقدم لخطبة ناهدة وهي ما كانت تفكر به أيضا ولكن هذا الأمر لم يخطر على بال لأني لم أفكر بالزواج مطلقا فقد كان الوضع المالي لعائلتي عسيرا وهدفي إن تعينت أن أخدم وطني من خلال الموقع الوظيفي الذي سأحتله. قضيت خدمتي العسكرية في شمال العراق زمن التمرد الكردي وكدت أفقد حياتي مرات عدة، حيث ينصب المقاتلون الكرد مفارز آنية يصطادون بها الجنود الغافلين والمتسربين من الخدمة أو ينقضون على الربايا، حين يجثم الليل ثقيلا في ساعاته الأخيرة، يقبضون أرواح المتعبين الذين قضوا نهارهم في حمّى الواجب العسكري الذي يبدأ مع طلوع الشمس ولا ينتهي مع زحف الليل بفرقه السود التي لا تعرف سوى التقدم. سرحت من العسكرية بعد خدمة ما يقرب من السنتين والتحقت في الخدمة المدنية، ما أن حاولت أن أرتب أوراقي وأراجع نفسي وما سأقدمه تميزا عن الآخرين

في خدمة وطني حتى قرعت الحرب العراقية الإيرانية أجراسها ودخلتُ في أتون معركة حامية استمرت لثمان سنوات، خرجت منها كيانا محطما محتضرا فقير الأحلام وروحي غائمة، ما تتركه الحروب من شظايا تقتل كل ما هو فكري وإنساني وعقلاني وتقلع كل عُقد الجمال ليغدو البشر قطيعا لا همّ لديه سوى أن يبقى حيّا ما أمكن وما تتركه من آثار وبقع في النفس لا تقدر كل المنظفات والمعقمات على إزالتها. نظرت في الصورة الفورية فقد فقدت ملامحنا الكثير من خطوطها وبقع السواد امتدت على وجوهنا وأجسادنا. قارب عمري الثلاثة والثلاثين، لا أعرف ما حلّ بناهدة، هل تزوجت، هاجرت، أم مازالت عزباء..؟ فكرت بالزواج كي أمسح صورة ناهدة وجسدها الشهي وضحكتها التي تتفطر لها روحي ولم تفارق خيالي يوما ما. إقترنت بفتاة دلني على عائلتها أحد الأصدقاء، لم أرتو من جسدها كي أزيح ناهدة من فراش أحلامي وهي تلاحقني كظلي، لم ألتقط بعد أنفاس الراحة والتأمل واذا بالعراق محتلا للكويت، أحضرنا حقائبنا و(يطغاتنا) وزيّتنا بنادقنا للحرب التي قرعت أبوابنا وحدودنا وأصواتها المزمجرة ملأت الآفاق، تزبد وترعد وتتوعدنا بالقصاص الذي ستصبه جيوش ثلاثة وثلاثين بلدا غربيا وعربيا جامَ غضبها فوق رؤوسنا. خرجنا من نيرانها بقدرة قادر إضطر الكثير من العراقيين على مغادرة البلد مفضلين الإنحناء للغربة على الركوع عند قدمي نظام جائر ومنهم صديقي أحمد الذي اختار إيطاليا عشا يفقس فيه خيباته. وبعدها فقدنا صديقا عزيزا لبلدنا حين إنهار الإتحاد السوفياتي وتشظى الى دويلات صغيرة هزيلة لنكون بين فكي التنين الأمريكي بلا ناصر أو معين وقد فرضوا علينا حصارا لعينا إستمر قرابة الاثنتي عشرة سنة لعنّا فيها اليوم الذي ولدنا فيه وتصاعدت صرخات جوعنا وآلامنا وموتنا المجاني حتى تمزقت آذان الآفاق الأربعة دون أن يلتفت أحد الينا حتى انفرجت الكثير من الأيادي وارتفعت الرؤوس نحو السماء ولهجت الألسن بالدعاء أن يُنقذ العراقيين حتى لو جاء إبن صهيون لحكمهم وهذا ما حصل عام 2003 حين أسقط المحتلون الأمريكان النظام الدكتاتوري وأعلنوا بداية عهد فوضوي جديد حيث شرعت أبواب البلد على مصراعيها ليدخل، الإرهابيون والمرتزقة والقتلة والفاسدون والمتسولون والمعتاشون على مزابل الأجنبي والكثير منهم يلبسون جلباب الدين، على الدبابة الأمريكية وأشاعوا في البلد الفوضى والخراب والجرائم الشنيعة. أخرجت الصورة الفورية لم أتمكن التعرف على الواقفين في الصورة فقد اسودت ولم يبن منها سوى ضحكة ناهدة الساحرة التي نثت على رؤوسنا الفرح الذي لم أره في الصورة التي بين يدي لكنها كخيط حاد أتحسسه الآن كنصل رفيع ما زال يطعن قلبي يؤلمني كما في السابق، لكن ما انتبهت اليه أن عقلي قد تشوش ولم يعد قادرا على مواجهة النفايات وآفات الغرائز التي يفرزها الواقع الجديد ولم أستطع لها كبحا وتزغللت الرؤيا وتشظت المرايا والفكرة انعكست آلافا ضاعت الحقيقة فيها. اليقين أصبح أعمى يحتاج الى من يدله على الطريق لدي وما كنت أؤمن به في السابق لم تعد تتلمسه أصابع تفكيري جيدا وقد طمرته أزبال الحياة الجديدة وفوضاها وغياب النظم والإرادة السياسية ما أدخل البلد في دوامة من الصراع من أجل البقاء على قيد

الأسى والعدم. شعرت أن رأسي تتسرب منه الأفكار والقيم الفاضلة كما يتسرب الرمل من بين أصابع الزمن، بمرور الوقت انغرزت في عقلي أفكارا وقيما جديدة لم أعهدها في السابق ولكن يبقى السؤال من المسؤول عن غرسها مع أن تربة عقلي لم تكن مهيأة لها..
سافرت حين توفرت لي فرصة ذهبية للسفر الى أوربا لألتقي صديقي أحمد في إيطاليا، أكيد أنه سيأخذ بيدي ويضعني على طريق الهداية كي أعرف رأسي من رجلي ولكني وجدته تائها، ضائعا، لا يتحدث إلا بالأرقام وكم سيجني من هذا الجهد المضني أو ذاك، بعد كل سنين الغربة، لم أجده مختلفا عني رغم أنه يعيش في بيئة مختلفة. سألته وأنا في حيرة من أمري..
_ أحمد، على الرغم من أننا نعيش في بيئتين مختلفتين ولكن تفكيرنا يكاد يكون واحدا في هذا الزمن الجديد. مع تفشي الأصولية الدينية عندنا..
تفرس أحمد في وجهي زمنا ثم قال معقبا..
_ أتعلم يا عدي أن الواقع هو من يصوغ أفكار الناس ويحدد نمط حياتهم، هناك في بلدنا حيث الفوضى والواقع متجه كاملا نحو الجشع والاستغلال وكيف يجني الفاسدون المزيد من الأموال، هنا الأمر نفسه رغم أن إيطاليا بلد حضاري عريق ولكن نظامه السياسي القائم هو كيف تجني الشركات العملاقة الأرباح وكيف يمتص الغني دم الفقير، هناك طغيان للتفكير الغرائزي. تزوجت هنا من إيطالية وأنجبت منها ولدا لكننا افترقنا وهي تطالبني بنصف ثروتي، أشعر أني بلا قيمة هنا وقد سحقتني عجلة الرأسمال، لا أعلم ما ينتظرنا..
ساد سكون حذر بيننا، كان أحدنا ينتظر العون من الآخر، بادرت كسرا للصمت الثقيل..
_ أحمد، هل كنا على خطأ..؟
زفر أحمد بحرقة، أجاب بألم..
_ أفكارنا ليست خاطئة لكنه الزمن الحديث الذي تسيد فيه النظام الرأسمالي في نهاية القرن العشرين أشاع الرثاثة والقبح وقمع الأفكار، كل شيء أصبح سلعة الثقافة، الدين، الأخلاق ..و
انهمرت الدموع من عينيه، شعرت بالأسى نحوه، رأى الشفقة في عيني، حاول أن يبدو قويا واختياره الغربة لم يكن خطأ قاتلا، ألصق ابتسامة هجينة على وجهه بدت نشازا، غيّر دفة الحديث قائلا..
_ بالمناسبة ما هي أخبار ناهدة..؟ أعتقد أن سلوكنا نحن الثلاثة كان ملائكيا في ذلك الزمن، أنا أحسد نفسي عليه وأسميه الزمن الجميل..
أردفت قائلا..
_ لم أرها مذ تخرجنا في الكلية، لقد عرفت في هذا الزمن الجديد كيف يُزرع الشيطان في النفوس..
أيامنا الأخيرة في بغداد وقد اقتربت من السبعين عاما، أخرجت الصورة الفورية كانت سوداء كالليل البهيم واختفينا نحن الثلاثة ولم يعد لنا وجود. في زمن الفوضى تسقط القيم ولم يعد للوجود من معنى. حقا الصدفة أفضل من إي ميعاد، في أحد المسارح وفي صالة الانتظار وجدت نفسي وجها لوجه مع ناهدة لم أعرفها ولم تنتبه لي لكن نبرة صوتها، وهي تتحدث مع صديقة لها، محفورة عميقا في روحي ترن في مسامعي منذ ما يقرب من خمسين عاما. اقتربت منهما وسلمت عليها، تأملتني وهي تقيس أبعادي في ذاكرتها وشيئا فشيئا اتسعت عيناها اللتان ما زالتا براقتين

تكتنزان جمالا دفينا وفمها فيه بقايا من طراوة وهي تنظر اليّ غير مصدقة.. قالت دون أن تحاول غلق فمها..

_ عدي..!

_ ناهدة..!

تقدمت نحوي وكادت أن تحضنني لكن الأعراف الجديدة قد ترجُمها وتصفها بأقذع الأوصاف، تأملتها من فوق لتحت، ترهل جسدها وهي تقاربني عمرا وامتلأ رأسها شيبا، ما يثيرني فيها أن عينيها الجريئتين الهاذيتين تغوشتا بغبار الأحزان. جلسنا سوية في المسرح، سألتها عن دورة حياتها، منذ سبعينيات القرن الماضي، من يوم تخرجنا، قالت بألم..

_ تزوجت من رجل لا أحبه، أنجبت منه ولدا يعيش الآن في السويد، مات زوجي بعد أن تزوج عليّ، أنا الآن وحيدة أسكن في بيت زوجي الذي تركه لي.. وأنت ما أخبارك..؟ لا أعرف بم أجيبها، لكن اضطررت الى البوح لها..

_ لا أعرف من أنا، روح ميتة وجسد شهواني على الرغم من تقدمي في السن..

أطفئت أضوية المسرح، لم يكن ما يشغلني ما يعرض على المسرح ولكني قلبت سجل ذاكرتي الذي كانت خطوطه واضحة وتقاسيم جسد ناهدة في الماضي المطبوعة فيه، ما زالت تطرق نوافذ شبقي الذي رفع رأسه رغم تقدمي في العمر. لم أشعر إلا ويدي تمتد تداعب جسدها، فخذها، ما ترهل من بطنها وصدرها، كنت أتوقع أن أجابه بردة عنيفة وقد تصفعني وتصرخ مستنجدة تسبب بطردي من المسرح. إلتفت ناهدة نحوي، التقت عيوننا، كانت ابتسامة شكر مرتسمة على وجهها وهي تدنو جسدها أكثر مني، لم أسحب يدي ولكني بادلتها بابتسامة أعرض تتسع مع كل مداعبة جريئة وعلى وجهي بشائر البطل المنتصر الذي فتح في النهاية قلاعا كانت في يوم ما عصية عليه..

والمجلة قيد الطبع..

فيما نعد اللمسات الاخيرة لاصدار هذا العدد من مجلتنا ، فوجئنا بغياب كوكبة من مبدعينا التقدميين الذين رحلوا مع مطلع هذا العام 2025 ، فقد ودعنا على التوالي : الفنان التشكيلي المجدد : هاشم سمرجي، والباحث / الاديب الكردي : د.كمال غمبار، والمترجمة : د.سعاد عبد علي ، والقاص والروائي : احمد خلف .

لارواحهم السلام والطمأنينة والذكر الحسن ولذويهم واصدقائهم الصبر والسلوان

الثقافة الجديدة

سلام حربه في (بيت طوفان)*

حسين سميسم

بيت مهجور مهدم لم يبق منه إلا باب مشرعة وغرفة تطل على الزقاق، بقبرين هما بقايا حب جارف، ودهشة ساهمت بقلع (طوفان) من مسكنه العائم على حضارة أصيلة قديمة، لتلقي به وسط مدينة تقبع على حضارة مماثلة. غادر هذا الريفي بلاد الماء التي تنفست فيها الحياة الاولى مودعا بيته القصبي الذي أكلته النار، حصل على إمكانية القراءة في تلك الأصقاع النائية فأخذت سوسة التناقضات والأفكار تفعل مفعولها وتنخب في نفسه وفي عقله، واختار العيش في المدينة مثل تلك الكائنات القديمة التي عاشت منذ آلاف السنين، مقلدا انتقالاتهم من الحياة البدائية إلى دولة المدينة، حيث اختار مهنة البناء، ثم سنحت له الفرصة في البحث عن الجذور المخبأة بين الرمال التي خلبت روحه وزلزلت كيانه ومعتقداته. اختار الكاتب لحياة (طوفان) منطقة جغرافية عريقة تقع بين الاهوار ومدينة بابل، وكان قاصدا من سير الرواية عرض حضارة وادي الرافدين طيلة أربعة آلاف سنة بشكل مقتضب، واستكشاف مكنونات هذه الأرض المتربعة على كنوز حضارية لم نعرف لحد الآن معظم أسرارها، ولم تكن حاضرة لابنائها الذي عاشوا عليها منذ سقوط تلك الحضارات منذ آلاف السنين، فهي كنوز معرفية خلقتها هذه الارض، ويبدو ان الكاتب كان قد جمع منها غزارة تغذي القارئ بمعلومات قد يسمعها للمرة الاولى، فيتولد فيه فضول للمشي على هذه الأرض مفكرا وئيدا

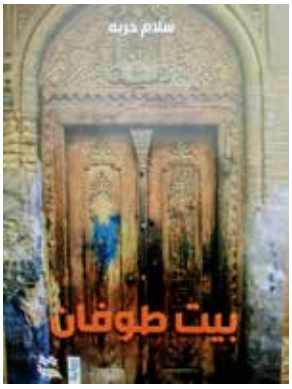

فوق النبع الذي الهم كافة الحضارات والأديان كافة . اختار الكاتب اسماء ابطال الرواية من معاني الأدوار التي عكستها، وهي في الوقت نفسه متشابكة متصارعة لاتركن الى الهدوء... (صبرية) تلك الريفية الذائبة في مجتمع ريفي عريق، حيث جسدت معاني الصبر في هجرتها من عائلتها وانتزاعها من أرضها، وصبرها على عدم الانجاب، وإكراهها على العيش بين حيطان اربعة مع (الطوفان العرم) الذي مر بها وقلب حياتها راسا على عقب، لتنتهي وسط عزلة باردة غريبة في قبر وسط تلك الدار الخربة، حيث انتهى الصبر بوفاتها عام 1991 لكنه ظل محصورا داخل البيت لم يسمع به أحد إلا بعد سقوط النظام البعثي عام 2003 . (خالد) الذي أخذ على عاتقه استكشاف الدهشة وتلك الأسرار ليقلب التصور عن الجن والخرافة في ذلك البيت إلى حقائق موجودة تستطيع الحفر في تلك الأرض أمتار لتعرف كنوزها، ومجرد

ان تحفر في هذا الجب المظلم وتضيؤه تختفي تلك المخاوف الطفولية عن الخرافات والجن، وحاول خالد بعد إعجابه بتلك السيرة الغامضة ادامة ثقافتها وتخليدها عن طريق الحديث عن سيرة (طوفان) لأصدقائه الذين باشروا في زرع مقبرة (طوفان) بالورد والشموع لتخليد ذلك الماضي التليد. رسم الكاتب صورة خالد بطريقة تشبه زجاج السيارات ايام الحصار، حيث أثار الحصى والشقوق تزينها من الجوانب كافة، او ربما خوذه جندي قادم من حرب طويلة، خرج خالد سالما من كل التجارب المرة والحروب التي مرت بالعراق، وهي تعكس سيرة ذاتية للكاتب نفسه، وعن طريق جلسة خمر وسكرة ليلية واتكاء غير مقصود على باب (طوفان) يكتشف تلك الليالي السبع اللاتي والغموض الذي تشكلت الرواية منه. بدأت الرواية بمكان لتنتهي فيه لكنها تنافست بين قصة خالد وهي قصة حكت تراجيديا الواقع الذي مر بالعراق خلال نصف قرن لتنتهي بقصة ذات إطار أكبر هي قصة حياة (طوفان) التي تربعت على قرن كامل من تاريخ العراق الحديث والتي تحكي عن الينابيع المعرفية الهائلة روت ارض العراق.

وعلى الرغم من صيغ التفاخر والاعتزاز بذلك التاريخ المجيد فإن الرواية تخفي خيبة أمل كبرى بشعوب هذه المنطقة، وادانة لسيرتها التي ابتعدت عن الطرق العلمية والعملية في تفكير الأقوام الاولى وانقطعت عنها ، فقد تضمنت الرواية زيف الأفكار اللاحقة، والتزوير العمد الذي مارسته الديانات المختلفة التي أخذت من تلك الحضارات عقائدها وطقوسها كافة، حيث تنكرت لها بل كفرتها، ومازالت قوى التكفير قوية تركن المجتمع في زاوية بعيدة عن المنهج الذي قدحته الشعوب الأولى وأنارت به كامل المنطقة والعالم، فحول (خالد) قبر (طوفان) الى رمز يجتمع فيه الموت والحياة والدعوة الى عالم افضل، لكن تلك الدعوة ظلت معزولة نظرا لتركيز الرواية على رمزية عدم الإنجاب التي تكررت بأسلوب حزين عدمي، وظلت حلوله محصورة بينه وبين اصدقائه في المقهى، ولم تستطع الورود ولا الشموع المبثوثة حول قبر (طوفان) في انارة المجتمع القابع في الجهل والتكفير. وبسبب عدم ايمان طوفان تم طرده من قريته الأولى، ثم استقال من عمله، وظلت عوامل حصاره وابتعاده عن الحياة ماثلة في نصف القرن الأخير من حياته، حيث صور الخرافة والجن والغرابة تلاحقه لغاية وفاته معزولا في محلة الوردية في بيت مهجور أظلم، وودع (طوفان) حياته بعد (احتلال مدينة بابل من الغزاة، حيث الفوضى تضرب أطنابها في كل مكان، والشارع تحكمه العصابات وقطاع الطرق وادعياء الفضيلة الجدد). الرواية جميلة تحتوي على مواقف بديعة للاستراحة من خضم التفكير في كثافة أحداث الرواية، وقد بنيت ظلالها من تعابير انيقة تكتنز قدرة في الوصف والسياحة في عالم الكلمات، ولا يستطيع القارئ تركها لغاية إكمال قراءتها، حيث تدفعه للتفكير العميق بحلول ربما تعيد الحياة والضوء الى ذلك البيت المهجور، والرواية بها حاجة الى التأني في المرور باحداث غزيرة خلال قرن كامل هو عمر (طوفان)، كذلك تبرير انتقالات طوفان الفكرية السريعة، فقد تكلم في الريف بأسلوب المتعلم المديني العارف لمفردات وطرق لاتعرفها تلك الاصقاع البعيدة .

• سلام حربة، بيت الطوفان، رواية، دار أهوار للنشر والتوزيع، بغداد، 2024.

ثلاث مسرحيات قصيرة

طلال حسن

صوت الظلام

ظلام، صوت فتاة،
يأتي من بعيد

الصوت : خلات ..
صوت خلات: آه هذه عيشة .
الصوت : خلات .. خلات ..
صوت خلات : " يتمتم " عيشة .

خلات في شبه ظلام ،
تسلط عليه مجموعة صور

خلات: شنكال .. الربيع والسلام .. دماء .. دماء
.. قتل .. وانتهاك .. وتخريب .. رجال ..
ونساء .. وأطفال .. فتيات .. نساء ..
أمهات .. شنكال .. شنكال .. شنكال .. "
صمت " عيشة ..

بقعة ضوء على خلات ،
وهو يتقدم إلى وسط المسرح

خلات: عيشة ، وأنا بعيد عنكِ ، في اربيل ،
سمعت بما يجري في شنكال ، تركت كلّ
شيء يعود لي ، وأسرعت إلى دهوك ، لم
أمرّ بالموصل ، فالغربان كانت تحتلها ، ويحتلون أهلَ الموصل ، ومن هناك ،
من دهوك تسللت عبر جبل شنكال ، أريد
أن أصل إليكِ ، قبل أن ينشبوا مخالبهم
فيكِ ، لم أصل شنكال ، فأهل شنكال ، وأهالي
القرى المجاورة ، كانوا يتسلقون الجبل
من كلّ مكان ، هرباً من الإعصار الأسود ، هرباً من داعش ، وداعش كانوا في كلّ
شنكال ..

خلات يتوقف ، الآلاف
يتسلقون أطراف الجبل
خلات: كالمجنون رحت أبحث عنكِ .. عيشة..
عيشة .. أهل عيشة .. أخوها وأبوها أمها
.. ومن هنا وهناك .. وصلتني مزق
الحقيقة .. قتل أبوها .. قال لي رجل متقدم
في السن .. رأيتهم يذبحونه في الساحة ..
قلت له تعال اهرب معنا .. فقال عيشة ..
وأم عيشة و .. وقال لي شاب .. مصاب
باطلاقة في يده .. اخذوا أخو عيشة ..
وبعد أن هربت من شنكال ، عرفت أنهم
قتلوه ، لأنه رفض أن يرضخ لهم ”
يصيح ” وعيشة .. عيشة .. عيشة ؟
تسلط عليه بقعة الضوء ، فوقه،
وعلى الشاشة، صورة عيشة
خلات: وأخيراً .. جاءتني الحقيقة .. الحقيقة
كاملة .. وما أبشع الحقيقة .. لكن الحقيقة
حقيقة .. ولابدّ لي أن أتعامل معها .. ”
يصمت ” قالت لي امرأة مسنة ، لكنها
قوية .. ومعروفة بجسارتها .. قالت لي ..
إن أم عيشة وقعت في أيديهم .. تكلمي ..
ولأنها ليست شابة ، أخذوها معهم ، ومن
يدري أين تخدم الآن .. في أي بيت ،
وزوجة أو زوجات أي أمير ” يصيح ”
أخبريني .. أخبريني .. وعيشة ؟ حاولت
المرأة المسنة أن تتهرب ، لكني ألححت
عليها .. عيشة .. عيشة .. فقالت لي ..
عيشة كانت مع أمها ، أخذوا أمها للعمل كخادمة ، أما عيشة .. فقد أخذوها ..
أخذوها ..“ يدور حول نفسه ”عيشة ..
عيشة .. عيشة ” يتوقف ” جنّ جنوني،
ورحت أتنقل بين الهاربين من شنكال،
وخاصة بين النساء .. عيشة .. عيشة ..
بعضهن ما كنّ حتى يتوقفن .. بعضهن ما كنّ يردنّ عليّ .. فلأغلبهن عيشة .. في
عمر عيشة .. أكبر من عيشة .. أصغر

من عيشة .. بل حتى رضع .. امتدت
إليهنّ مخالب الظلام .. نشبت أظفار
الظلام في لحمهن الطفل البريء .. ومع
ذلك .. كانت بعض النسوة يتجاوبن معي
.. ويتحدثن عن عيشة .. عيشة وردة ..
عيشة خشف .. عيشة حمل .. عيشة .. لا
تبحث عنها .. فقد أخذها الظلام الأسود ..
ومن يأخذه الظلام الأسود .. لا جدوى من البحث عنه .. توقف .. وإلا لحقت بأخيها وأبيها وبالرجال الآخرين .. الذين ذبحوا لسبب أو لآخر ..

خلات يتوقف متلفتاً، على
الشاشة صور لمدينة شنكال

وأكثر من مرة ، ورغم الموت المنتشر في كلّ مكان ، تسللت إلى شنكال ، وتجولت متخفياً في أزقتها وبعض بيوتها ، القريبة من بيت عيشة ، وكأني أبحث فيها عن عيشة ، وأنا أعرف أن عيشة الحلم ، يمكن أن تكون في أي مكان إلا في بيتها ، أو في شنكال كلها "يصمت فترة" عبدول "صورة لعبدول على الشاشة" هذا الثعلب الضبع ، عمل معهم ، رغم أنه ليس منهم، ولن يكون منهم ، ولن يكون مع أحد ، وهو مع أيِ واحد واقف، تفوح منه رائحة الذهب، آه عبدول " يسير" حاولت أن أتصل بكَ ، فأنتَ وحدكَ ممن أعرف، يمكن أن يصل إلى عيشة، لكن عبدول، حين احتجت إليه ، صار ملحاً وذاب ، عبدول الملح المسموم طريقي الوحيد إلى عيشة ، ولكن عبدول غير موجود ، ولا طريق إليه، في وقت كانت الطرق كلها مسدودة ، أو ملغومة ، ولا تؤدي إلا إلى الموت ..

خلات يتوقف، يرن
الموبايل، فيفتحه وينظر فيه

ورنّ جرس الموبايل يوماً، وكنت في جبل شنكال، بين اللاجئين، الذين يواجهون الموت جوعاً أو عطشاً أو بالرصاص والقنابل والصواريخ، فتحت الموبايل، رقم مجهول لا أعرفه، ألو، تفضل، من أنت ؟ حسن، لا عليّ، تفضل ، إنني أسمعك ، عيشة عندكم ؟ عيشة مازالت حية؟ حمدا لله، نعم أسمعكّ، إذا كنتم تريدون مالاً لقاء إطلاق سراحها، فأنا معدم، نعم أنا أفديها بحياتي ، إنها ابنة عمي ، ولم يعد لديها أحد في الحياة غيري ، لا تريدون مالاً ؟ هذا خير ، إنها صبية بريئة، أطلقوا سراحها ، لن تطلقوها إلا بشرط ؟ حسن، سأنفذه مهما كان ، حسن إ إنني أسمعك جيداً، عبدول ؟ نعم، إنني أعرفه ، إنه معكم ، ماذا ؟ لم يعد معكم؟ مجرم وخائن و .. ؟ أنتم أدرى ، ماذا ! أقتله ! لن تطلقوا سراح عيشة إلا إذا قتلته ؟ " يصمت " ألو .. الو .. وأغلق الموبايل ..

خلات يغلق الموبايل ،
ويعيده إلى جيبه

يا طاووس ملك ، أنا لم أقتل إنساناً ، لكن عبدول ، أهو إنسان ؟ هذا الذئب الضبع ، تعاون

معهم ، باع أهله وناسه ، ثم خانهم ، إنه يخون أمه التي أرضعته ، من أجل الذهب، عبدول يستحق الموت ، يستحق القتل ، ومن أجل عيشة ، أقتله وأقتل أي مجرم مثله، عيشة بين أيديهم ، وهو على قيد الحياة ، هذا حرام " صمت " خلات ، أنت لم تقتل من قبل، صحيح أنك تعاركت ، أنك سرقت ، أنك .. لكنك لم تقتل ، لم تقتل إنساناً ، قتل الإنسان ليس أمراً هيناً ، لكن عيشة بين أيديهم، ومن يدري ، لعل عبدول نفسه هو من باعهم ، هو من سلمهم للقتلة، هو .. الموت لعبدول " صمت " عيشة ، ابنة عمي وحياتي عيشة، رفضني أبوها لكنها لم ترفضني، كرهتني أمها لكنه أحبتني ، وأخوها لم يكن إلى جانبي، لكنها أصرت ، ومهما كانت الظروف، أن تكون لي ، لي وحدي " صمت " في تلك الليلة ، رنّ الموبايل..

خلات يفتح الموبايل ،

ويحدق فيه ملياً

إنه الرقم المجهول نفسه ، وفحّ في أذني كأنه أفعى ، عيشة مقابل عبدول ، نمهلك أسبوعاً واحداً ، عبدول في أربيل ، أقتله وسنطلق سراح عيشة ، كن شجاعاً ، نحن ننتظر ، وأغلق الموبايل " صمت " وانطلقت أشق طريقي في جبل سنجار ، نحو دهوك ، مشياً على الأقدام ، متخللاً أكداس الناس من أهالي شنكال والقرى المحيطة بها ، ورغم المكالمتين ، ورغم كل ما عرفته عما جرى، رحت أسأل كلّ من أعرفه عن عيشة وأهلها وكان الذين يعرفونهم من جيرانهم وأهلهم يقولون الشيء نفسه ، عن أبيها وأخيها وأمها وعنها هي بالذات ، عيشة أخذوها عيشة بين أيديهم ، إلى أن التقيت بامرأة من أقاربها سألتها كالعادة عنها ، فصمتت دامعة العينين، وقالت : اذهب واسأل نادية، وسألتها وقلبي منقبض ، ولماذا أسأل نادية ؟ أنت تعرفين شيئاً ، قوليه ، فصاحت باكية، نادية تسير على مسافة ليست بعيدة ، اذهب واسألها ، وجنّ جنوني ، لابد أن لدى نادية خبراً عن عيشة ، ولابدّ أن الخبر .. الويل .. الويل .. ها هي نادية ، إنها إحدى صديقات عيشة المقربات ، وأسرعت نحو نادية ، ووقفت أمامها ، فتوقفت ، وعيناها تتسعان .. وتدمعان .. قلت لها ، نادية ، عيشة بين أيديهم ، وقد وعدوني أن يطلقوا سراحها إذا .. وقاطعتني نادية وهي تجهش بالبكاء ، عيشة تحررت منهم .. حررت نفسها بنفسها .. لم تحتمل أن يلمس أحدهم شعرة منها .. وصرخت .. ماذا تعنين؟ تكلمي ، يا نادية ، ماذا تعنين ؟ قالت نادية من بين دموعها .. عيشة انتحرت .. " صمت " وسارت نادية مبتعدة، دون أن تتوقف عن البكاء ، ووقفت في مكاني كالصخرة الميتة ، عيشة انتحرت " صمت ، يخرج المسدس ويتأمله " لم أقتل إنساناً ، وها هي عيشة قد رحلت ، تركت شبابها ورحلت ، تركتني ورحلت ، لن أقتل إنساناً ، يا عيشة ، لم أقتل ولن أقتل ، لكن .. هل عبدول إنسان ؟ هل قاتل عيشة إنسان ؟ " يسير والمسدس في يده " عبدول ، إنني قادم .

إظلام

الموصل

صمت تام ، ظلام ، بقعة ضوء ،
تتنقل بين شخوص موصلية شتى
أصوات تراتيل توراتية، ثم تختلط
بأصوات النواقيس، ثم أصوات المآذن
صوت انفجار، يعقبه أزيز رصاص،
وأصوات طائرات وقنابل وصواريخ،
أصوات صراخ واستغاثة وانهيار مبانٍ
شارع مخرب ، حوله بيوت
مهدمة، القمر يطل من السماء ،
يدخل رجل في ثياب موصلية
قديمة ، ويتوقف وسط الشارع

الرجل: "يتلفت حوله " يبدو أنني تهتُ ، رغم أنني مشيت هذا الطريق آلاف المرات " يصمت " هذه هي محلة الساعة ، وفيها كنيسة الساعة " يلتفت " وهذه هي الحدباء ، منارة الجامع الكبير ، ويفترض أنني في شارع الفاروق الجديد ، الذي يؤدي إلى المستشفى ، وفي منطقة رأس الكور ، إلى يسار الشارع ، شارع فرعيّ يؤدي إلى حيّنا ، حي اليهود ، ويضم هذا الحيّ معظم التهود ، الذين يعيشون في الموصل ، وهذا ما نفعله في معظم المدن التي نعيش فيها في العالم ، نحن نعيش في جيتو خاص بنا " يصمت " وعلى مسافة من هذا الحيّ أسسنا مدرسة كبيرة خاصة بنا ، وكنّا ، نحن والمسيحيين في المدينة ، من أوائل الذين أسسوا المدارس المختلفة لأطفالهم ، ثم تبعنا المسلمون ، الذين كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتّاب ، عشنا هكذا ، قبل أن تصيبنا حمى الهجرة ، وقد سألتني جارتنا المسلمة العجوز ، لماذا تهاجر يا " حزيط ؟ "، فتنهدت من أعماقي ، وقلت لها ، قيل للمسمار لماذا ، فقال من الطخماغ الذي على رأسي ، سيهاجر الأهل والأقارب والكثير منّا بسبب الطخماغ الذي على رؤوسهم ، ومن جهتي ، فإنني على ما يبدو لن أهاجر ، فعمري ، وأمراضي ، وفقري ، وحبي للحي الذي ولدت فيه ، كلّ هذا سيمنعني من الهجرة، والبقاء في التربة التي ولدت فيها ،ومن التراب إلى التراب أعود ، ولكن التراب الذي ولدتُ عليه " كأنما يخاطب مجموعة من الناس " ستظلموننا إذا أخليتم هذه المدينة منّا، فنحن أقدم جالية على هذه الأرض ، جيئا بنا ، وأسكنّا في الشمال والجنوب ، قبل أكثر من ثلاث آلاف سنة ، والآن وكما في الأمس القريب والبعيد ، بيننا الصناع والحرفيين والصاغة والتجار والمعلمين والأطباء ، بل وحتى الأدباء والموسيقيين ، بل إن صالح الكويتي، هو أبو الأغنية العراقية ، ولديه المئات من الأغاني والألحان ، التي تردد حتى الآن " يتلفت حوله حزيناً " لو رأتني جارتنا العجوز ، في هذا الليل الموحش ، أقف هنا حزيناً محبطاً ، لقالت لي ، ماذا تفعل هنا ، يا حزيط ؟ ، سأجيبها بصوت أقرب إلى النحيب ، إنني كما ترين ، أزور جنتي القديمة ، مدينتي ، الموصل ، اسمعي ، أيتها الجدة ، أنت تعرفين تلك النكتة ، التي ألصقت بنا ، ربما هي صحيحة ، فقد سأل أحدهم ،

واحداً منّا نحن اليهود ، الجنة لمن ؟ فأجابه قائلاً ، إنها لنا نحن اليهود ، فنحن شعب الله المختار ، فسأله ، والمسيحيون ؟ فأجابه اليهودي ، المسيحيون لهم أطراف الجنة ، وسأله مرة أخرى ، وربما ليحرجه ، حسناً ، والمسلمون وهم الأكثرية ؟ فأجابه اليهودي ، المسلمون ! إنها جنة يا حبيبي ، وليس خان جغان " يصمت " تراتيلنا التوراتية الجميلة صامتة ، ونواقيس كنيسة الساعة صامتة ، والساعة نفسها صامتة ، والليل رغم القمر ظلام وصمت : يصمت " لا فائدة ، آن لي أن أعود من حيث أتيت ، حينا ، حي اليهود ، بما فيه من يهود ، بقيوا أكثر من ثلاث آلاف سنة ، يعيشون على هذه الأرض ، يأكلون من خيراتها ، ويشاركون الآخرين السراء والضراء ، نحن اليهود أيضاً انتهينا ، ولم يبقّ في أعماقنا ، نحن شعب الله المختار ، غير ذكريات ثلاث آلاف سنة عشناها هنا ، خرج ما تبقى من هذا الشعب ، وبقي الملايين ، تحت الأرض التي ولدوا عليها " يسير ببطء منكسراً متجهاً إلى الخارج " من التراب إلى التراب نعود ، وها أنا أعود إلى المقبرة ، ما يسمونه في هذه المدينة ، مقبرة اليهود ، التي ماتزال موجودة قرب رأس الجادة .

يخرج ، يسود الصمت ، يدخل

الرجل نفسه ، بزي موصلي آخر

الرجل: ليل الموصل ، لم يعد ليل الموصل، وقمر الموصل ، لم يعد قمر الموصل ، ولم يعد صباحها صباحاً ، ولا مساؤها مساء ، أعياد الميلاد ، والكنائس تضج بالأضواء والألوان والفرح والمصلين ، عيد الصليب وألعابه النارية الجميلة البهيجة ، يحييها المسلمون أكثر من منّا نحن المسيحيين ، بل إن أعيادنا ، عيد مار كوركيس وعيد مار ميخائيل ، يحضرها المسلمون ربيعاً ، مع عوائلهم وسلال طعامهم وقواري الشاي، أكثر منّا نحن أصحاب العيد المسيحيين، ماذا يجري ؟ لم تكن سماؤنا زرقاء دائماً ، ولطالما عكرتها بعض الخلافات والصراعات العابرة، لكن سرعان ما كانت الغيوم تنقشع، وتعود السماء زرقاء كما كانت ، وكما ينبغي أن تكون " يصمت ويتلفت حوله " الساعة صامتة ، وأجراس الكنيسة صامتة، وحتى المآذن معظمها صامتة ، هذا زمان الصمت، والصمت موت ، والموصل لا يليق بها الصمت، كركرات ربيعها ، وأغاني ملا عثمان الموصلي ، وقصائد شاعرها الشعبي الكبير عبو المحمد علي ، ومآثر رجالها ونسائها ، كلها كانت تهتف للحياة وباسم الحية، لا تصمتي أيتها الموصل ، لا تصمتي أيتها العنقاء ، ومهما يكن ، فإنكِ ستنهضين من رمادكِ منيرة متألقة بكلل أهلكِ، ومن أجل كلّ أهلك ، فأنت موصل ـ نينوى الآشوريين ، أنت الموصل التي وقفت ضد المغول ، واكتويتِ بهمجيتهم ، وصمدتِ لحصار الصفويين ، ولم تستسلمي لطغيانهم ، وواجهت الكثير من الطغاة ، وبقيت ، بقيت لتاريخك الناصع ، وبقيت لكل أهلك الخيرين " صمت " الموصل موصلنا كلنا ، وكلنا ساهمنا ببناء مجدها ، ومعاً اكتوينا بالنيرا الحاقدة ، التي سلطت عليها عبر تاريخها الطويل ، نحن ، وبعد عهود الظلام ، ومن خلال كنائسنا ، أسسنا للتعليم ، وجئنا بأول مطبعة إلى المدينة ، وأارسينا لأول مرة في العراق أسس المسرح العراقي ، الذي إمتد إلى جميع المدن ، وحقق مكانة مرموقة في تاريخ المسرح العربي ، وكان منّا أول المحامين والأطباء والصيادلة والصحفيين ، ولكن لأسباب لا يد لنا فيها ، وربما لأخطاء فردية هنا وهناك ، وفي مرحلة سوداء من تاريخ الموصل والعراق ، انهالت الضغوط علينا، واغتيل العديد من الأبرياء لأسباب واهية ، ما جعل العديد منّا

أن يؤثر السلامة له ولعائلته وأطفاله ، وبدأت هجرة شملت الكثيرين ، حتى لقد أفرغت بعض الأزقة ، في منطقة الساعة مثلاً من ساكنيها ، وخيم الإرهاب على المدين ، حتى غدت مدينة الخوف والصمت والموت ، نعم ، مدينة الموصل غدت مدينة أشباح " صوت ناقوس كنيسة " اسمعوا ، ناقوس كنيسة يدق في هدأة هذا الليل ، لا تنخدعوا، أنتم لا تسمعونه ، أنا وحدي أسمعه ، فهو يدق في داخل ، ويقول لي ، تعال .. تعال .. سيبدأ القداس .. وسيتلو راعي الكنيسة .. أبانا الذي في السماوات .. ليتمجد اسمك .. ليأتِ ملكوتك " يسير ببطء " أبانا الذي في السماء "

نازك

ظلام ، تضاء نازك ،
واقفة وسط المسرح

نازك: " واضح أنها كفيفة " اسمي نازك "
تبتسم " قال لي صلاح مرة ، في إحدى
لقاءاتنا الأولى " يضاء صلاح ، كفيف هو
الآخر " أنتِ نازك فعلاً ، لذت بالصمت ،
ولابد أن وجنتيّ قد توردتا ، فقال صلاح ، أعتقد أن من رآك أول مرة ، هو من
أطلق عليك هذا الاسم الدال ، وعلى
استحياء قلتُ له ، المولدة أسمتني نازك ،
فقال ، لقد خمنتُ ذلك ، وأضفتُ مترددة ،
قبل أن تعرف أنني كفيفة ، فقال بصوت
مؤثر ، أنتِ نازك .

يُطفأ الضوء عن
صلاح ، نازك وحدها

نازك: كان هو أيضاً كفيفاً ، وقد سمعتُ عنه
قبل أن أعرفه ، فنحن البنات في الميتم ،
وكان مجاوراً لميتم البنين ، كنّا نتناقل ، ولو وكأن الأمر عرضاً ، أخبار
الفتيان ، البارزين منهم خاصة ، لسبب
من الأسباب ، وتعرفتُ عليه ، أي صلاح ، في حفل خيريّ ، جمع الأيتام البنين
والبنات ، وقد سمعته يلقي قصيدة مؤثرة
في الحفل ، مازلتُ أذكر بيتها الأول "
تنشد " مشتْ والفقر يثقل ممشاها " ،
وأثناء الحفل سمعته يتحدث وسط
مجموعة من البنين والبنات ، فاقتربت من
المجموعة ، وقلتُ له ، قصيدتك كانت

مؤثرة جداً ، وقد زاد من تأثيرها ، صوتك
المتهدج ، كأنه مبلل بالدموع ، سمعته
يتمتم ، مبلل بالدموع ! هذا تعبير جميل
نازك ، ضحكت صديقة لي ، وقالت له ،
واسمها نازك ، وتمتم ثانية كأنه يحدث
نفسه ، نازك ! " تصمت " كبرنا مع
الأيام ، وما أثقلها تلك الأيام ، وتفرقنا ،
ذهب هو للتعليم في مدرسة ابتدائية للبنين ، وذهبت أنا للتعليم في مدرسة ابتدائية
للبنات ، لم أنسه ، ويبدو أنه هو الآخر لم
ينسني ، وعلمتُ ذات يوم ، بأنه أصيب
بحروق بليغة ، في حريق نشب في البيت
الذي استأجر فيه غرفة ، وأنه يرقد في
المستشفى ، ذهبت إليه ، واستقبلني
بصوت واهن ، فرح ، دامع ، وسألني إذا
كنّا وحدنا في الغرفة ، قلت له ، نعم ،
فالممرضة خرجت قبل قليل ، فمدّ يده ،
وأمسك إحدى يديّ ، وقال بصوته الواهن
نازك ، قيل لي أن الحريق شوه وجهي ،
فقلتُ له ، لا عليك ، ربما هي مبالغة ،
والمهم أنك حيّ ، وما أصابك من حروق
ستزول آثارها مع الأيام ، ربت على يدي ، وقال : تصوري ، يا نازك ، قبل أن
يشوهني الحريق ، كان في نيتي أن أتقدم
إليكِ ، كنت أحلم دوماً أن تكوني إلى
جانبي ، زوجة ، فأخذتُ يده بكلتا يديّ ،
وقلتُ له ، لم يتغير شيء ، أنا موجودة ،
وأنت موجود ، أنا لك ، يا صلاح "
تصمت " وقبل أن أخطب لصلاح ،
ببضعة أيام ، تقدم لخطبتي فارس ، وهو
شاب قريب ، ولم يكن كفيفاً مثلي أو مثل
صلاح ، لكني اعتذرت ، وقد أحزنني هذا ، لأني فارس كان شاباً رقيقاً مهذباً ،
وخشيت أن لا يتفهم اعتذاري ، ويزعل
مني " تصمت " اقترنا ، أنا وصلاح ،
وعشنا الجنة ، كان صلاح ، كما عهدته ،
ملاكاً ، يغمرني برعايته دوماً ، سواء

كان معي ، أو بعيداً عني ، وكان أملي ،
كما هو أمله ، أن يكون لنا ولد ، رغم أن
الجحيم كان حولنا ، وحملت ، وحين
أردتُ أن أبلغه الخبر ، كان في باب
الطوب ، هو الذي قلما يتواجد في مثل
هذه المنطقة المزدحمة بالناس ، وبدل أن
أبلغه الخبر ، جاءني خبره المفجع ،
انفجار عبوة ناسفة في باب الطوب ، راح
ضحيته أكثر مت عشرة أشخاص ، كان
صلاح واحداً منهم " تنهنه باكية " .

تصمت فترة ، ثم
تمسح الدموع عن خديها

وضعت وليدي ، وسمعتً صيحاته وسط
دموعي ، آه صلاح ، وأسميته ، كما أراد
صلاح أن نسميه ، نعم ، أسميته صباح ،
وكنا نتمنى أن يكون صباحاً مشرقاً لنا ،
ولكن.. مهما يكن ، فهو صباحنا ، آه
صلاح ، وبعد أشهر، جاءني فارس ،
وكان غالباً ما يأتيني ، ومعه هدايا
لصغيري صباح ، وطلبني ثانية ، وقال
لي، إنه يريد أن يرعاني ، ويرعى ابني
صباح، يا لطيبته ، ويا لنبله ، لكني ثانية
اعتذرت، وقلت له ، صباح ابني وابن
صلاح، وأنا أرعاه ، ويرعاه معي أبوه ..
صلاح .

تصمت نازك ، تجمد في
مكانها ، إظلام تدريجي
ستار

2019 / 11 / 2

هذه اخر النصوص المسرحية التي كتبها الأديب التقدمي الراحل طلال حسن 1939 - 2024.
وكان الفقيد قد أصدر 51 كتابا في القصة والمسرح وأدب الاطفال.
وترجمت أعماله إلى عدة لغات، ونال العديد من الجوائز العراقية والعربية. لروحه السلام والطمأنينة.

54 يوماً في الفُـنـدق

مرتجى آيار*

تعانَقت اميال الساعةِ، عند (7:35) مساءً، دقت ساعة الصِفر، العمال يعودون الى منازلِهم، متلهفون لضَم زوجاتِهم، ونَظراتُ فرحِ اطفالِهم بمجيئهم، السُكارى يفتتحون جبهاتِهم، جبهاتُ اسقاط الهموم والاوجاع، القطط تجوب الشوارع تبحث عن طعامها، بائعات الهوى بدأ عملهن، تتراكض الاطفال حفاةٌ، بلا مبالاتٍ لنداء امهاتهم، خَـرجت من "الفُندق" مكان عملي، كالعادة، بلا كلل ومعتادٌ الروتين المُمِل، تمشيت عابراً الى المنطقة المقابلة، ببدلةِ الرسمية، التي جزِعتُ من ارتدائها يومياً، بسبب سياسة الفُنَدق البائس. عبرتُ شارعين لكي أصل في النهاية الى ذالك بائع الطعام المتجول، الذي بسيارة الطعام خاصته، يضاهي ما يقدمه من طعام، العديد من المطاعم الفاخرة، وبات يعرف طلبي حين يراني في الطابور، الذي كان وجبة برگر، بدونِ خضار. وبينما يُحظر الطلب، لفتت انباهيَ، "احداهُن"، ترتدي رداءً، اسوداً "عَباء"، دافناً لجمالها، وبين يديها طفلٌ! لا علم لمن؟ لماذا تحمله؟ لماذا وجهُها شاحبٌ ومُصفَر؟ للحظات تزاحمت هذه التساؤلات في تفكيري، فأتى ايعاز من دماغيَ، يقول لي "ان النيكوتين بدأ يقل". اسحب سيجارةً لتهدئ، بقيت للبرهةِ انظر اليها، ولاختلافها، فكان فيها شيءٌ غريب، لا اعلم ما هو! و فجأةً! دخل خلوة تفكيري بائع الطعام وقال بصوته اللعين "خذ الطلب، اكتمل يا رجل!"، عُدت الى الفُندق، وانا أتساءل عن هذه الفتاة، وكالمعتاد، غيرتُ ملابسي، تناولت العالم، غربت للنوم، لكي استقبل اليوم التالي من العمل، في الصباح الباكر.

الهاتفُ يرن، يرن..

- اللعنة، من هذا؟

اوه، ككل يومٍ، مدير العمل، يُنَبِهُني، ان أحافظ على الفندق، وكأنه "القصر الجمهوري"، نهضت من الفِراش ومن وسادتي، المحشوة بالحصى، لا القطن! ارتديت الملابس الرسمية، التي لم أكن مرتاحاً في ارتدائها قط، جلست في صالة استقبال الفندق "الرسيبش"، لكي أكمل ساعات العمل العَشر، النزلاء يخرجون، واحداً تلوى الاخر، كإنهم جيشُ نمل، يسيرون بإنتظام. الشاي يثوروا غضباً في الغلايةِ، يتعالى البخار، ويرسمُ احلاماً في

الصالة، فيها الذين غادرونا، يرسمُ ملامحَ أميَ، التي اشتاق لها في كل حين، وانا في غربتي! بدأت اتصفح في صحيفة اليوم، متجاهلاً، صفحَتَي الاخبار والاعلانات، وعند صفحة الادب والفن، وجدتُ ضالتي، بمجموعةٍ من القصص القصيرة الجريئة، قصائد الشعر، والمقالات الادبية، اشعلت سيجارةً بيدي اليُمنى، وعانَق كوب الشاي برائحتهِ العطرة، الدافئة، اليد اليُسرى، ولكن لم تغرب، تلك الفتاة عن تفكيري، ولا شَعرُها، العكش، الغَجري اللامع، عن نظري، دببةٌ على السلالم!؟ ها هوَ العم مُشرق، يخرج من غرفته، منطلقاً الى عمله، في احدى المقاهي الشعبية، فَهوَ في الحقيقة، عسكري متقاعد، وعمله في المقهى، يجلس، يثرثر عن أوضاع البلد، ويقضي ساعاتٍ ويعود قبل غروب الشمس، نَزلَ هوَ الاخر! العم نَديم، هذا اقدمُ نزيلٍ في الفُندق، وكعادته السيئة، يمر من امامي، ويخرج من الفُندق، ولا يُلقي التحية، او ينبس بشيء، لا اعلم؟! هل انا اعمل في مصحة عقلية، منذ شهرين وانا اعمل في هذا المكان، يومياً ارى العجائب!

بين حينٍ واخر انظر إلى الساعة، تباً! بقيت سبعُ ساعاتٍ من العمل، دوماً كنت اود العمل، في صحيفةٍ، مطبعةٍ، مكتبةٍ، في مكانٍ لا يخلو من رائحة الاوراق، وضجيج الطابعات، ترتطم بالورق، وتَخطُ مختلف النصوص. لكن الحياة حقيرةٌ، والقدر احقر، رمتني خلف مكتبٍ على كرسي. كم أكره الكراسي. يا ليتني، أستطيع ان أُسَرعَ الوقت، كي اذهب الى نفس المكان، نفس كُشك الطعام، وارى تلك الفتاة، تلك التي باتت ملتصقة في ذهني، في ذاكرتي. عساي ان افهم، من هي؟ ما حالُها؟ كيف واين تعيش؟ يمضي الوقت ببطيء شديد، وقرأت الصحيفة مرتين! والان حان الوقت للانتقال الى كتابي المفضل، الذي حصلت عليه منذ فترة، أهداه لي مؤلفه، وهو مجموعة قصصية، بعنوان "حكايات حميمة "، هذا الكتاب بالذات، اعز ما املك في حياتي، وأثمن ما اقتنيت يوماً ما، القصص فيه، تُرسم امامك، بمجرد قرائتها، وتعيش مع الشخوص، بجنونهم، وحزنهم، واحلامهم، والمؤلف لم يختر كلماته بدقة فقط، وانما هو فنانٌ لن يتكرر، وهوَ يُحَرك الشخصيات بسردهِ.

امضي الوقت، ولم اشعر به، رفعت رأسي من الكتاب، ووجدتها عند الرابعة مساءً، حان موعد عودة النـزلاءالى الفُندق، اولهم العم نديم، المتشائم والجحش دوماً، ويتلوه العم مُشرق، الذي هو شخصية انسانية وعصامية بشدة، ففي كل مرة يعود، ندردش انا وهوَ على الاوضاع السياسية والاقتصادية، وعنما حدث وجرى في القرن العشرين، في وطننا، يأتي كما اعتدت ان اراه، بطيئاً بمشيته، بسبب تراكم تعب الزمن، وهو الان بعقده السابع، ولكن! اليوم اتى ولم يكن كعادته، اذ كانت يديه وشفتيه ترتجفان!!

- مابكَ يا عم؟
- انا مُتعب، ومريض جدا
- هل زُرت طبيباً؟
- نعم، واعطاني موعد لزيارتهِ بعد يومين.
- عليك بالذهاب اليه، وضعُك ليس طبيعي
- لا عليك، سأأخُذ قسطاً من الراحة واكون بخير!

تركني، وذهب الى غرفته، وانا مصدومٌ كيف يفكر!؟ ما علاقة النوم بالشفاء من المرض! وايضا انا خائفٌ عليه كثيراً، ولا اعلم ما حكايتهُ؟ ولماذا هو من تسعة اعوام يسكن في

هذا الفندق؟ اين عائلته؟ ماذا جرى لهم؟ هو شخصٌ غامض! لا يتحدث كثيراً عن حياته، الاستفاهمات تتصارع في رأسيَ، وانا اربط الخيوط، عسى ان افهم ما بهِ هذا الرجل؟!
مضيتُ في قراءة كتابي، وانهيت ما يقارب خمسة قصص قصيرة. لكن هذا الكتاب عجيبٌ جداً، ففي كل مرة يتجدد عنصر التشويق، وتزداد الرغبة في القراءة والقراءة، نظرت الى الساعة، وحان الوقت لكي استحم، وأُغير ملابسي، فقد انتهت عشر ساعات عمل لعينة! حان موعد تناول العشاء والنوم، كعادتي تناولت العشاء عند البائع المتجول. لكن لم تكن تلك الفتاة موجودة في هذا اليوم، تسائلت عن سبب عدم وجودها؟! قررت وبكل جرأة ان اسأل صاحب كشك الطعام عن هذه الفتاة ومن هي؟ اين هي؟ اين تسكن، وصفتها له، وقال لي "هذه الفتاة، هي وجَمع الاطفال القذرين معها، متسولة، تسكن في احدى هذه المباني المشبوهة، وصباح اليوم، جاء مدير البليدة، وتم اجلاء جميع النزلاء المشبوهين". صُدمت بما قال، عدتُ وقدماي تدبدب ببطيء، والدمع في عينيَ. وصلتُ الفندقَ، غربتُ للنوم، متعباً، غارقاً في مدينة الاحلام.
" ماي اروو، ماي اروووو، عتيگ، عتيگ، العنده ثلاجات، مبردات، طحين، للبيييع."
هكذا استيقظت اليوم، على سمفونية البائعة المتجولين، بائع الماء والخردة والاخرون. اشرقت شمسُ الوطن! وانارت كل الازقةِ والحارات. البائعة المتجولين يجوبون المدينةَ؛ العمال بدأ كدحهم؛ ورائحة طعام المطاعم الشعبية، تشرح القلب، وتلتمس قلوب المارة. كانت ليلة أمس، بائسةً، لم أنم جيداً. بقيَ العم مشرق يشغل تفكيري، استيقظت باكراً اليوم، وانا اعيش نفس الروتين، لكن أجمل ما في يومي هي القراءة. الصُحف بالذات لولاها، لما استطعت مقاومة الملل.
في هذا اليوم منذ الصباح الباكر، كانت الكهرباء في صالة الفُندق، مُعطله. اتصلت بعمال الصيانة، وبينما انا اشرب الشاي، احتلوا خلوتي. كنت أراقبهم وهم يصلحون العطل. ثم تنبهت الى امرٍ غريب، العم مشرق لم يخرج من غرفته!؟ صعدت الى الطابق الأول حيث يسكن، طرقت الباب، "عمو مشرق.. عمو مشرق..". لم يرد على إطلاقا. نزلت الى صالة الفُندق واتصلت على المدير لكي اسرد له ما يحدث، فالعم مُشرق لا يبقى هكذا مدة في غرفته. منذ اربعة ساعات وهو لم يغادر الفُندق.
لم يكن مديرِ الفُندق يُجيب على اتصالاتي، بقيت محتاراً عن ماذا سأفعل؟! اتصل.. واتصل.. لكن بلا مجيب! بقيت جالساً على المكتب في صالة الفُندق. أكملوا العمال صيانة الكهرباء. وبعد ساعة من اتصالاتي، اجاب المدير الساذج، وبعد سرد له ما يجري، قال لي "سآتي بعد قليل". عدت لطرق باب غرفة العم مشرق وايضا لا يوجد من يُجيب، وصل المدير، بدأنا بطرق الباب بقوة!، لا يوجد اي صوت في الغرفة! حتى توصلنا لحل، بكسر الباب، ضربناها بقوة. ودخلنا الغرفة، وجدنا مصيبة! العم مُشرق ممددٌ على الارض، بلا روح، جسدٌ باهت، بارد، ولا نعلم كيف مات، اتصلنا بالأمن. وبعد لحظات امتلئ الشارعِ بسيارات الأمن، حققوا معنا، ثم صعدنا جميعاً الى غرفة العم مُشرق، دخلوا التقطوا صوراً للجثةِ، كان وجه العم مُشرق باهتً، مسمر وجاف. حينما انتهى التحقيق وتم نقل الجثة بسيارة الامن الى الطب العدلي.
وقفت باب الفندق، مودعاً العم مُشرق.

رحل عنا بطريقة بشعة جداً، غادَرَنا بلا وداع. كانت عيون المودعين تهمس بحزنٍ، عماً جرى للعم مُشرق، سيارة الامن تبتعد وتبتعد.. ومعها ذهبَ هو بلا عودة، دخلت الفندقَ، غيرتُ ثيابي، استحممت وانا ابكي بهستيريا. هذه ليست المرة الأولى التي ارى فيها جثة، واشمُ رائحة الموت. صعدت الى غرفتهِ، بدأت انظر الى ممتلكاتهِ، باحثاً عن هاتفه لكي اتصل بأهلهِ، الذين لا اعلم عنهم شيء، صُحفٌ كثيرة متناثرةٌ على الارض، بينها وجدت هاتفه، بحثت بين الاسماء، ووجدت اسم شخص كان يتصل فيه كثيراً.

اتصلت على الرقم.

- الو، الو، مرحباً.
- اهلا وسهلا، من معي؟
- هل تعرفين العم مُشرق؟
- نعم انا ابنته، ماذا به؟
- لقد توفى اليوم!

صرخت بشدة، حتى اهتزت مشاعري. وبعد قليل عاود الاتصال رجل. قال انه زوج ابنة العم مُشرق، ابلغته بما حدث. تركت الهاتف في مكانه، وذهبت الى غرفتي، لم أستطع النوم اطلاقا، السجائر ملئت فمي، واحدة تلوى الأخرى. القلق كان يلتهم عقلي المشوش، بقيت مستيظاً حتى الصباح، وكان قراري ان اترك العمل في هذا الفُندق اللعين. لكن قبلها كنت انتظر قدوم عائلة العم مُشرق، لانني اعطيتهم موقع الفُندق لكي يأخذوا اغراض ابيهم. وانا جالسٌ في صالة الاستعلامات، انتظروا قدومهم، وبعدها أغادر الفندق للأبد. وقفت سيارة امام الفندق، خرجت منها امرأة اربعينية واثنين من الشباب واخرهم رجلٌ كبيرٌ بالسن. دخلوا الفندق واول ما سئلوا عنه، من هنا مدير الفندق؟ اجبت انني اعمل هنا والمسؤول عنه، فطلبوا مني سرد ما حدث لهم، وبعد حيثٍ طويل، كانت ابنته تبكي بحرقة، وهي مُطأطأت الرأس. اصحبتهم الى غرفة العم مُشرق، وامام باب الغرفة انهارت ابنته.

خرجت من الفُندق، دون ان اتحدث لأيِ احدٍ عن تركي للعمل، حقيبة ملابسي فيَ يدي اليمنى، وكتابي المفضل باليد الاخرى، اسير ولا اعلم الى اينَ اذهب؟! تاركاً خلفي كل شيء، فالفندق بات مُظلماً. وستبقى الارواح تحومُ فيه، ارواح الذين عاشوا بائسين، وحيدين، ورحلوا بكل هدوء. كان العم مُشرق، حسب ما قالت لي ابنته، قد غادر المنزل منذ عقدٍ، بلا سبب، ولم يجدوه اطلاقا، وبين الحين والاخر، يتصلون به ولكن لا يُجيب، والان بات لا يجيب على اي أحد، فذهب ولن يعود اطلاقاً.

"هذه القصة، كانت احدى كتابات مريض في مستشفى المجانين، في دفتر مذاكرته، بعدما مات، وُجِدت لديه، مع عدت قصص وقصائد شعريه".

---

* صحفي وكاتب قصة شاب من ديالى.

مقابلة مع جان أوب دي بيك/ رسام الكاريكاتير*

الكاريكاتير قد يحول السياسي النفعي والفاسد إلى شخصية كوميدية قميئة

ترجمة وإعداد: خنساء العيداني

في العام الماضي، اكتشفت موقعًا جيدًا جدًا للرسوم الكاريكاتورية، وكان مالكه رسام كاريكاتير من بلجيكا، وعندما قدمته من خلال مجلة Mehr الأسبوعية، اتصل العديد من القراء لمقابلته. وخلال الأشهر القليلة الماضية، أقام مسابقات للرسوم الكاريكاتورية على موقعه الخاص، حيث يمكنك رؤية رسوم كاريكاتيرية للهواة والمحترفين معًا حول موضوع واحد. يعيش جان أوب دي بيك في بلجيكا. يتحدث اللغة الهولندية، ويقول إنه أصبح رسامًا كاريكاتيريًا بسبب شيء ما في شبابه.

"حيث اعتاد أحد أعمامي رسم رسوم كاريكاتيرية صغيرة في الحفلات العائلية، وكان جميع الأطفال يحبونه، لأنه كان مسليًا. منذ ذلك الحين لم أتوقف عن رسم الرسوم الكاريكاتورية". ويمكنك رؤية أعماله الفنية، على موقعه الإلكتروني.

• من كان قدوتك في بداية مسيرتك المهنية.. وهل قلدت أسلوبه؟

كان أول رسام كاريكاتير أعجبني كثيرًا هو مولاتييه، الفرنسي، ولقد قلدت أسلوبه بالفعل. لقد تطور هذا الأسلوب بالطبع، وأعتقد أن التقليد هو مدرسة جيدة قبل أن تسعى إلى أسلوبك الخاص.

• من تعتقد أنه أفضل رسام كاريكاتير في العالم اليوم؟

سيباستيان كروجر (ألمانيا). التقيت به في البرتغال في يونيو/حزيران حيث قدمنا معًا دورة تدريبية لرسامي الكاريكاتير البرتغاليين. والتقيت به مرة أخرى في معرضه في أنتويرب (بلجيكا).

عندما ترى أعماله الحقيقية، ستجد ان لديه مجموعة متنوعة من التقنيات، ويمكنه أن يفعل أي شيء!..

• هل تعتقد أن رسام الكاريكاتير السياسي

لابد أن يعرف كيف ينقد ويسخر خاصته النفعي والفاسد؟

بالتأكيد، على الرغم من أن رسام الكاريكاتير السياسي يمكنه تحويل السياسي إلى شخصية كوميدية قميئة، يستخدمها مرارًا وتكرارًا. إذا كان هذا رسمًا كاريكاتوريًا حقيقيًا، فلا بد ان اعرف انه أقرب إلى القصص المصورة.

• **هل يمكن تعليم رسم الكاريكاتير؟**

بالتأكيد.. لكن المشكلة هي أن الكثير من الناس يحاولون رسم الكاريكاتير قبل معرفة كيفية رسم البورتريه، وهذا خطأ. يجب أن تعرف كيفية الرسم الدقيق، قبل أن تبدأ في رسم الكاريكاتير الحقيقي؛ هناك أشياء معينة يمكنك تعلمها عن الكاريكاتير (مثلاً، ما هي الأشياء التي يجب تحليلها في الوجه، وكيف يمكنك تشويهه ....) عندما تبدأ القيام بذلك، فسوف تتحسن فيه أيضًا. إنه أيضًا مسألة عادة.

أرسم أيضًا جلسات رسم كاريكاتورية حية، وقد عايشت تجربة مفادها أنه عندما تقوم بذلك بشكل متكرر، فإن الأمر يسير بشكل أفضل، لأن عينيك وعقلك ما زالا معتادين على النظر إلى الناس بطريقة معينة (طريقة الرسم الكاريكاتوري).

• **هل ترسم رسومًا كاريكاتورية للصحافة؟**

لقد كنت أرسم رسومًا كاريكاتورية سياسية لسنوات، ولكنني الآن لم أعد أفعل ذلك. ما أفعله الآن هو عمل الكتب. لقد قمت بعمل كتابين عن السياسة البلجيكية، وقد نفدت جميع النسخ، وهناك كتاب باللغتين الهولندية والفرنسية حول كيفية رسم الرسوم الكاريكاتورية. في العام المقبل سأقوم بعمل كتاب تعليمي باللغة الإنجليزية أيضًا.

• **كم عدد الأشخاص الذين يطلعون على موقعك كل شهر؟**

تجاوز عدد الزوار الفرديين 5000، وهو ليس سيئًا لموقع لا يتمتع بأي تأثير تجاري. هناك قائمة بأفضل 100 موقع في الولايات المتحدة، وهناك أحتل المرتبة الثانية.

نص المادة متوفر على:

http://www.opdebeeck.com

• ولد في الكونغو عام 1958، وانتقل إلى بلجيكا عام 1960. حصل على الماجستير عام 1979 في سانت توماس في بروكسل. بدأ تدريس الفنون عام 1979 في معهد كولوما في ميشيلين. تم انتخابه في عام 2003 كأفضل رسام كاريكاتير في العالم من قبل رسامي الكاريكاتير المحترفين في إيران.

رحل ممتاز كريدي:

يحيى علوان

تَلسعُني زَحمَةُ الغياب..!
لو أَني صَمَتتُ الساعةَ..
حَبَستُ أَنفاسَ الكلمات، سَمّرتُها على الحائط..
أَتَمَلاّها،
رُبما كُنتُ صَيّرتُ حُزني وصَمتي، أَبلَغَ ممّا أقول!
ليسَ لأنَّ الكلامَ قد انتهى..
بل إنما أخشى أنْ أُناديه.. فلا يُجيبْ!!
رُبما..!
مَنْ يدري..؟!
لكنْ.. للضروراتِ أَحكام، على ما يُقال!!
ليسَ نَعياً ولا رِثاءً! إنّه نَصٌّ..
قَسَمُ وفاءٍ لصاحِبي!
نصٌّ للعين! [عَلّي أفلَحُ في تطويعَه للأذن!
فمَنْ يسمعُ ليس كمَنْ يرى! بالتالي هو نصٌّ منثور فيه استعارات ومَجازاتٌ وإحالاتٌ.. قد لا تلتقطُها الأذن، في حين يمكن للعين التوقف عندها أو استعادتها.. إلخ، نصٌّ لا يتسربل بجِلباب الشعر ولا بمعطف القصة..]
لستُ شاعراً، لا ناقداً، ولا مؤرخاً.. إنما " أنا مواطنٌ عاديٌّ في جمهورية الفكر " - تعبيرٌ أستعيره من الراحل العفيف الأخضر - ولستُ مِمّن يُحسِن الرثاءَ، فقد كَفَفتُ عنه لكثرةِ ما فَقَدتُ من أَحبَّةٍ وأصدقاء..
أقفُ اليومَ بكامل عَجْزي.. مُتلعثِماً بغَصّتي وبحروفي،
فأنا " مريضٌ " أَتعلَّقُ بها مثلما يتعلَّقُ طفلٌ بثوبِ أُمّه..

أكتُبُ لأنني لا أَستطيعُ فِعلاً غيرَ ذلك!
أَكتُبُ تفادياً لنسيانٍ قد يتَسلَّلُ مثلَ اللصّ!
فاللغةُ وسيلَتي الوحيدة في هذا العالم!
لكن ماذا أقول؟!
وكيف يمكن لفرد، مثلي، أنْ يَرثي جزءاً منه، إنسلَّ، دون ضجيج، هادئاً كما كان.. "هامساً، لا مؤَذِّناً "؟![نصٌّ كتبتُه بهذا العنوان لميلاده الثمانين]
كأنّي به إنكمَشَ تحتَ جِلدِه مُرتدياً قِفطانَ الخَجَل، لأنه تَرَكَنا بلا وداع!!
تخذلُني أصابعي وأنا أخطّ هذه الحروف، فتقفزُ، دونَ استدعاء، قَولَةُ مَعَنْ بن زائدة: "إنْ لم تكتبُ اليدُ، فهيَ رِجْلٌ!"
فتَتَزاحمُ بالوناتُ الذكريات ملوَّنةً..
أعرفُ أنها "سُنّة " الحياة ...! فلا يُتعِبَنَّ أحدٌ نفسَه بتذكيري بها!!

قد يَتَهيأُ لي أَنَّنا لا نحزنُ لفُقدانِ أحدٍ لرحيله فقط! فحزنُنا هو تعبيرٌ عن محاولتنا لتزييف / وقمع اللاوعي، كونه يذكرنا " شرطياً " بمآلنا أَيضاً...!

إلاّ مَنْ تَوَهَّمَ أو إستسلَمَ أنه قدْ حقَّقَ كلَّ مُرادِه!! وفي ذلكَ لم يَعُدْ له

"مبَرّرٌ " كافٍ للبقاء عليها...!!

لكنْ، مَنْ مِنّا مُحصَّنٌ أو مُلقَّحٌ ضد الحزن إزاءَ فَقْدِ عزيز؟! خاصةً مَنْ مَلأَ مُلتقَياتِنا بحضوره الشفيف، حتى وإنْ كانَ صامتاً.. إذْ ما رَفَعَ صوته قَطْ! خلافاً للحضور الفاقِعِ للبعض أينما حَلّوا!!

سأحاولُ، ما استطعت، سَدَّ بابَ فِعلِ الماضي الناقصِ، كي لا تنهالَ مدائحُ لا قيمةَ لها الآن.. فلن يَسمعْها هو أو يعترضَ عليها..!

رَحلَ ممتاز، الممتازُ بكل المعايير الإنسانية والفكريَّة والأخلاقية – أعرف جيداً إشكاليةَ مصطلح "الأخلاق"، الذي تختلف حولَه الرؤى!!

يَلسعُني غيابُه الحاضِرَ فيَّ، لأنني لم أُتقِن فَنَّ التعبيرِ عن الوفاءِ.. ومحبتي له. لهذا سيظلُّ قلبي مُبعثرَ الإيقاع!

لنْ يُصَبّحَ، ممتازُ، على أحدٍ بالخير، بعدَ اليوم!

ولن يُهديه أَحدٌ صباحاً مُجرَّداً من الخير!!

لكنّي سَأدرأُ عنه الكلمات " المُعلّبةَ "، التي انقضت مدَّةُ صلاحيّتِها!

وأَحسدُه لأنه تحرَّرَ من كمائنِ اللُغةِ، من معانيَ الأسماء!

ستُغطّيه الغيومُ بقُطنِها في مكانٍ هاربٍ من صِفاتِهِ..

كنّا نَنْشَغِلُ حين نَلتقي، بأمورٍ فكرية وحياتية.. وليس نادراً ما كنا فيه

نختلف، لتَبايُن رُؤانا.. ونَتَناكَدُ معَ بعضٍ، دونَ إسفافٍ أو ضَغينة..!

وا أسفاه!! أنْ تأتي الكلماتُ الآنَ تَلهَثُ مُتأخّرةً، فَهو لا يسمعُها ولا يكترثُ بما نقوله عنه.. فقد رَحَلْ.. " كأنْ لم يَسْمُرْ بمكّةَ سامِرٌ"!

لمْ يُذَلّلْه أَباه ، كي لا يرميه أُخوَتُه في" جُبِّ الحكاية !" . مُقابلَ ذلك ، دَلَّلَتْه أُمُّه .. فقد كان " آخرَ العنقود "، بعد نادر وفاهم ! ولمّا لاحَظتْ، بفِعلِ إحساسِ الأمّ الفِطريّ، اشتدادَ عودِ الصَبيِّ ونُهوضَ شَقاوَتِهِ .. راحتْ تُفَتّشُ في ملابسه الداخلية بَحثاً عن غَجرياتٍ ونساءٍ "غريبات "!! لكنها لم تَلحظْ كيفَ أَنَّ " شقاوَتَه " المبكّرة وخُروجَه على" أقانيم " العائلة، قادته منذ بواكيرِ وعيه إلى النشاط الاجتماعي، ليُكملَها، بعدَ ذلك ، بالعمل السياسي والحزبي المُنَظَّم ، حتى صارَ "مُتَزمّتاً"! ، في رَفْضِ "الخَلاصِ الفردي"..! وغدا "فينيقاً" آخرَ، يَنفِضُ عن جناحيه رَمادَ الوهم.. مُتَمَسّكاً، حتى آخر يوم من حياته، بحُلُمه في "الخَلاصِ الجَمْعي"!

ها أنذا أَتَمَترسُ بالذاكرة هَرَباً من حاضرٍ مُوجِع !

نكايةً بنِسيانٍ يُراهِنُ على الفوز ، أتذكَّرُ كيفَ وقَعنا ، فأنكَسَرَ خَزَفُ الأمسِ فوقَ بلاطِ الدنيا شظاياً استعصَتْ لَمْلَمَتُها ، حتى على أمهَرِ "خَيَّاطٍ فَرفوري "!

أتذكّرُ جيداً يومَ التقينا على قارعة الدنيا .. في مهرجان روستوك – شمال ألمانيا - لجمعيات وروابط الطلاب العراقيينَ في الخارج عام 1970 .. مُذّاك انعقَدَ " ثالوثُنا "، الذي ضَمّه وصادق البلادي مع كاتب السطور. استمرَّ ذلك الثالوثُ لأزيدِ من نصف قرن .. رَحلَ صادق، وها هو ممتاز يَفْرطُ ما تبقّى من الديو، لأبقى وحيداً فينهدمَ "ثالوثُ الأثافي"!!

ستحمِلُكَ الفَراشاتُ، يا صاحبي، على مدارجِ الضياء.. خفيفاً، نحيلاً مثل فكرةٍ عابرةٍ، لتَعبُرَ المسافَةَ بين "اللامكان" الواسع إلى "مكانٍ" ضيّقٍ .. تَتخلَّصَ فيه من فِقهِ العُزلَة .. فِقْهِ الاستِغرابِ والغَرابة والغُربة !!
كمْ أنتَ الآنَ حُرٌّ ..!
لا أحدٌ يرى أثرَ النايَ فيك ..
نصفُ كأسكَ كانَ مَلياناً، والشمسُ تملأُ نِصفَه الآخر..
فما دُمتَ قد أتمَمْتَ كُلَّ التَرتيباتِ ..
دفَعتَ ديونَ الغد، ضريبَةَ الظلِّ، أجرَ الهواء..
وملأتَ القنديلَ بزيتِ الحكاية ..
تركتَ الفضاءَ يُحملِقُ في الشُبّاك ..
فأصنعْ بنفسِكَ ما تشاء،
من دون احتساب ..
فكُنْ وحيداً، وواحدا!
متحداً، عديداً وواحدا ..
اخلَعْ قميصَكَ أو حذاءكَ أو ما تَشاءْ!
لَنْ تَتَشهّى بعد اليوم لَدغَةَ الشمس، تَنسجُ للدفءِ الوشاحا ..
كي تَفرحْ ..!!
لا عدوَّ لكَ الآنَ، ولا صديقَ يتلصَّصُ على ذكرياتٍ حَبستَها،
كَمْ أنتَ حرٌّ في خيالِك، بعد الآنْ!
فالموتُ لا يعني شيئاً آخرَ ..
"نكونُ .. فلا يكون ! أو يكونُ .. فلا نَكونْ"..!!
أم تُراهُ واحداً من استعارات الحياةِ .. وعلينا ترجمةَ المَجازِ إلى حقيقة ..؟!
لنْ تحتاجَ، بعد اليوم، إلى حلاقةِ ذِقنِكَ كلَّ يومٍ أو يومين!
ولنْ تحتاجَ منذُ الآنَ، أنْ تُحدّقَ بوَجهكَ في المرآة.. فقد نَجَوْتَ من سَليقَةِ تَتَبُّعِ ما يفعلُه الزمان بنا.. أخاديدَ وأجفانٍ تَتَهدَّلْ، أُنوفٌ تكبُرْ، وتجاعيدَ تصلُ ما فوقَ الحاجبين!
لا عدوَّ لنا إلاّ الزمان، ولا خصمَ أنبَلَ من المرآةِ، لأنها لا تكذبْ ولا تُنافِقْ!
لم تُخبرني، يا ... أنتَ، إذا ما كُنتَ ستَلتقي "هناك" بهولاكو، الذي شَبِعَ موتاً، لكنه ما زالَ يواصلُ، من قبرِه، حَربَه لاستئصالنا ..!
فقد كُنّا نقولُ له : "خُذ ما شئتَ من ذهبٍ وفِضّة، وإترك لنا ظِلَّنا ..!"
فلتَأذَنَ لي، أَخَيَّ، أنْ أُخرجَكَ منّي كي أراكَ في بَعثرةِ كلماتي، خاليةً من عثورِ
الاستعارات على مصادرِها .. حينَ يَمنعُنا القلبُ المَكلومُ عن مُداواةِ أوجاعِ المفاصل بذكرى التَمَدُّدِ فوقَ العُشبِ ، عند شطِّ الحلّة .. في "الوردية" أو"القاضيّة"، "گريطْعَهْ" أو "السَدِير"، في مقهى عبد الحسَنْ غَلْوَه عند الجِسر الجديد ..! نَتَطلّعُ إلى قمرٍ يُحملِقُ في صورته على صفحةِ الماء، التي
لن يَلتقي بها أبداً!
نَرنُوْ إلى نُجيماتٍ مرتَعِشة، مهجورةً فوقَ السطوح ..
هكذا يركضُ الزمانُ في العراقِ مُسرعاً بينَ لحظةِ فَرَحٍ عابرة وأنهارٍ من بناتِ العين – الدموع! ويهرولُ الغَدُ كالسرابِ الراقصِ، ماضياً دون أنْ نُدركَه.. الشطُّ هو الآخر ما زالَ يُهرولُ.. يجرفُ معه ماضينا حثيثاً إلى ما لا نَدري!
افترَقنا .. ذهبتُ إلى كردستانْ، وذهبَ هو إلى اليونانْ.
لكنْ ما انقطعَ الوَصْلُ ولا التواصل بيننا، رغمَ "محظورات "الصيانة" !!"
كُنّا مُسافِريْنِ إثنَيْنِ، لم يفْتَرِقا ، إلاّ لاختبار الاشتياقِ لبعضٍ .. وجَلوِ ما ترَهَّلَ من ذُؤاباته! نُدافِعُ عن حقِّ الزهرة في اصطياد ضوء الشمس، وحقِّ النافذةِ في أنْ تَتَطلّعَ بالعابرين طويلاً .. !

لمْ نفترقْ .. لكننا لن نلتقي بعد اليوم ..!!
إذاً، اسمَحْ لي يا ممتاز ، ونحن نفترقُ الآنَ، أنْ أفسَخَ العَقدَ المُبرمَ بينَ عبَثٍ وعبَثْ.. فلا نَعلمُ مَنْ انتصرَ مِنّا ومَنْ انكَسَرْ ..
أنتَ .. أم أنا .. أم الموت ..؟!!
ستذهبُ أنتَ إلى "حيثٍ" آخر ، وأنا إلى "موعدٍ " أرجأتُه ، غير مرّةٍ ، مُراوغاً مع موتٍ، خفيفٍ، لا يُطيلُ عذابي، كما وَعَدْ !
فهل تُراهُ سيَفي ؟!
تأكَّدْ أنكَ ستكونَ معي في طريقٍ سَلَكناه، على غيرِ هُدىً .. بلا رغبةٍ في الوصول!
فالطريقُ أجملُ من الهدف !!
كمْ من مرّةٍ سافَرنا أو هاجرنا، ثمَّ عُدنا - وما كانَ العَوْدُ "أحمَدَا !"- فارتحلنا ، دون أنْ يتّضِحَ الفارقُ في مصائرِنا بين السفَر والهجرة والعودة ثم الرحيلْ، من كثرة ما تَتَسعُ المُفرداتُ لوَهم المُترادفات!! ومن فَرطِ ما تتعرّضُ الاستعاراتُ إلى تحوُّلاتٍ ..!
فمنذ وقتٍ بعيد أدركْنا أنَّ الكلماتَ هي وحدَها المؤهّلَةْ لترميم ما انكسَرَ من زمانٍ ومكان .. هي المادة الأولية لبناءِ "بيتٍ".. الكلماتُ تصيرُ وطناً، يا ممتاز ، فلماذا بَخَلْتَ بها ؟!!
كلماتٌ نَصقُلُها بكفاءةِ المُحترفِ الماهر .. لا بهَشاشَةِ المُشتاقِ والمُريدِ الحائرِ .. نُرَوّضُ الهائجَ منها، فلا تعود لُعبَةً، كما يظنُّ البعض ! بل هي تحديقُ الباطنِ في الظاهر، وتَجلّي الباطنِ في الظاهر، فتكونُها وتكونَكَ، حتى تروحَ "تُسمّي البئرَ جرّةً لحِفظِ الصوتِ من عَبَثِ الريح"، وتُسَمّي السماءَ بحراً مُعلّقاً فوقَ الغيم ...!
أتُراكَ تَسبَحُ الآنَ في حُلُمِكَ ..؟!
وهلْ أخرجتَ المفتاحَ من قُفلِ الباب، كي لا تُكرّرْ ما دهى مُعين بسيسو بفندقٍ لندنيّ، كي لا تبقى أنتَ والموت وحدَكُما في الغرفةِ ؟!
أمْ تُراكَ نائماً الآن دونَ أنْ تعرفَ من أينَ أتيتَ وإلى أينَ أنت ذاهبٌ؟! غيرَ آبهٍ بصَخَبِ الشارع، ولا بخيطِ ضياءٍ نحيلٍ مِلحاح، ينسلُّ عَبرَ الستارة .. فالنومُ لا يُصغي ولا يُبصرْ ..!
فَنَمْ هادئاً قُربَ نفسِك!
نَمْ!
ففيكَ من عُمُرِ تَعبِ المنفى، أكثرَ مما فيكَ من عُمُرٍ في وطنٍ ضاعَ .. ضاع، ضـــــــاع !!
لنْ تحتاجَ إلى مصباحٍ يَدَويّ أو عودِ كبريت.
فأنت موغِلٌ في سَفَرٍ، بلا طُرُقٍ وخرائطَ أو عناوين.. في رحلَةٍ مُنزَّهةٍ من أيةِ غاية !! لا يُعكّرُ نومتَكَ رَنينُ هاتفٍ أو جَرَسُ الباب، ولا يُزعجُ نومَكَ شخيرُك فيوقِظُك ..!
تَنامُ خالياً من الماضي، خاوياً من الحاضر، مُفرَغاً من الزمن والعاطفة..
فقد طَويتَ كلَّ شيءٍ خَلفَكْ وسَدَدْتَ النوافِذَ عمّا سيكونْ..
تتَحسّرُ على "قرار" المقامْ ومواويلِ الريفِ الحزين،
على نكهةِ خُبزِ التنّور،
والحنينِ .. المُخبَّأ بين الضلوع،
لمْ تَعُدْ بحاجةٍ إلى القلقِ على ما ستأتي به الأيام!!
لأنَّ رَحى الزمانِ ستظلُّ على سَجِيَّتها تدورُ، تدورْ..
تطحنُ الأعمارَ والدهورْ ..!!
ستعودُ إلى أوَّلِكَ، نَوماً بلا حُلُمٍ يُسامِرُكَ أو يُضايقُكَ!!
لا غَدٌ تَنتظرْ، ولا ماضٍ يأتيكَ مُوَدِّعاً .. لا ذكرياتْ !!
ستَمضي كأنّكَ وُلِدتَ توَّاً بلا ذاكرةٍ .. بلا حنينْ ! فالحنينُ يكذِبُ، يا صديقي، ولا يَمِلُّ من الكَذِب.. ببساطة، لأنه يكذبُ بصدقٍ ..!

وهو اختصاصُ الذاكرةِ في تجميلِ ما احتَجَبَ من المشهد!!
ستبقى شِباكُكَ، منذ الآنَ، فارغةً.. كنتَ تَنصِبُ بها فِخاخاً لصيدِ حَجَلِ الأفكار والمفردات الحلوة، وإنْ عَلقَتْ بها غَيرُها أحياناً!!
ستكون قد تَحَرّرْتَ، وانتصرتَ، هذه المرّةِ، على أرَقٍ لئيم، طالما داهمَكَ وأرهقَكْ.. كانَ يحرِمُكَ من النَّوم واليقظة معاً ..!
لنْ تحتاجُ بعدَ الآن، أن تضغَطَ على زِرِّ المِصباح عند السرير ..
بصعوبةٍ تفتحُ كتاباً، وبسهولة تنسى ما قرأتَ!!
هو الأَرَقُ اللعينُ وصَحْبُه من الكوابيس !!
كنتَ تُحبُّ النومَ، وتَمتدحُ هيبنوس، إلهَ النوم عند الإغريق، ولم تُفكِّرْ بأنه شقيقُ الموت، الذي هو بدوره نَومٌ طويـــــــــــلٌ، طويـــــــــــلٌ.. أمعنَ في الاسترخاء حتى نَسِيَ أنْ يستيقظ!
تأخّرتَ وطالتْ نَومَتُكَ، يا ممتاز، فأنهضْ واحكِ لنا ما رأيتْ!
هلْ أنَّ الموتَ جميلٌ ومريحٌ، إلى الحدِّ الذي لا تُريدُ مغادرَتَه؟!
وهل هناكَ كُتُبٌ وموسيقى وشَرابٌ ..؟!
أمْ كينونةٌ أُخرى ..؟!
ومنْ أيّ نوع ..؟!
قُمْ الآن! هيّا بنا ..! فلا وقتَ لدينا لنُوَدِّعَ أيَّ شيءٍ أو أحد!
اترُكْ مَنامَكَ نائماً، وافتحِ الشبّاكَ ليلحَقَ بكَ ساعةَ يصحو فجراً ..
لن أدعوكَ إلى الخروج في وحشَةِ ليلٍ خالٍ من الرحمة .. حينَ تَفقِدُ الريحُ بيتَها .. تَمْرَضُ، فتَروحُ تُمَشِّطُ هامَ الصَفصافِ بكَسَلْ!
أمضى، ممتاز، سنواته الأخيرة مُتطامناً ومُتصالحاً مع نفسه أولاً!
قبل سبعة أو ثمانية أعوام، حَمَل نفسَه، بتَعَبِ السنينِ وأوجاعِها، عاد إلى تلك الأرض.. إلى الحِلّة و"بِرِسْ"، كأني به أرادَ أنْ يعتذرَ عن الغيابِ .. ويُلقي عليها تحيَّة الوداع ..!
وَداعُ ما سيكونْ .. وتاريخُ آلافٍ من السنين!!
مُتَهَجِّسَ الخَطوِ أمسى .. قُلتُ له ماذا دَهاك؟!
صَمَتَ بُرهةً كأنه غَسَلَ الكلامَ ، تركه معلّقاً على حبالِ المجهول ..
فقال، بعدَ أنْ أطلقَ زفيراً حارّاً مُنْخَلِعاً من نَفْسٍ أمّارةٍ بالحَيْرة .. أرخى فَكَّه الأسفل، كأنه يبحثُ في حَلقِه عنْ لِسانٍ ذابَ، لمّا استغلَقَ عليه معنىً أرادَه:
[.. وَجدتُني ظلاً باهتاً لِما كُنْتُه هناك ، أمشي مُتوَجّساً كي أتعلَّمَ المشيَ على طُرقٍ ، ما عَرفتُها .. حتى لا أجرَحَ شَقائقَ نُعمانٍ، طالعةً بعفويّةٍ، تُسلّي المكانَ المَكسورَ في وحشَته !]
ألقى نظرةً على المكان بعينين فاحصتين .. عينٌ يُنقّبُ بها في قعرِ زمنٍ مضى، ويبحثُ عن مفاصلِ لحظاتٍ غاربَاتْ ! أما عينه الثانية، وبنظرةٍ خاطفةٍ مَسَحَ بها الأُفقَ كأنه يقيسُ المسافةَ بين النجوم .. فلم ترَ شيئاً غير أُفقٍ
جامدٍ .. لا ينتهي !
ارتسمتْ على وجهه ابتسامةٌ فاترة وصدَرَت في قعر حُلقومه سَعْلَةٌ ، أَجَّجَها
الغبار، كأنه أرادَ أن ينفِض هَمّاً أطبَقَ على أفراحه الأولى هناك. أطبَقَ جفونه، ربما أحسَّ كطائرِ سنونو قادَته بَوْصَلةُ المأساةِ نحوَ قِبلَةٍ كافِرة ..!
إذْ وَجدَ المكانَ في غيرِ صورته بخياله المَطعونِ بقرونِ ثيرانٍ، تمضغُ وتَجترُّ عَلَفَ ذكرياته !
حينها، أدرَكَ عَجزَ التَبَتُّلِ "استسقاءً" لقطرٍ يَمْحِي المَحْلَ !

فقد جَفَّتْ الرغباتُ، وانكسَرِ الهواءُ من الجفاف .. مثلُ قُرصِ رَغيفٍ يابس !
في تلكَ اللحظة، استنشَقَ بلهفَةٍ مُحاولاً الاحتفاظَ بفضاءِ المكان في أعماقه المُرتبكة .. فما عادَ يعرفُ من أينَ تطلَعُ الشمسُ هناك!
حكى لي بعد عودته من تلك الرحلة، بما لا يشبه الكَذِبَ أو الصِدقَ .. لا يدري أكانَ حلماً أم كابوساً ..!
في غرفة الفندق الذي سكَنَه بكربلاء كانت ثمةَ لوحةٌ معلّقةٌ على الحائط المقابل لسريره .. فرسانٌ وخيولٌ جامحاتٌ.. كأنها كانتْ تَهمُّ بالقَفزِ من اللوحة.. فخافَ أنْ تدوسَهُ بحوافرها، فَزِعَ لذلك، وصارَ يسمعُ خَبطَ قلبه.. اِستيقظَ مُتَيَبّسَ الحلقِ عطشاناً، أحسَّ بصداعٍ في الرأس، حاولَ فَركَ صدغيه بكمّاشةٍ من الوسطى والسبّابَة والإبهام.. أرادَ النومَ ثانيةً، بعدَ أَنْ شربَ جرعةً من الماء، فقد كانَ مُتعباً من التَجوال في المدينة، لكنْ هيهات! كانت عيناه ما زالتا تَتَطلعانِ في وجوه الفُرسانِ الغاضبةِ في اللوحة، وأقسَمَ أنه كان يسمعُ حَمحَمَةَ الصافِنات ..
سألني عن رأيي في تفسير ما رواه!
"لستُ مُفَسِّرَ أحلام .. لكنها، في أغلبِ الظن، كربلاء الرابضة فيَّ اللاوعي!"، قُلتُ .
أبيَّاً، عزيزَ النفسِ، لمْ يأذَنْ للحاجةِ أو التعبِ أنْ ينطُقَ بالشِكوى، بل بهجاء الزمن، وبالسخريةِ اللاذعة، طوَّعَ بها الشقاءَ على الامتناعِ عن المَذلَّة أو الخنوع !!
لِمْ يكشِفُ جُرحَه إلاّ أمامَ الأقربَينَ إلى روحه! أُخيَّ، وأنتَ في سَفَرِكَ الأخير .. حافياً كالصلاة،
كُنْ سيّدَ أوصافِكَ، كنْ سيَّدَ الحُلُم، اتبَعْهُ بما أُوتيتَ .. واحلمْ ، تَجِد الفردوسَ في موضعِه ..! فما نحنُ سوى أحفادَ " البدايةِ " إيّــاها !!
لا عليكَ بما قيلَ عن جهنّم! فالبوذيُّ يقول، أنَّ جَهَنّمَ هي المكان الذي يكون فيه الإنسان بلا حرية!
أنتَ الآنَ حرٌّ وحُرُّ!! تخلّصتَ من كل صنوفِ الابتزازِ والاستبداد !!
كُنْ قوياً، يا صديقي ! وإنْ لمْ تأخذْ معكَ حاجيّاتِ قلبكَ .. خيمَةَ السطوحِ النجمُ، وسُلَّماً إلى السماء، بلا " مِعراج "..!!
ولا تَخَفْ من الظُلمَةِ.. فما هي إلاّ ملاذَ اللونِ كي يَنْجو من مِحنةِ التأويلِ والتعليلِ والتفسير!!
وإنْ شئتَ، بعبارةٍ أُخرى، هي حِبرُ ريشِ الغُراب، لا غير !
ولا تَجْفَلْ فتدلُقَ قهوتَكَ، في ساعةِ نَحْس، حينَ يدخُلُ "الماضي"، مثل شَقِيّ / قَبَضاي/ من البابِ فيهربَ "الحاضرُ" منَ الشُبّاك!
لا تَستغرب! فقد قَفَزَ الحاضرُ .. صارَ خيالاً!
وأمست حياتُنا مَجازاً لحياةٍ لم نَعِشها.. أو عشناها لُحيظاتٍ هارباتٍ، لا يُمكنُ الركونُ إليها أو تَصديقها!
لا تَخَفْ!!
سَتُفَتّتُ الأرضَ، وتَطلعُ زهراً وريحاناً، يَسحَرُ الفَرَاشَ والصِغار !!
سأتلو على مَسامعِ المكانِ اللاهي عنكَ وعنّي، جزءاً من خُطبَتي.. خُطبَةٌ أردتُ لها أنْ تكونَ طويلةَ الضفائر، لا لشيءٍ .. بل لأنَّ الفراغَ المُحيطَ بنا يحتاجُ إلى
ما يُسلّيه! فلا أَحَدٌ يُهدّدُنا بالمقاطعةِ فَرطَ الضَجَر، ولا أَحَدٌ يُذكّرُني بأنَّ الرثاءَ مَديحٌ تأخَّرَ عن موعدِه حياةً كاملةً!
عِشتَ مثلَ مسافرٍ في قاعة انتظار، عابراً بين اختلاطِ الــ "هنا" بــ "هناك".. مثلَ زائرٍ .. مُتحرّراً من واجبات التأكُّدِ من أيّ شيءٍ .. الهواءُ باردٌ ومُنعِشٌ.. سينصرفُ الجَمْعُ،

ولن يبقى أحَدٌ سوايَ، يُسلّيكَ ويُلهيكَ عن "مِترَيْكَ".. فماذا تُراكَ فاعِلٌ بهما ..؟!
مِتران من العَدَمْ .. !! وأنتَ المُصابُ لا بضربَةِ شمس، بل بضربَةِ قمر! أصابتكَ بـ"فوبيا" المكان الضيّق - المُغلَق، لتُعْلي شأنَ الفضاءَ المَفتوحَ ورَفرَفَةَ عصافيرِ الصدرِ بهواءٍ مُنعِش .. !
إذا كُنتَ قد نسيتَ، فأنني أتَذكّرُ يوم تَعطَّلَ بنا المِصعَدْ وتوقّف بين الطابقين التاسع والعاشر بفندق أوكرانيا في موسكو .. وكيف شعَرتَ باختناقٍ ورُحتَ تنزفُ عرقاً.. كنتَ تضربُ البابَ وتصيح ... وبعد نصف ساعة مُرهِقةٍ سحبوا المصعد قريباً من الطابق العاشر، حيث فتحوا البابَ قليلاً لينتشلونا فرداً، فرداً. كنتَ فيها الأول.. ولمّا جاء دوري رأيتُكَ مُنهَكاً مَرمياً على كُرسيٍّ
"بابوشكا" الطابق.. امرأةٌ طيبةٌ مثل أُمّهاتنا، خَلَعَتْ عصابةَ رأسها المُزركشةَ، وراحت تَمسحُ بها نزيفَ عَرَقِكَ، وأنت تلهثُ بسرعةٍ كأنّكَ انتهيتَ تَوًّا من سباقِ ماراثونْ ..!!
كمْ من المسامير في الحيطان دَقَقْنا، يا ممتاز؟! لكن غَدَنا الطائشَ أدبَرَ.. وأمسَتْ العودةُ في ظهرِ الغيبِ!!
... ارتَحَلَ الأمسُ، وهارباً وَلّى الغدُ!! [عطفاً على ترجمته لقصيدة بريشت الشهيرة:
لا تدقَّ مسماراً في الحائط/ إرمِ معطفَكَ على الكرسي/ فأنتَ عائدٌ غداً!]
ألهذا بَحثتَ في النساءِ "الغريباتِ" عن فُوضى الجسدِ في شَهوَةِ الغَجريّاتِ الراقصاتِ على حِبال الريح؟! هُنَّ سِربُ خِيامٍ مُهاجراتٍ إلى مغامرةٍ، بحثاً عن كَفافِ عيشٍ! لا يُوَدّعنَ شيئاً كي لا يحْزَنَّ.. فالحُزنُ مهنةٌ لا تليقُ بهنَّ..
يرقُصنَ كي لا يَمُتْنَ.. يَترُكنَ الأمسَ وراءهُنَّ، حَفنَةً من رمادِ موقدٍ مُؤقّت، لتَبقى النوافذَ مُشرَعَةً على فِتْنَةِ العَفويّة!!
عاتبني حينَ قرأَ ما كَتَبتُه "أينَ ذهبَ الغجرِ ؟!" إذ كانَ يرغبُ أنْ يكونَ معنا، خاصةً أنه كان في تلك الفترة موجوداً في سفرة إلى غِرناطة..!
عَشِقَ ممتاز كازانتزاكيس وريتسوس وثيودوراكيس، وترجم لريتسوس ..
يومَ حضَرَ ثيودوراكيس إلى برلين في نيسان/ أبريل من عام 1981 ليقدِّمَ عمله المُبهر "خانتو خنيرال"، الذي مَوْسَقَهُ مُتأثراً بنصوصٍ شعريةٍ من بابلو نيرودا بنفس العنوان ... بمَشَقّةٍ حَجزتُ بطاقتين.. فرِحَ ممتاز لذلك. لكنه لم يأتِ إلى برلين لحضور العرض. كان قد أُصيبَ يومها بنزلَةِ بردٍ منَعته، فحزِنَ لِفرصةٍ، فاتَتْ عليه.. قد لا تتكرَّرْ!
سألته مرَّةً، ضمنَ "مُخابثاتٍ!" نتداولُها في سهراتنا بعد بضعة كؤوس،
حين تَتفتّح القريحةُ لـ"مناكداتٍ" طُفوليّة بريئة": [ماذا يشدُّكَ إلى هذا الثالوث اليوناني، أكثرَ من سواه ؟!]
تمهَّلَ بُرهةً.. جَعَّدَ جبهتَه وحَكَّ بيسراه فروةَ رأسِه، قال مُتأنياً، كأنَّ الكلمات ترتخي بين شفتيه، ويُقَطِّرُ الكلامَ مثلَ طفلٍ يَتَهجّى أولَ الأبجدية:
[الحضارةُ العربية، التي "صُنِّمَت" بمثالٍ ذَهَبي، تفتَّحتْ وازدهرت في الطور العباسي الأولَ بالتلاقُحِ مع الحضارة اليونانية/ المشرقية – المتوسطية والفارسية وغيرها.. قد نكونُ وَرَثنا هذا المَيلَ، دون أنْ ندري، ليس بفعلِ التقارب الجغرافي حسب، بل كذلك بفعلِ التقاربِ في الأمزجةِ! لأنهم مثلُنا، فَخَرَتهُم شمسُ المشرق، مما انعكسَ رؤىً وأمزجةً وإيقاعاتٍ متقاربة، فأفضى إلى

صياغاتٍ وبُنىً جمالية أقربَ إلى ذائقتنا من سواها من الحضارات.. ذلك ما يَحضُرُني الآن ... فهل يكفيكَ هذا...؟!] ثمَّ لَفظَ زَفرةً ثقيلة، كأنه ألقى عبئاً ثقيلاً عن كَتِفيه!
جريئاً في الرأي، لكنه هيّاباً من المغامرة كانَ ...! إذْ لمْ يسمحْ لنفسه فرصةَ التجريب وما يمكنُ أنْ يَنْجَلي عنها منْ إمكانيات جديدة، مَخافَةَ أنْ يُفضي ذلك إلى آفاقٍ ورؤىً تَتَخطّى ما أَلِفَه وإعتادَ عليه ...!
التهم ممتاز الحياةَ بتوأَدةِ فارسٍ حَذِرٍ، يَتلذَّذُ ويكتُمْ.. دون تنَطُّعٍ أو مُباهاة!
فلا وقتَ لديه للخوفِ من المجهول، ما دامت الحياةُ، وهي أنثى، مشغولةً
عن الموت بتَجديدِ صِباها، " فُجورَها وتَقْوَاها.."!
علّمَني رحيلُه الحُزنَ.. وعلّمني حزني عليه الرحيلَ عن عالمي!
أطَلتُ بوقفَتي وخُطبَتي، علَّكَ تَجِدُ في ثناياها، مما أَقصُدُه، فيستفِزَّكَ كي تنهضَ، تَحتجَّ أو تُصَحِّحْ! أو عَساكَ تُغيّرُ رأيكَ فتقومَ وتعودَ معي إلى "أين!"
ولربما أمضي معكَ إلى لا "أين" في رحلةٍ لا نهايةَ لها، ولا بدايةْ.. حيثُ لا نسمعُ سوى موسيقى الصمتِ أو الصدى إنْ شئت!
فما الصمتُ، في هذه الحال، إلاّ اطمئنان الصاحبِ للصاحب، وثِقةُ الخيالِ بنفسِه!!
أمّا الصدى فهو نَقشُ المفردات في الهواء...!
نَمْ، يا صاحبي، مُطمئناً.. فلنْ أخونَ ما أودعتني من أسرار!!
فأنا بئرُ أسرارِ صَحبي، التي لمْ يرغبوا بتدوينها ...!!
سأنسِفُ هذا اليومَ اللقيطَ، يومَ رَحلتَ، أهزعُه من التقويم وأدعَسُه..
أسكبُ دمعي في قلبي، عَسَلَ الوفاءِ لكَ، يا صاحبي، ولكل القيَم الجميلة، التي آمنّا بها..
ستبقى حياً، أراكَ تُومئُ مُبتسماً من خلف حجابِ الغياب..،
وأظلُّ مُضرَّجاً بفَيضٍ من الحنين إليكَ..
أفتقِدُكَ ما بقيتُ حيّاً!

بطاقة شخصية

* وُلد ممتاز كامل كريدي (العزّاوي) في 3.2.1933 بمدينة الحلة، في عائلة إقطاعية معروفة، لها ممتلكاتٌ وأراضٍ زراعية واسعة، من بين أشهرها حي كبيرٌ مشهورٌ في المدينة اسمه "گاع نادر"- على اسم أخيه الأكبر نادر،
* خرجَ على أقانيم العائلة، شارك منذ ريعان شبابه، في الأربعينات من القرن الفائت، في النشاط الاجتماعي بمدينة الحلّة.. حتى نَضُجَ للعمل السياسي ثم الحزبي،
* انتمى إلى الحزب الشيوعي العراقي مطلع الخمسينات،
* سافر إلى النمسا لغرض الدراسة عام 1952 ونشط في العمل الطلابي والديمقراطي هناك. شارك في مهرجان الشبيبة الديمقراطية العالمي سنة 1956 في فينا حيث تَعرَّفَ على شخصيات سياسية وحزبية، من بينها القائد الشيوعي محمد صالح العبلّي، ونوري عبد الرزاق وجعفر عبد الغني وجلال الطالباني وغيرهم..،
* انتقل من فينا إلى كولونيا - ألمانيا الغربية آنذاك - فواصل نشاطه متعدّد الأشكال طلابياً وحزبياً، حتى عام 1963، عام انقلاب شباط الأسود. وكان من بين النشطاء في الاحتجاجات ضد الانقلاب الدموي، ما دعا السلطات الألمانية حينها إلى طرده من ألمانيا - بحجة عدم امتلاكه جوازاً نافذاً، لأن السفارة

العراقية في بون رفضت تجديد جوازه، سوية مع غيره من النشطاء، كان من بينهم صديقنا الراحل صادق البلادي. استقبلتهم ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) آنذاك، فأمَّنَت لهم الإقامة والدراسة في جامعاتها،

* التحق ممتاز أواسطَ ستينات القرن الفائت بجامعة كارل – ماركس في لايبزك لدراسة الأدب الألماني، إذ تخلّى عن مواصلة ما بدأه بجامعة كولونيا من دراسة الإدارة والاقتصاد، وكان حينها في السنة الدراسية الثالثة.

* مطلع السبعينات، حين صدَرَت ببغداد أسبوعية "الفكر الجديد"، تشكَّل أول مكتب صحفي لها في الخارج بمدينة لايبزك برئاسة الرفيق الراحل د. صفاء الحافظ، إذ ضمَّ المكتب ممتاز كريدي وزهدي الداوودي وكاتب السطور، لرفد مجلة "الثقافة الجديدة" و"الفكر الجديد" بالمواد المترجمة والمقالات. كان، وصفاء الحافظ، الأبرزَ فينا باختيار وإعداد المواد واقتراح الترجمات... وأصبح المكتب إيّاه بعد ذلك من أنشط مكاتب الخارج، وبعد صدور "طريق الشعب" في صيف 1973 وعودتي إلى بغداد للعمل فيها، واصل الكتابة والترجمة لها..

* في عام 1982 حصل ممتاز على شهادة الدكتوراه بدرجة امتياز من جامعة كارل ماركس. ما زلتُ أتذكَّرُ جيداً يوم دفاعه عن أطروحته الموسومة بـ [مشكلاتُ وعوائق تطوير نظرية وطنية تقدمية للنقد الأدبي في العراق]، حين خَلَعَ جاكيته وكفَّ كُمّيْ قميصه إلى المرفقين، في موقفٍ كَسَرَ فيه المألوف بأنْ يلبس طقما غامقا، إما أسود أو نيليّ ويكونَ "متزناً!".. خلافاً لذلك، كان كَمَنْ يتأهبُ لنِزال! مع اللجنة، التي تناقش العمل.. كانت تلك الساعات قِمَّةَ تألّقه، التي لم يُكرّرها بعد ذلك! قال عنها بروفيسور تريگر، المُشرف على الأطروحة [وزّعتَ الكُرات بشكل جيد ورشيق.. كلٌ أرجعتَ له كُرَته!] وهو ما يُعادل القَوْلة العراقية العاميّة (كل واحد إنطيته طينته بخدَّه!).

* اشتركنا معه (صادق البلادي وكاتب السطور) عام 1981 في ترجمة كتاب للبروفيسور بَلْمان عن الوضع الثقافي في العراق.. لكنْ ذهب الكتابُ وكتابٌ آخر "نصوص أدبية" كنتُ ترجمتُه عن الألمانية، دفعَ لي وقتها محمد كِشلي – صاحب دار ابن خلدون - 600 دولار، كان المبلغ حينها محترماً، ما دعا الصديق الراحل فالح عبد الجبار إلى القول "إنك محظوظ مع الكِشلي لأنه لا يدفع عادة...!"، أقولُ ذهب الكتابان عندما أحرق البرابرةُ الإسرائيليون "دار ابن خلدون" أثناء احتلالهم بيروت عام 1982.

* كان صاحبي متواضعاً، بعيداً عن الأضواء، أرادَ أنْ يكونَ قدوَةً لنفسه أولاً.. مُتسامحاً حتى مع مَنْ فَشِلَ في امتحان "الأمانة"!! وفيّاً وكريماً، يمنحُكَ كلّ ما يستطيع، إنْ انسَجمَتْ كيمياؤه مع كيميائك!

الراهبة الدامية

شارل نوديي
ترجمة وتقديم: نبيل موميد - المغرب

تقديم:

يعد "شارل نوديي "واحدا من الكُتَّاب الفرنسيين الذين جمعوا بين الأدب والسياسة في مسار حياتهم؛ فقد كان في الآن نفسه من أشد المعارضين لحكم "نابوليون بونابرت". كما كان قاصا وروائيا ذا توجهات رومانسية في البداية، ثم غرائبية فيما بعد.

ولد عام 1780 ببيزانسون بفرنسا. انتقل إلى باريس سنة 1800، غير أنه عانى فيها كثيرا بسبب مواقفه وآرائه السياسية. يتم تعيينه محافظا بمكتبة الأرسنال؛ وهو المنصب الذي ظل يشغله إلى حين وفاته عام 1844.

خلال هذه الفترة، أسس "نُودْيِي" صالونا أدبيا كان قبلة لأدباء عصره، ومقصدا لأوائل الرومانسيين الفرنسيين. تميز "شارل نوديي" بالبساطة والوضوح، وبأسلوبه الأنيق، وبجمله التي تحمل أحاسيس تصل أحيانا حد التناقض؛ فهو تارة يمزج بين السخرية والتهكم من ناحية والجدية من ناحية أخرى، وتارة تراه يُعبِّر عن قلقه الوجودي المرضي في قالب من الغرائبية المرعبة التي تغذيها قصص مصاصي الدماء والأشباح والشياطين والهوام... حتى إن المتلقي يظل متأرجحا على طول السرد بين الواقع والخيال.

القصة:

يُحكى أن شبحا كان يتردَّد على "قصر ليندمبيرغ"، حتى أحاله إلى مكان غير قابل للسكن. وبفضل أحد القديسين، انحصرت المساحة التي يسيطر عليها الشبح في حجرة واحدة، تُركت على الدوام مغلقة. غير أن الشبح دَرَج على الخروج من منفاه على رأس كل خمس سنوات، في الخامس من مايو، وفي ساعة محددة من الصباح. كان هذا الشبح راهبة تسدل على رأسها حجابا وتلبس فستانا ملطخا بالدماء. كانت تمسك في إحدى يديها خنجرا، وفي الأخرى مصباحا منيرا وهي نازلة على الدُّرج الكبير، وعابرة للسَّاحات قبل أن تخرج من الباب الكبير، الذي يُحرَص على تركه مفتوحا، وتختفي. أوشك

موعد الظهور الغامض للرَّاهبة أن يحين، عندما تلقي "ريموند" المتوَلِّه الأمر بأن يترك يد "أَنْبِيسْ" التي يغرق حتى أذنيه في بحر هواها. طلب منها موعدا جديدا، فحصل عليه بعد أن اقترحت عليه أن يختطفها. كانت "أَنْبِيسْ" على دراية بمقدار نُبل حبيبها؛ مما سيحول بينه وبين تنفيذ مخطَّطها؛ فقالت له: "ستقوم الرَّاهبة الدَّامية بجولتها المعتادة في غضون خمسة أيام؛ لذلك ستكون الأبواب مُشْرعة، ولن يجرؤ مخلوق على اعتراض طريقها. سأحصل بطريقة ما على ملابس مناسبة لكي أخرج من دون أن يعرفني أحد؛ كن مستعدا على مقربة من هنا...". في هذه الأثناء، دخل أحدهم وأجبرهما على الافتراق بالقوة. في اليوم الموعود، الخامس من مايو، في منتصف الليل كان "ريموند" بالقرب من أبواب القصر، بينما تنتظره عربة بحصانين في مغارة مجاورة.

انطفأت الأضواء، وسكنت الأجواء. دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، ففتح البواب الباب الرئيس تبعا للعادة القديمة المتَّبَعة. فجأة، ظهر ضوء في أحد الأبراج، أخذ [هذا الضوء] يعبر قسما من القصر، ثم ينزل السلالم... لمح "ريموند" " أَنْبِيسْ"، فتعرّف على الملابس والمصباح والدم والخنجر. اقترب منها، فرمت نفسها بين دراعيه. فحملها وهي بين الوعي واللاوعي إلى العربة، وانطلقا معا على جناح السرعة. لم تنبس "أَنْبِيسْ" ببنت شفة.

انقطعت أنفاس الحصانين من أثر الرَّكض؛ حتى إن شدقيهما سال لُعابهما على الرغم من محاولتهما الإحجام عن ذلك. في هذه اللحظة، هبَّت عاصفة مرعبة: رياح عاتية تصفر، ورعد يدوي وسط برق يخطف الأبصار... انكسرت العربة... وغاب "ريموند" عن الوعي. بعد طلوع الشمس، وجد "ريموند" نفسه مُحاطا بمزارعين كانوا يحاولون إنعاشه. أخبرهم عن كل شيء: عن "أَنْبِيسْ"، والعربة، والعاصفة. غير أنهم كانوا يجهلون كل شيء، كما أنهم لم يروا أي شيء؛ هذا فضلا عن أنه كان يوجد على بعد عشرة فراسخ من "قصر ليندیمبیرغ".

نقله المزارعون إلى "راتيسبون"؛ حيث ضمَّد طبيب جراحه، وأوصاه بالخلود إلى الراحة. حاول الْمُحِبُّ الشاب أن يبحث في الموضوع بشتى الوسائل بدون جدوى، كما طرح العديد من الأسئلة التي بقيت معلقة بلا جواب؛ حتى إن الكل بات مقتنعا بأنه فقد عقله.

مع انقضاء اليوم، استسلم "ريموند" للنوم تَعِبا منهك القُوى. كان يغُط بهدوء في نومه إلى أن شقَّ صمتَ الليل صوتُ جرس دير على مقربة منه، فاستيقظ والساعة تشير إلى الواحدة صباحا. انتابه هلع غامض سيطر على جوارحه برمتها، حتى إن شعر رأسه انتصب وتجمد الدم في عروقه. فجأة فُتح باب الغرفة بعنف، وعلى بصيص الضوء المنبعث من مصباح موضوع على المدفأة لمح شخصا ما يقترب؛ إنها الرّاهبة الدّامية. اقتربت منه من دون أن تتحوَّل عيناها عنه، ثم جلست لمدة ساعة كاملة على طرف فراشه. ومع دقَّات الساعة معلنة الثانية صباحا، انتصبت الرَّاهبة واقفة، ثم أمسكت بيد "ريموند" وقالت له: "ريموند، أنا لك وأنت لي إلى الأبد"، قبل أن تخرج على عجل وينغلق الباب وراءها.

بعد أن شعر "ريموند" بشيء من الأمان، ملأ الدُّنيا بالصراخ والمناداة على من كانوا يَأْوُونه؛ فترسَّخ لديهم أكثر من أي وقت

مضى أنه على شفا حُفْرة من الجنون وأن حالته تزداد سوءا دون أن ينفع معها علاج طبّي معروف.

في الليلة الموالية عادت الراهبة مرة أخرى، وقد تكرر الأمر لأسابيع عدة. وحده "ريموند" كان يراها، أما من كان يجعلهم ينامون معه في غرفته فلم يُبْصروا أيَّ شيء. فيما بعد، سيعلم "ريموند" أن "أَنْيِيسْ" تأخَّرت في تلك الليلة عن الخروج لملاقاته، فبحثت عنه في نواحي القصر وجنباته من دون أية نتيجة؛ فاستنتج أنه في الحقيقة إنما اختطف خطأ الرّاهبة الدّامية. وقد سقط هذا الخبر على والدَيْ "أَنْيِيسْ" - اللذين لم يكونا يستسيغان "ريموند" - بردا وسلاما؛ فاستغلا تأثير الحدث على نفسية ابنتهما وفكرها للتعجيل بدفعها في سلك الرَّهْبَنَة. أخيرا تخلص "ريموند" من رفيقته المرعبة؛ فقد حدث أنْ مرَّ شخص غامض بـ "راتيسبون"، فأدخلوه عليه في غرفته في الساعة التي من المفترض أن تظهر فيها الرّاهبة الدّامية؛ وما إن رأته حتى ارتعدت فرائصها، وطفقت تشرح قصتها تنفيذا لأمر ذلك الشخص: لقد كانت في الماضي راهبة إسبَّانية، تركت الدِّير لتعيش حياة الخلاعة والمجون مع سيد "قصر ليندیمبيرغ". ومثلما خانت رَبَّها، خانت أيضا حبيبها بطعنه حتى الموت. بعد ذلك هي نفسها سيقتلها الشخص الذي تواطأت معه على قتل حبيبها، والذي كانت تُمنِّي نفسها بالزواج به. بقيت جثتها بلا دفن وظلت روحها هائمة منذ قرن من الزمان.

طلبت الرّاهبة الدّامية بعضا من التُّراب لمواراة جثتها الثَّرى، وقليلا من الحجارة لتسكن روحها. وعدها "ريموند" بتحقيق طلبها، ولم يرها منذ ذلك الحين.

مصدر النص المترجم:

« La Nonne Sanglante », Charles Nodier, in Histoires de Vampires, Ed: Maxi-Livre, 2005, pp 65-69.

مطبوعات وصلتنا

• حسين قاسم العزيز، جمع واعداد سلام القريني، التراث وعوامل التطور الحضاري،مؤسسة ابجد ، العراق – بابل – الطبعة الاولى 2025.
• باول كراوس، الفعل في العربية، مراجعة وتقديم: غالب المطلبي، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 2024.
• باهرة عبد اللطيف، تساؤل على باب القصيدة، بغداد، دار تأويل، 2024.
• ثائر هادي جبارة، بآلة مسرحيات أخرى، بابل، دار وتريات، 2024.
• ثامر الحاج امين، التحليق في سماء ممطرة، بغداد، دار رؤى، 2024.
• جبار عبد الله ، موسوعة ميسان الحضارية، بغداد، دار الشؤون الثقافية، 2024.
• جمال جمعة، حديقة المسرات الأرضية، جماليات الفن التشكيلي، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، 2024.
• جمال جمعة، شعراء الحرب الباردة، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، 2024.
• جميل إبراهيم صالح، الوتد المقدس (قصص ، اتحاد الأدباء والكتاب في كركوك 2024.
• ظاهر محمد صكر الحسناوي، رسائل الأمير أرسلان إلى الأب انستاس الكرملي، دار بغداد، الشؤون الثقافية العامة، ، 2024
• ليف تولستوي، لا يمكنني السكوت، ترجمة: عقيل يحيى حسن، بغداد، دار المأمون للترجمة والنشر، 2024.
• مجلة الأقلام، عدد خاص بالقصة القصيرة في العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، العدد 3، 2024.
• أدباء ديوانيون، اتحاد الأدباء والكتاب في الديوانية، العدد: بلا، 2024.
• مجلة سومر السينمائي، مهرجان سومر السينمائي، العدد 17، 2024.